جون شتاينبك

مراعي الفردوس

روايات جائزة نوبل

13

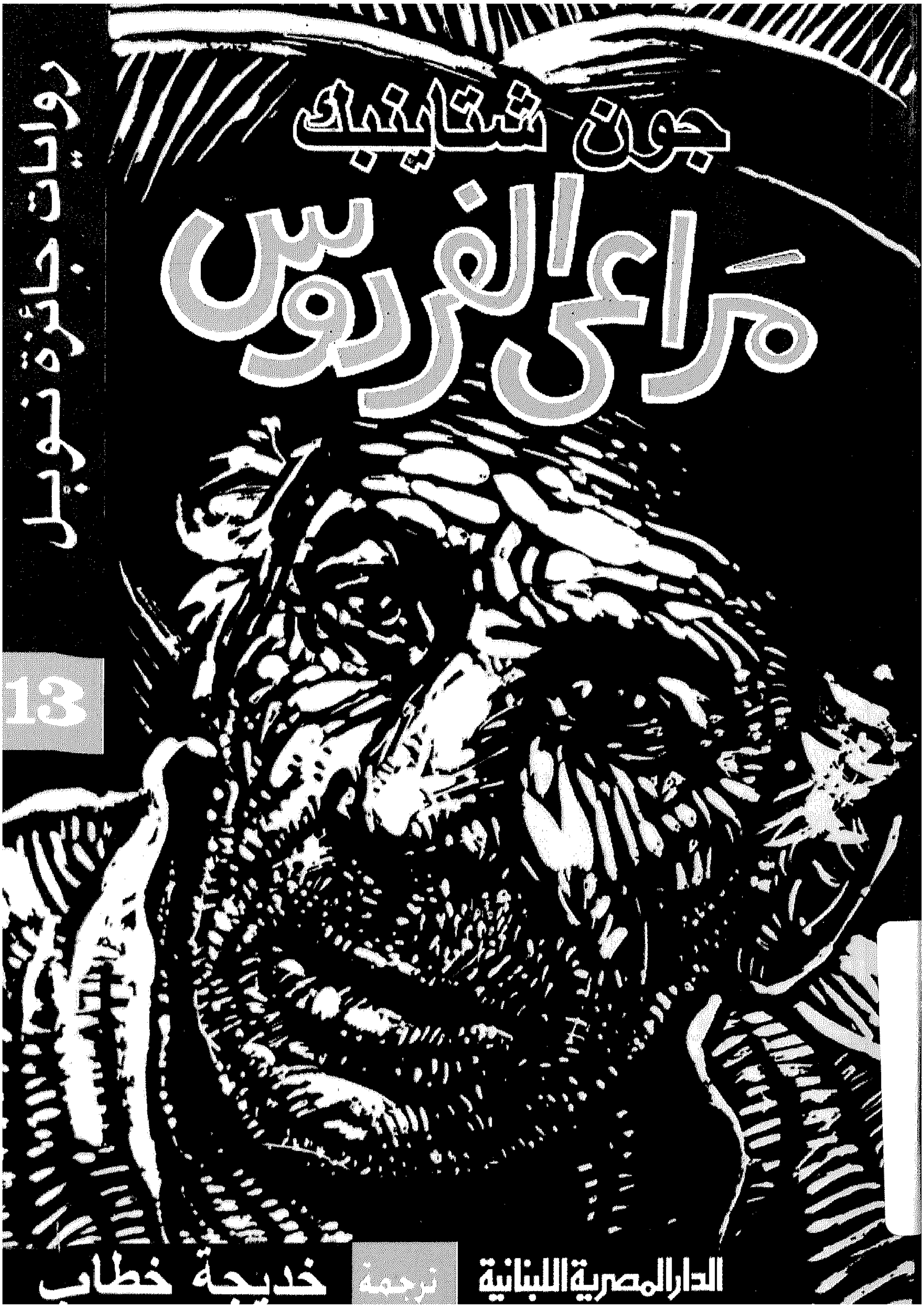

ترجمة خديجة خطاب

الدار المصرية اللبنانية

روايات جائزة نوبل

13

روايـــات جائـــزة نـوبـــل

سلسلة تصدرها

الـدار المصرية اللبنـانية

المـديـر العـام : **محمد رشــاد**

رئيس التحـريــر : **فتحى العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحى**

---

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً دار شادو

ص ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٩٠٢١ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى 5 - 378 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الأولى شـوال ١٤١٨ هـ ـ فبراير ١٩٩٨م

مراعي الفردوس

Pastures of Heaven

جون شتاينبك

نوبـل / 1962

ترجمـة **خديجة خطاب**

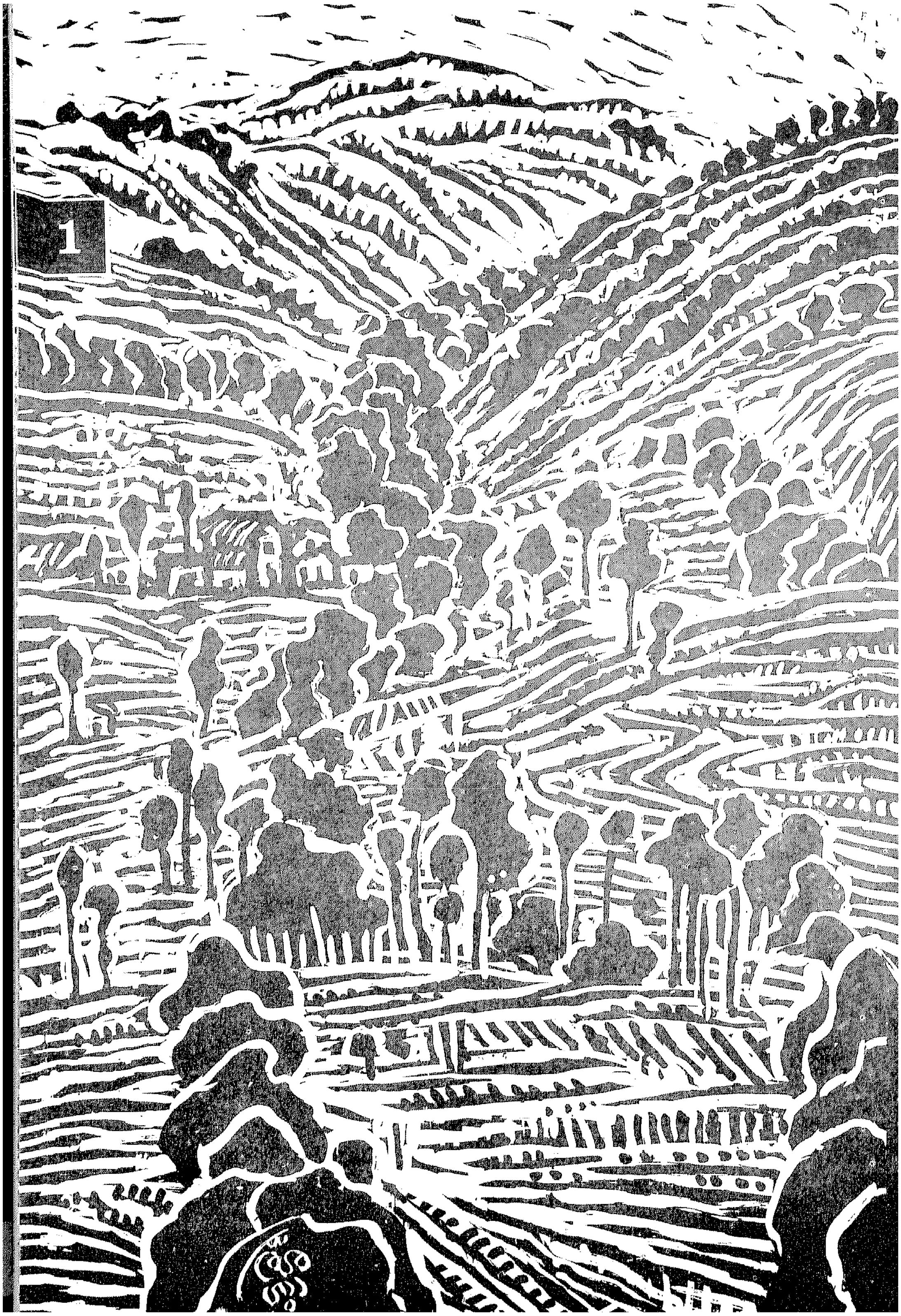
1

1

فى مدينة « التا » بولاية « كاليفورنيا » . . ارتدّ عن الدين المسيحى ذات ليلة من ليالى عام ١٧٧٦ عشرون عاملاً من الهنود الحُمر الذين تَنَصَّـرُوا من وقت قريب ، وكان ذلك أثناء تشييد « إرسالية كارميلو » ، وبإشراقة الصباح كانوا قد تركوا أكواخهم وهربوا . . بالإضافة إلى أن هذا الارتداد شكّل ظاهرة غير مرغوب فيها ، وقد شَلَّ حركة العمل ، فقد كان هؤلاء العمال يصبُّونَ الطينَ لصناعة قوالب الطوب .

بعد اجتماع السلطات المدنية والدينية توجهت مجموعة من الجنود لردّ هؤلاء المنشقين إلى حضن الكنيسة الأم . . وقد كانت رحلة شاقة لهؤلاء الجنود عبر « وادى الكرمل » وما بعده من جبال ، فلقد أثبت الهاربون من المرتدين أنهم على خبرة كبيرة وفكر جهنمى فى إخفاء الأثر والتخفى . . ومر أسبوع قبل تمكُّن الجنود من العثور عليهم ، إلى أن اكتشفوهم أخيراً فى قاع وادٍ أخضر ينسابُ فيه ينبوع ، وكان المرتدون العشرون مستغرقين فى نوم عميق . . وقد قبض الجنود الساخطون عليهم وقيدوهم بسلسلة طويلة فى صف واحد ، وعادوا مُصْطَحِبين الأَسْرَى إلى « وادى الكرمل » ليتيحوا لهم فرصة التوبة والتكفير عن ذنبهم أثناء العمل فى مصانع الطوب .

وفى عصر اليوم التالى قفز غزالٌ صينى أمام الجنود وتَوارَى عن الأنظار خلف قمة صغيرة ، فترك أحد الجنود موقعه واندفع على حصانه يُطارد الغزال ، وقد تعثر جواده الضخم وهو يصعد السفح الشديد الانحدار في حين كانت أغصان أشجار المانزانيتا كالمخالب تخدش وجه الجندى الذى استمر ـ على الرغم من ذلك ـ فى المطاردة من أجل عشاء شهى . . وفى دقائق كان قد اعتلى القمة ووقف لاهثَ الأنفاسِ متعجبًا لِماَ يرَى . . فقد وجد واديًا طويلاً واسعًا ، تكسوه المراعى وأشجار السنديان النامية ، فى هذا الوادى الظليل الذى احتضنته التلال لتحميه من الريح والضباب . . ووقف الجندى مشدوهاً أمام هذا الجمال الصافى ، وهو الذى طالما جلد الظهور السمراء حتى تمزقت ، لدرجة أن هذا الرجل المنتمى إلى جيل المتوحشين نزل عن جواده رافعاً خوذته باحترام وهو يهمس :

ايتها الأم المقدسة . هاهى ذى مراعى الفردوس الخضراء التى يدلنا الله إليها .

أما وقد أصبحت سلالته الآن تميل إلى البياض فإننا لا نملك إلا تصور قدسية شعوره عند اكتشاف هذا الوادى . . وقد ظل الاسم الذى أطلقه على هذا الوادى الرائع الممتد بين الروابى باقياً ، فهو معروف حتى اليوم « بمراعى الفردوس » ، وبالمصادفة الرائعة لم تقع هذه المساحة من الأرض تحت قبضة قانون الإقطاع ، فلم يمتلكها أى نبيل إسبانى ، وبقيت هذه البقعة مدة طويلة منسية بين الروابى التى تحيط بها . . كان الجندى الإسبانى الذى اكتشفها ينوى العودة إليها دائماً ، فهو كغيره من الرجال العتاة ، كان يحلم بشوق عاطفى ، وبفترة من السلام والسكينة قبل موته ، يستمتع خلالها فى بيت يُشيِّده قُرب الساقية ، والماشية تمسح رءوسها فى

جدرانه ليلاً . . وكان هذا الجندى قد أصيب بمرض الزهرى من امرأة هندية . . عندما بدأ وجهه يتأكل ، حبسه أصدقاءٌ مخلصون فى حظيرة قديمة لمنع انتقال العدوى . . وهناك مات فى هدوء ، فالزهرى على الرغم من منظره المشوه ليس صديقاً سيئاً لمن يُصاب به .

وبعد مرور وقت طويل انتقلت عدة عائلات لتمتلك مراعى الفردوس بوضع اليد ، فبنت الأسوار ، وزرعت أشجار الفاكهة ، ولمَّا لم يكن للأرض مالكٌ فقد تنازعت هذه العائلات طويلاً على ملكية الأرض . . وبمرور مائة عام على ذلك كان هناك عشرون أسرة تقيم فى عشرين مزرعة صغيرة فى مراعى الفردوس ، وتم إنشاء مخزن كبير ، ودائرة بريد فى وسط الوادى ، وعلى بُعد نصف ميل بالقرب من « الجدول » مدرسة ظهر عليها أثر الزمن ، وكثرت الكتابات على جدرانها . . وأخيرًا عاشت هذه العائلات فى رخاء وسلام ، فقد كانت الأرض خصبة لا تحتاج إلى جهود كبيرة ، وكانت الفواكه فى بساتينها من أفضل ما ينتج فى كاليفورنيا .

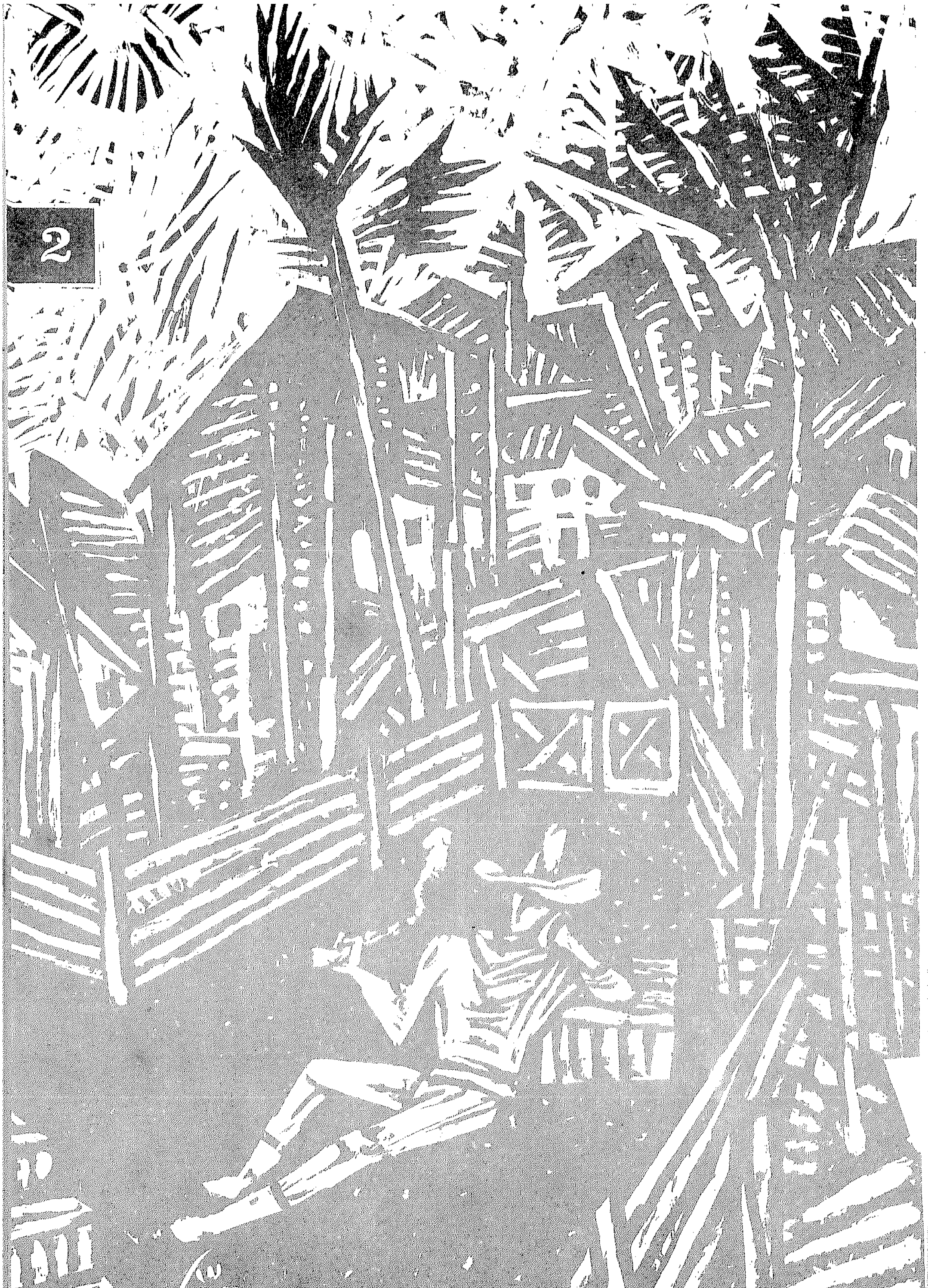
2

2

على الرغم من خصوبة الأرض وجودتها وسهولة الرى فى مزرعة « باتل » ، فإن أحدًا من سكان الوادى لم يطمع فيها أو يرغب فى الإقامة بها ، فقد كانت مزرعة ملعونة فى نظر سكان « مراعى الفردوس » ، وكانت مسكونة بالجن والعفاريت فى نظر أطفالهم . . وكانت هذه الأراضى والبيوت المهجورة تبدو دائماً متشحة بالكآبة والتشاؤم لنبذها بعد أن كانت موضع حب ورعاية . . أما الأشجار التى تنبت حول البيوت المهجورة فكانت أشجارًا مخيفة ، توحى ظلالها بأشياء كثيرة . . ظلت هذه المزرعة مهجورة خمسة أعوام ، فنمت النباتات الطفيلية بحرية وحيوية بلا خوف من الاقتلاع حتى أصبحت بحجم الشجيرات . . وفى البستان تشابكت أشجار الفاكهة وقوبت ، وتضاعفت أعداد الثمار وقل حجمها وجودتها ، ونبت «العلّيق » حول جذورها ، ومنع عنها التنفس والهواء .

أما البيت نفسه فكان مربع الشكل ، جيد البناء ، يتكون من طابقين . . كان جميل المنظر عندما طُلِىَ باللون الأبيض ، ولكن الزمن الذى اتخذ هذا البيت مسرحًا له ترك عليه بصمة من الوحدة غير المحتملة، وكُسِيَتِ النوافذُ بالأعشاب ، وأصبح اللون الأبيض رماديًا بفعل العوامل

الجوية . . وساعد الأولاد الزمن فيما يشنه من حرب تدميرية على المكان ، فحطموا النوافذ ، ونقلوا كل ما يمكن حَمْله ، فكانوا يظنون أن هذه الأشياء بلا صاحب ، ويمكنهم إذا نقلوها إلى منازلهم أن يستخدموها استخداماً مفيدًا . . فنهب الفتيان « المنزل » ، وامتلأت البئر بكل أنواع الفضلات ، كما أحرقوا ـ رغماً عنهم ذات مرة وهم كانوا يدخنون فى الحظيرة ـ مخزن المحاصيل . . وألصقوا تهمة هذا الحريق بعابرِى السبيل .

ولم يكن مكان هذه المزرعة المهجورة يبعد عن قلب الوادى الضيق ، كما كانت محاطة من الجانبين بأجود المزارع فى « مراعى الفردوس » ، وقد اعتبرها سكانُ الوادى بؤرَةَ سر ، إذْ وقع فيها حادثٌ فظيع ، ولغز شديد الغموض .

عاش « جبلان » ـ وهو واحد من آسرة « باتل » ـ فى المزرعة التى قدم إليها شابّا فى سن الخدمة العسكرية . . وأمدته والدته بالمال لبشترى المزرعة ويبنى البيت مربع الشكل فيها . . وعندما أتم « جورج باتل » بناء البيت أرسل إلى والدته لتعيش معه . . ولما حاولت السفر إليه ـ وكانت سيدة عجوز تعتبر أن أبعد مسافة هى عشرة أميال من قريتها ـ رأت فى طريقها إليه أماكن لم تخطر لها على بال فقد رأت « نيويورك » و « ريودى جانيرو » و« بيونيس إيرس » ، [illegible] بالقرب من « باناجونيا » [illegible] فى قاع « الأوقيانوس » [illegible] بالكاس [illegible] قدميها بحلقة من [illegible] إلى المرساة ، وكانت هذه السيدة المسكينة تود لو تُدفن فى مقبرة القرية [illegible] . . وبدأ « جورج باتل » [illegible] زواج مربح . [illegible] وحيد الآنسة « [illegible] » ، [illegible] عانساً فى الخامسة [illegible] من العمر ، وذات ثروة صغيرة ، وكان السبب

وراء بقاء الآنسة «ميرتيل » دون زواج هو أنها مصابة بالصرع، الذى كان يطلق عليه «النوبات» ، وكان يفسره عامة الناس بغضب الآلهة ، ولكن جورج لم يهمه إصابتها بالصرع ، فقد كان مقتنعاً أنه لا يمكن أن يحصل على كل ما يتمنى ، وهكذا تزوج « ميرتيل » التى أنجبت له ولدًا . . وبعد أن حاولت مرتين حرق المنزل حُجزت فى سجن خاص صغير يدعى «مصحة ليبهان » فى مدينة « سان جوزيه » ، وهناك أمضت الأعوام الباقية من عمرها، وهى تطرز بخيوط من القطن صورًا رمزية لحياة المسيح ، ومنذ ذلك الحين أدارت شئون المنزل سلسلة من مديرات المنزل السيئات طبعاً وخُلقاً ، وكُنَّ من ذلك النوع الذى يعلن عنه نفسه فى الصحف على النحو التالى : « أرملة فى الخامسة والأربعين تطلب عملاً كمديرة منزل فى مزرعة» . . أو « طباخة ماهرة تهدف إلى الزواج » .

وكُن يأتين إلى المزرعة الواحدة بعد الأخرى يصطنعن الرقة والحزن فى الأيام القليلة الأولى ، ويبقين كذلك إلى أن يكتشفن ما حدث « لميرتيل » فيتنقلن فى المنزل بعيون يملؤها الشر ، كما لو كُنَّ ضُرِرْنَ نفسيًّا .

أصابت الشيخوخة « جورج باتل » وهو مازال فى الخمسين ، عاكفاً على عمله طيلة وقته بلا تسلية أو ترويح ، فلم تكن عيناه تُرْفَعَانِ عن الأرض التى كان يعمل فيها بصبر كبير ، وقد اخْشَوْشَنَتْ يداه واسودَّتا وامتلأتا بالندبات والخطوط كبطن الدب .

أما مزرعته فكانت جميلة ، وكانت أشجار الحديقة تُماثل كل منها الأخرى ، مشذَّبة مقلمة ، وكانت الخضراوات تنمو يانعة خضراء فى صفوف مستقيمة ، وكان جورج يهتم بمنزله ويعتنى به ، فزرع حديقة

زهور أمامه ، ولكنه لم يسكن قَط الطابق العلوى من المنزل . . كانت المزرعة كقصيدة نَظَمَها رجلٌ أبكم . . فلقد زرعها وتعهدها بصبر ، وأخذ ينتظر عروس أحلامه ، ومع أنها لم تأتِ فإنه أبقى الحديقة يانعة فى انتظارها ، فى حين لم يهتم بابنه فى أعوام عُمره إلا قليلاً فلم يكن يهتم إلا بأشجار الفاكهة وصفوف شتلات الخضروات اليانعة . . بل إنه لم يفتقد ابنه « جون » عندما تركه ليتنقل فى عربته مبشرًا بالمسيح . . فقد مضى «جورج باتل » فى عمله وانحناء ظهره تجاه الرأى يزيد عاماً بعد عام .

أما جيرانه فلم يتبادلوا معه أى حديث على الإطلاق ، لأنه لم يكن يهتم بأى حديث معهم ، وبمرور السنين استدارت كَفَّاهُ وتجوفت ، بحيث تلتصق فيها أدوات الزراعة بشكل تام . ولما بلغ « جورج باتل » الخامسة والستين مات متأثرًا بالشيخوخة والسّعال ، وعلى الفور عاد « جون » ليُطَالب بميراثه فى المزرعة ، فى حين ورث عن والدته الصرع وادعاء التدين بجنون ، وكرس « جون » حياته لمحاربة الشياطين ، فكان يمضى الوقت متنقلاً من مُخَيمٍ إلى آخر ملوحاً بيديه ، منادياً الشياطين ، لاعناً إيَّاهم ، ومُستعيذًا منهم .

وبعد وفاة الأب ، وعودة « جون » ، كانت الشياطين مازالت بحاجة للاهتمام ، وكانت صفوف الخضروات المبذورة تحاول النمو مراراً ، ولكنها استكانت ورزحت تحت وطأة الأعشاب الطفيلية ، وانزلقت المزرعة وعادت إلى أحضان الطبيعة . . واشتدت قُوَّةُ الشياطين شرًّا وإلحاحاً ، وكإجراء وقائى طرز « جون » ملابسه بصلبان صغيرة من الخيوط البيضاء ، وكأنه بذلك يتسلح ليشن الحرب على جيوش الظلام . وكان يتسلل فى جانب الحديقة عندما يحل الليل مُمسكاً بعصًا غليظة ، فيهاجم الشجر

وجنبات الزهور ويضربها بعصاه وكأنه يطعن الشياطين حتى تخرج من مخابئها . . فكان يتسلل بالليل ليهاجم اجتماعات الشياطين ويندفع بشجاعة ويهجم بعصاه ، أما أثناء النهار فكان ينام فى منزله ، لأن الشياطين لا تعمل نهارًا .

وذات يوم تسلل « جون » بحذر عند اشتداد الظلام إلى الزنابق فى صحن داره ، فقد تصور أن الشياطين تعقد اجتماعاً بين لفاتها المتشكابة ، ولما اقترب منها بحيث لا يمكنها الهروب قفز واقفاً وهجم صارخاً بعصاه ، وأثارت الضربات أفعى كانت تأوى إلى الخميلة ، فأحدثت صلصلة متكاسلة ، ورفعت رأسها القاسى المفلطح، وعندئذ رمى « جون »العصا وارتجف بعد أن أحدثَ فحيحُ الأفعَى الغاضب صوتاً مروعًا ، ثم ركع وصلَّى برهة ، وفجأة صاح · « هذه هى الأفعى الملعونة ، أَخْرُجْ منها أيها الشيطان » ! قال هذا مندفعًا إلى الأمام ، فنشبت الأفعى ولدغته ثلاث مرات فى عنقه الذى لم يكن يضع حوله صلباناً ، وحشرج قليلاً ثم مات فى دقائق . . ولم يكتشف المحيطون ما حدث له إلا بعد أن التهمته الصقور والنسور التى انقضَّتْ عليه ، وكان ما شاهدوه من بقاياه كفيلا بإثارة الرعب من مزرعة « باتل » بعد ذلك .

وظلت المزرعة بورًا لمدة عشر سنوات ، وأخذ الأطفال يشيعون أن المزرعة مسكونة بالجن ، وكانوا يقومون برحلات ليلية إليها حتى يخيف بعضُهم بعضًا ، فقد كان المنزل المقيم الكالح يثير الرعب بنوافذه المجوفة الفارغة التى تساقط طلاؤها الأبيض ، تاركاً بقعاً كبيرة على الجدران ، وتشققت أخشاب السقف ، وأقفرت المزرعة ، وآلتْ بالوراثة من « جورج باتل » إلى ابنٍ من أبناء عمومته البعيدين ، غير أنه لم ير المزرعة مطلقاً .

وفى عام ١٩٢١ انتقلت ملكية هذه المزرعة إلى « آل موستروفيك » . . وكان قدوم هذه العائلة غامضاً ومفاجئاً . . ففى صباح أحد الأيام وصلوا إلى المزرعة ، وكانوا زوجًا وزوجة مسنين نحيفين ، تكاد عظمهما تبرز ، وكانت بَشرة وجهيهما مشدودة ولامعة ، وكانا لا يجيدان الإنجليزية ، فكان ابنهما هو الذى يتصل بأهل الوادى . . وكان هذا الابن رجلاً طويلاً ، بارزَ الوجنتين ، ينحدر شعره الغزير إلى منتصف جبهته مُظَلِّلاً عينيه الفاحمتين الرقيقتين الحزينتين ، وكان يتكلم الإنجليزية بلكنة، غير أنه ما كان يتكلم إلاَّ مضطرًّا للتعبير عن احتياجاته .

وفى المخزن استجوبه الناسُ بِلُطفٍ دون أن يجيبهم . . سأله « ت . ب . آلن » صاحب المخزن مرة :

ـ اعتقدنا دائمًا أن هذه المزرعة مسكونة ، فهل رأيتَ أَيَّ شبحٍ حتى الآن؟

ـ كلاَّ!

ـ ستكون على مايرام حينما تزيل منها الأعشاب الطفيلية .

ولكن « موستروفيك» لم يرد ، وانسحب خارجاً من المخزن .

وعلَّق « آلن » على الحادث بقوله :

ـ يبدو أن غرابة المكان تعكس على مَنْ فيه ، فكل من فيه يكره الكلام . ونادرًا ما شاهَدَ الناسُ العجوزين « موستروفيك » ، غير أن الابن كان يعمل فى المزرعة طوال النهار ، وكان يقوم وحده بتنظيف الأرض وزراعتها ، وتقليم الأشجار ورشها بالمبيدات ، وكان يمكن رؤيته فى أى وقت وهو يعمل بهمَّة متنقلاً بسرعة فى مكان عمله ، كما لو كان يتوقع توقُّف الزمن قبل ظهور المحصول .

كانت الأسرة تعيش وتنام فى مطبخ المنزل الكبير ، فقد ظلت جميع الحجرات مغلقة وخالية ، لم يُصلح أَحَدٌ نوافذها المكسورة . . بل ألصقوا الأوراق على ثقوب النوافذ فى المطبخ لتسد منافذ الهواء ، ولم يعيدوا طلاء المنزل ولم يعتنوا به إطلاقًا . . ولكن الأرض بدأت فى استرداد نضارتها بفضل مجهودات الشاب المثابر .

ومَرَّ عامان والشاب يعمل فى الأرض بجد ، يخرج مع خيوط الفجر ولايعود إلاَّ بعد حلول الظلام . .

وذات صباح وبينما كان « بات همبرت» فى طريقه إلى المخزن لاحَظَ أن الدخان لا يتصاعد من مدخنة « آل موستروفيك » فقال :

ـ يبدو أن المكان قد عاد مهجورًا فلابد أن مكروهًا قد حدث للشاب .

ولثلاثة أيام راقب الجيران المدخنة بحذر ، فلم يودوا أن يُعَدَّ تدخُّلهم تطفُّلاً . وفى اليوم الرابع ذهب « بات همبرت » مع « ت . ب . آلن » «وجون هوابتسابا » إلى البيت . كان المكان ساكناً ، ويبدو فعلاً كالمهجور . . دق « جون هوابتسابا » على باب المطبخ ، ولكنه لم يَلْقَ ردًا أو يسمع حركة ، فأدار مقبض الباب ، فتح الباب ، فبدا المطبخ نظيفاً للغاية ، وقد استقرت الصحون على المائدة وعليها قطع من الخبز ، وبيض مقلى ، ولكن طبقة من العفن بدأت تظهر فوق الطعام ، فى حين كان بعض الذباب يطير حول الشعاع المتسرب من الباب المفتوح ، وصاح « بات همبرت » :

ـ هل من أحد هنا ؟

قال ذلك على الرغم من أنه كان يعلم بعدم جدْوَاه . .

وفتشوا البيت تفتيشاً كاملاً ولكنه كان خاليًا ، فلم يعثروا على أثاثٍ في الغرف ـ باستثناء المطبخ ـ وقد هُجرت المزرعة تماماً ، وفجأة وعندما أخبروا شريف المقاطعة بذلك فيما بعد لم يجد أى تفسير ، فقد دفع « آل موستروفيك» ثمن المزرعة نقدًا ولم يتركوا أثرًا عند رحيلهم ، فلم يشاهدهم أحد ، لم يَرَهُم إنسان بعد ذلك ، وكذلك لم تحدث جريمة فى تلك الضاحية قد تكون لها علاقة بهم . . فلقد كانوا يستعدون لتناول الإفطار ذات صباح عندما اختفوا.

حاول سكان الوادى البحث فى هذا الموضوع ، ولكن لم يتمكن أى منهم من إيجاد تفسير معقول لها .

ومرة أخرى عادت الأعشاب للأرض ، فتسلقت شجيرات العُلّيق البرى أغصان أشجار الفاكهة ، وارتدَّت الأرض بورًا مقفرة بسرعة ، كان ذلك هو عادتها . وتم بيع المزرعة إلى شركة عقارية فى « مونتيرى » لسداد الضرائب ، وآمنَ سُكَّان «مراعى الفردوس » ـ سواء اقتنعوا أم لا ـ بأن اللعنة قد حلَّت على المزرعة ؛ وعلى الرغم من عدم معرفتى بالسبب فإن هناك شيئاً مخيفًا غامضًا لا أفهمه يحيط بالمكان ، ومن السهل أن نصدق أنها مسكونة .

عمت الفرحة سكان « مراعى الفردوس » عندما بلغهم أن مزرعة «بات» ستسكن من جديد ، ونقل هذه الشائعة « بات همبرت » إلى المخزن بعد أن شاهد السيارات أمام المنزل القديم ، وَرَوَّجَ « ت . بِ . آلن » القصة ، وتصور « آلن » أسباب الملكية الجديدة ، وحَدَّثَ بها زبائنه بادئاً روايته بـ «يقولون » إن الذى اشترى مزرعة « باتل » من أولئك الذين يهتمون بالأشباح ليؤلف عنها قصصاً . وكانت كلمة « يقولون » بالنسبة إلى

«ت . ب . آلن» كالدرع الواقى ، يستخدمها كما تستخدم الصحف كلمة «يزعمون » .

وفى « مراعى الفردوس » انتشرت دستة من الحكايات عن المالك الجديد « بيرت مونرو » ، حتى قبل أن يتسلم ممتلكاته الجديدة . وقد لاحَظَ أن «جيران المستقبل » يتفحصونه ، وعلى الرغم من ذلك لم يتمكن من ضَبْطِ أيٍّ منهم وهو يحدق فيه ، فاختلاس النظر قد أصبح فنًّا رفيعاً بين سكان الريف . . ففى الوقت الذى تظن أنهم لا يشعرون بوجودك ، يلاحظون تماماً لون عينيك وشعرك ، وشكل أنفك ، وينظرون إلى كل جزء ظاهر منك ويعددون ويحفظون الملابس ، ويطلقون على شكلك وشخصيتك ثلاثَ أو أربع صفات .

بدأ « بيرت » بعد شراء المزرعة فى العمل فى الساحة الممتلئة بالنباتات ، وبدأت مجموعة من النجارين فى ترميم المنزل ، فأخرجت قطع الأثاث وأحرقتها ، وتم هدم بعض الحواجز وإنشاء أخرى جديدة ، وتم ترميم الجدران وبناء السقف ، وفى النهاية تم طلاء المنزل من الخارج بطلاء أصفر فاتح جديد .

قطع « بيرت » بنفسه جميع الأعشاب والأشجار فى الساحة ليسمح للضوء بالدخول للمنزل ، واختفت من المنزل خلال ثلاثة أسابيع كل المظاهر التى تجعله يبدو كالبيت المهجور المسكن بالأرواح ، بل تغيّر ليبدو مثل مئات الآلوف من البيوت الريفية الموجودة فى الغرب بفضل مهارة المشرفين عليه ، ووصلت قطع الأثاث بعد أن جف طلاء البيت من الداخل والخارج : كراسى مبطنة مريحة ، وأرائك ، وفرن جديد مدهون وأَسِرَّة من الحديد المطلى بلون الخشب تضمن لمن يستخدمها الراحة التامة . . ووصلت

أيضاً مرايا لها إطارات من الصدف ، وسجاجيد « ويلتون » ، وعدة لوحات لفنانٍ من المحدثين أكثر من استخدام اللون الأزرق . ووصلت السيدة « مونرو » وأولادها الثلاثة مع الأثاث ، وكانت سيدة بدينة تضع على عينيها نظارة بلا ذراع ولا إطار ، ولكنها ترتكز على الأنف ، وتربط بشريط تدلى على الصدر . أما مديرة المنزل فكانت شديدة البراعة ، اهتمت كثيرًا بتنسيق الأثاث وجعلت العمال ينقلون به من مكان إلى آخر ؛ حتى تستقر على نظام يعجبها فتبتسم ، واستقر الأثاث فى هذا المكان لا يتحرك إلاَّ أيام التنظيف .

أمّا ابنتها « ماى » فكانت فتاة جميلة ، لها خدان ناعمان مستديران ، ونهدان ناعمان ، وكان مظهرها منيرًا ، وتحت ذقنها انحناءة بسيطة توحي بترهُّل ، وكانت نظراتها صادقة أليفة ، لا تعبر عن ذكاء أو غباء ، وكان يبدو جليًا أن الأيام ستجعلها بلا شك صورة طبق الأصل من أمها ، مدبرة ماهرة وأمًّا طيبة لأولاد أصحاء .

فى غرفتها الصغيرة وضعت « ماى » برامج الرقص بين زجاج المرآة وإطارها [illegible] على الجدران صورًا لأصدقائها فى « مونرى » . [illegible] وضعت [illegible] الصور الخاصة بها وكراسة مذكراتها المغلقة على [illegible] صغيرة بجوار فراشها . كانت « ماى » تخفى مذكراتها عن العيون [illegible] لم تسجل فيها شيئًا للاتهام على الإطلاق فهو تتعلق بالرقص والحفلات [illegible] الطوق ، وإعلانات [illegible] عن مشاعرها [illegible] بعض [illegible] .

ابتاعت « ماى » [illegible] وردىّ اللون لستائرها التى اشترتها [illegible] بنفسها ، وإطارًا من الكرتون المغطى بالزهور ، ودمية فرنسية

ذات ساقين طويلتين تنام على سريرها المفروش بملاية من الساتان ، وعليه تناثرت خمس وسائد . كانت « ماى » تعتبر هذه الدمية الدليل على سعة أفقها وتفتح عقلها ، وصبرها على أشياء لا ترضى عنها . وقد كانت تحب أن يكون أصدقاؤها من أصدقاء الماضى الذين كانت تجد فى مغامراتهم ما يعزيها عن حياتها الخاوية .

كان عمرها تسعة عشر عاماً ، وكان الزواج هو شغلها الشاغل . . وكانت عندما تخرج بصحبة الشباب تتكلم بحماس عن الـمُثُل العليا التى لم تكن تعرف عنها إلاّ أنها السيطرة على طبيعة القبلات التى تتلقاها الفتاة وهى عائدة من حفلات الرقص .

كان « جيمى مونرو » فى السابعة عشرة من عمره ، أنهى دراسته الثانوية ، وكان يتصف بالسخرية ، ويتظاهر أمام أسرته بالرزانة والانطواء ، فقد كان يدرك أنه لن يستطيع أن يعتمد عليهم فى الخبرة بالحياة ، فهم من جيل لا يعرف الخطأ أو البطولة ، وبالتالى فمن المستحيل أن يقبلوا تصميمه على أن يملأ حياته بالمغامرات العاطفية قبل أن يكرسها للعلم .

كان « جيمى » يعنى بكلمة العلم « الراديو ، وعلم الآثار ، والطائرات» ، وكان يتخيل نفسه ينقب عن أوانى الذهب فى جمهورية «بيرو» ، أو يحلم أنه حبس نفسه فى ورشة شبيهة بالزنزانة ، وبعد سنوات من العذاب يخرج منها بطائرة مبتكرة فى تصميمها فائقة السرعة .

امتلأت غرفة « جيمى » فى البيت الجديد بالآلات الصغيرة . . فكان فيها جهاز راديو مفتوح بسماعات ، وموتور يُدار باليد ، ويدير بدوره مفتاحًا لا سلكيًّا ، ثم مجهر من النحاس ، وأشياء كثيرة وعديدة تفككت إلى أجزاء صغيرة .

كما كان له أيضاً مخزنٌ سِرِّىٌّ عبارة عن صندوق أغلقه بقفل كبير ، وكان الصندوق يحتوى على عدد من أصابع الديناميت ، ومسدس قديم ، وعلبة سجائر ، وثلاث صور تعرف باسم الأرامل المرحات، وزجاجة « كونياك » صغيرة ، وفتَّاحة ورق على شكل خنجر ، وأربع حزم من الرسائل أرسلتها أربع فتيات مختلفات ، وسته عشر قَلَمًا أحمر شَفًّافًا ، حصل عليها للذكرى من صاحبات الرقص ، وعلبة بها مذكرات عن حبيباته الحاليات ، وبعض الزهور الذابلة والمناديل والأزرار ، وكان من أكثر ما يعتز به رباط للساق مغطى بالدانتيل الأسود ، ولم يكن « جيمى » يذكر من أين حصل علية . . وقد اعتاد «جيمى » أن يغلق غرفته عليه قبل أن يفتح صندوقه .

وكان ما ارتكبه « جيمى » من خطايا أثناء دراسته الثانوية يماثل ما ارتكبه أصدقاؤه ، وكان بعضهم قد ارتكب ما يفوق ما فعَلَه بكثير .

ولكنه بعد أن انتقل إلى « مراعى الفردوس » أدركَ أَنَّ أَخْطَاءَهُ كانت كبيرة ، واعتبر نفسه تائبًا ، ولكن ذلك لم يكن يمنعه من الارتداد مرة أخرى عن الصواب والسير الحَسَن ، وفى الحقيقة لقد كانت حياته ومافيها تعصمه بشدة فى تصرفه مع الفتيات فى الوادى ، بالإضافة إلى وسامته وبشاشته ، أما « مانفريد » الابن الأصغر ـ ويُدَلَّل باسم « مانى » ـ فكان طفلاً رصيناً فى السابعة ، كان وجهه يبدو متقلصاً مشدودًا بسبب الجيوب الأنفية ، وكان أهله يتحدثون عن إزالتها بالجراحة ، غير أن « مانى » كان مرعوباً من إجراء العملية الجراحية ، فاستغلت أُمه ذلك لتهديده بها حتى تَحِدَّ من شقاوته . . وكان أبواه يعتبرانه مفكرًا ، وربما عبقريًّا ، فقد اعتاد أن يلعب بمفرده ، أو يجلس الساعات الطوال متأملاً فى الفضاء « حالمًا » كما كانت تقول أمه ، ومرت عدة سنوات دون أن يدرى والده أن نمو رأسه

قد توقف بسبب الجيوب الأنفية . وكان « مانى » فى العادة طفلاً فظيعاً يمكن تخويفه ودفعه إلى الطاعة بِيُسْرٍ ، لكنه إذا خاف أكثر مما ينبغى كان يُصَاب بحالة من « الهيستريا » تفقده السيطرة على نفسه ، وقد يضرب جبهته فى الأرض حتى تسيل الدماء على عتبته .

جاء « بيرت مونرو » إلى « مراعى الفردوس » بائساً من فشله في عدة مشروعات قام بها ، ولم يكن فشله يرجع إلى تقصير منه بقدر ما كانت قوى أكبر منه تتحكم فى قَدَرِه ، فقد كانت المصائب تقع عليه بالمصادفة البحتة .

واقتنع « بيرت » أن قَدَرَهُ السَّـيِّىء يمنعه من النجاح ، ولهذا يئس من الصراع مع هذا الشىء المجهول الذى لا يعرف اسمه . . وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والخمسين من عمره فإنه قرر الانسحاب ، لأنه شارَفَ على الاقتناع بأن لعنةً مّا تطارده ، وهناك عشرات الأمثلة على ذلك . . فالمرة التى افتتح فيها منذ عدة سنوات مشروعاً فى إحدى ضواحى المدينة ونجح عمله وتدفق بين يديه المال وبدأ فى الاستقرار ، أنشأت الحكومة طريقاً جديدًا رئيسيًّا يمر بشارع آخر ، فضعف موقف « بيرت » وانقطع عمله . . وفى السنة التالية افتتح مخزناً للبقالة ، ومرة أخرى ينجح ويسدد دينه ويبدأ فى الادخار فى البنك ، فإذا ببقالة شهيرة تفتتح فرعاً بالقرب منه وتشن عليه منافسة شديدة اضطرته أخيرًا إلى إنهاء هذا العمل . سوء الحظ الذى كان يطارده أفقده الثقة بنفسه ، وعند بداية الحرب كان غايةً فى الإحباط ، وعلى الرغم من أنه كان يمكنه الاستفادة منها ، فإن خوفه من المحاولة حَالَ دون ذلك .

أما المرة التى تأكد فيها من سوء الطالع الذى يُلاحقه فكانت المرة التى

عمل فيها متعهدًا لمزارع الفاصوليا بعد أن شجع نفسه كثيرًا على خوض هذا المجال ، وفى السنة الأولى كان ربحُه خمسين ألف دولار ، وفى السنة التالية تضاعف ربحه ليصل إلى مائتى ألف دولار ، وفى السنة الثالثة تشجع وأصبح متعهدًا لألوف الأفدنة قبل بداية زراعتها . . وتعهد ـ كشرط من شروط العقد ـ أن يدفع عشر سنتات ثمناً لرطل الفاصوليا ، متصورًا أنه سيبيعه بثمانية عشر سنتاً ، وبعد انتهاء الحرب حقق خسارة فادحة ، لأن الرطل قد بيع بأربع سنتات فقط . . هكذا أضعفت الخسارة رأسماله الذى بدأ به هذا العمل .

وبعد سنوات من الاعتكاف فى منزله مكتفياً بزراعة بعض الخضروات فى حديقته ، شاردًا مع حَظِّه السيىء ، عاوَدَه حنينه للأرض التى كان يؤمن بأنها السبيل الوحيد المضمون للرزق ، وفكر فى الاستقرار فى مزرعة صغيرة ، فى هذا الوقت كانت مزرعة « باتل » معروضة للبيع عن طريق شركة عقارية فى « مونتيرى» . عَايَنَ « بيرت» المزرعة ، وشاهد ما يمكن القيام به من إصلاحات ، واشتراها على الرغم من مُعارضة الأسرة فى أول الأمر ، وبعد تنسيق الحديقة وتوصيل الكهرباء والتليفون وتجديد الأثاث ، تحمست الأسرة للانتقال إليها وكانت « السيدة مونرو » ترحب بأى تغيير يمكن أن يزيل هذا العبوس عن وجه « بيرت » وهو فى حديقته « بمونتيرى » ، وفى شهر واحد كانت الثقة بالنفس قد عادت إلى « بيرت » ، وفارق العبوس وجهه ، وشعر أن سوء الحظ قد تخلَّى عنه وأصبح متحمساً لزراعته ، يقرأ الكثير عن طرقها ووسائلها ، واستدعى من يساعده فى العمل الذى يستمر من الصباح حتى المساء . . كل يوم كان يمر يأتى بشىء جديد ، كل بذرة تشق التربة لتظهر

تبدو وعدًا بالحماية والأمان . . كان « بيرت » سعيدًا ، ولأنه استرد ثقته بدأ فى علاقة الصداقة مع أهل الوادى وتعزيز مكانته فيه .

كان من الصعب على « بيرت» الاندماج بسرعة فى مجتمع ريفى ، وخاصة أن أهل الوادى قد تابعوا قدوم « آل مونرو » إلى الوادى بجفاء ، فقد اعتبروا أن مرزعة « باتل » مسكونة واعتادوا عليها ، لذلك لم يشعروا بالارتياح لأن « بيرت » قد أثبت خطأهم وغيَّر المنطقة بتحويلها إلى مزرعة خصبة .

كانت سعادة « بيرت» بسبب تخلُّصِه من « آلهة الانتقام » السبب الرئيسى الذى ساعده على كسب حب الناس ، كما أنه كان رجلاً لطيفاً يَسْعَدُ بخدمة أصدقائه ولا يتردد فى طلب مساعدتهم ، فكان يستعير ويُعير الأدوات الزراعية ، فكان حدثاً هامًّا أن يتغلب « بيرت » على مشاعر الحقد، وأن يصبح رجلاً قويًّا وجارًا مألوفاً ، وأن يصبح بيته قطعة من الوادى ، وفى نهاية الشهر السادس انتخب عضوًا فى مجلس إدارة المدينة ، ولم يمض على وصوله إلى الوادى وقت طويل حتى سأله « ت . ب . آلن» السؤال المعروف :

ـ اعتقدنا دائماً أن هذا المكان تلاحقه اللعنة ، فقد جرت فيه كثير من الأمور الغريبة ، فهل شاهدت شبحًا حتى الآن ؟

ضحك بيرت وقال :

ـ لو أبعدتم الطعام عن مكانٍ مَّا فستغادره الفئران . . لقد أزلت مظاهر القِدَم والظلمة عن المكان ، وهى الظروف التى تعيش فيها الأشباح . قال « آلن » معترفاً :

لقد صنعت فعلاً من هذا المكان شيئاً جميلاً ، فليس هناك ما يفوقه فى «مراعى الفردوس» .

قطب « بيرت » جبينه وقال معبرًا عن الفكرة التى طرأت عليه :

ـ لقد لازمنى النحس لفترة طويلة ، فكل المشروعات التى بدأتها فشلت ، ولما جئت إلى هنا كانت فكرة « اللعنة » تطاردنى .

وفجأة ضحك مسرورًا بالفكرة التى طرأت عليه واستطرد قائلا :

ـ فما الذى حدث ؟ لقد اشتريت مكاناً المفروض أنه محاط « باللعنة » ، وربما كانت لعنتى ولعنة المزرعة فد تصارعتا حتى قتلت كُلٌّ منهما الأخرى ، ولكنى متأكد أن اللعنتين قد زالتا تماماً .

ضحك الجميع وضرب « ت . ب . آلن » يده على الحاجز صائحاً :

ـ نكتة رائعة فعلاً . . ولكن الأكثر روعة أن لعنتك تزوجت لعنة المزرعة ثم دخلتا إلى ثقب كما تفعل الأفاعى ، وربما سينجبان لعنات صغيرة كثيرة ستنتشر فى « مراعى الفردوس » قريباً ـ وانفجر الرجال ضاحكين ، فى حين احتفظ « ت . ب . آلن » بهذا المشهد فى ذاكرته ، لأنه يشبه إلى حد كبير حوار المسرحيات .

3

3

عاش « إدوارد ويكس » فى منزل صغير عند أطراف الطريق المتقاطع مع « مراعى الفردوس » ، وكان خلف المنزل حديقة ومزرعة كبيرة للخضروات، وكانت زوجة « ويكس » وابنته الجميلة تشاركانه فى العناية بالحديقة والمزرعة ، فكانتا تعدان الحمص واللوبيا للبيع فى « مونتيرى » .

أما « إدوارد ويكس » فكان له وجه أسمر عابس ، وعينان صغيرتان بلارموش ، وقد اشتهر بأنه من أكثر الأهالى خُبثاً ومكرًا ، فقد كان يستطيع إتمام الصفقات الصعبة . وكان من دواعى سعادته البالغة قدرته فى الحصول على بعض دراهم أكثر من جيرانه ، لا يتورع عن الغش فى تجارة الخيول لو استطاع دون انكشاف أمره ، ولأنه حاد الذكاء فقد اكتسب احترام الجميع . . ولكن من الغريب أن ذلك لم يؤثر على ثرائه زيادة أو نقصاناً على الرغم من تظاهره بإيداع النقود فى البنوك وعقود الضمان . وكان يستشير أعضاء مجلس إدارة المدرسة أثناء الاجتماعات حول مختلف الأسهم ، وبذلك استطاع إيهامهم أن مدخراته كبيرة . وكان أهل النادى يسمونه « شارك ويكس » أو « سمكة القرش » ، وكان الواحد يتهامس مع الآخر «شارك؟ ! إنه يملك عشرين ألفاً . . مبلغ ليس هَيِّنًا ! »

وفى الواقع فإن « شارك » لم يدخر فى حياته أكثر من خمسمائة دولار دفعة واحدة ، وكان من دواعى سعادته البالغة أن يعتقد الناس أنه غنى ، فانتشار هذه الصورة الوهمية كان يسعده ، فاليوم قد أصبح كالحقيقة . وقد اعتبر أن ثروته الخيالية مقدارُها خمسون ألف دولار ، واحتفظ بسجلٍ يدّون فيه ما تَدره هذه « الثروة » من أرباح ، وكان حساب هذه الأموال والدخل هما السعادة الاولى والكبرى فى حياته .

تأسست فى « ساليناس » شركة للبترول تتولى حفر بئر فى الجزء الجنوبى من مقاطعة « مونتيرى » وما إن سمع « شارك » عنها حتى توجه إلى مزرعة «جون ويتسايد» كى يتشاور معه فى قيمة أسهم هذه الشركة ، فقال له :

ـ إننى فى حيرة بشأن شركة البترول فى الجنوب .

فأجابه « ويتسايد » وكان يُستشار كثيرًا فى هذه الأمور :

ـ إن تقرير علماء الجيولوجيا يبشر بالخير . . ولقد سمعت كثيرًا أن هذه المنطقة تحتوى على بترول ، وأن الاشتراك فى هذا المشروع يحتاج إلى أموال كثيرة طبعاً .

فكر « شارك » فترة قصيرة ثم قال ـ وقد ثَنَى شفته السفلى بأصابعه :

ـ لقد كنت أُقلِّب الأمر فى ذهنى ، ويبدو أنه عرضٌ مُغْرٍ ، وخاصة أن معى عشرة الآف أستثمرها جميعاً ، وأتصور أننى يجب أن أفكر فى هذا المبلغ بطريقة فعَّالة ، ولهذا أردت أن أعرف رأيك . غير أن « شارك » قد استقر على رَأْى ، فما إن عاد إلى منزله حتى أحضر سجل حساباته وسحب عشرة آلاف دولار من رصيده المزعوم ، وأضاف ألف سهم من أسهم شركة البترول الجنوبية فى سجل مدخراته .

ومنذ ذلك الوقت وهو يتابع نشرة أسعار الأسهم باهتمام بالغ ، فلو ارتفعت الأسعار قليلاً كان يصفر بهدوء ، أما إذا هبطت الأسعار فكانت المرارة تغزو حلقه ، وبعد فترة طويلة شعر بالفرحة والفخر عندما ارتفعت أسهم الشركة ارتفاعًا سريعًا ، لدرجة أنه ذهب إلى المتجر الرئيس فى «مراعى الفردوس » واشترى ساعة فخمة رخامية سوداء ، لها فى أطرافها أعمدة مرصعة ، وفى أعلاها حصان برونزى .

أمَّا أصحاب المتجر فقد تهامسوا وتشاوروا ، وقرروا أن « شارك » لابد أن يحقق ربحاً كبيرًا .

وهبطت الأسهم تماماً بعد أسبوع واحد فقط ، واختفت الشركة تماماً ، وما إنْ بلغ « شارك » هذا النبأ حتى حسب حساباته ، وسجل فيها أنه قد باع حصته فى هذه الشركة قبل بالإفلاس بيوم واحد ، وأن أرباحه فى هذه الصفقة قد بلغت ألفى دولار .

أوقف « بات همبرت » سيارته وهو عائد من « مونتيرى » على الطريق الزراعى أمام منزل « شارك » وناداه قائلا :

ـ سمعت أنك خسرت كثيرًا فى صفقة شركة البترول الجنوبية ، فابتسم «شارك » باطمئنان وأجاب :

ـ ماذا تظننى يا «بات» ؟ لقد بعت أسهمى منذ يومين . يجب أن تعلم جيدًا ، وأن تعلموا جميعاً أننى لست مغفلاً . لقد عرفت منذ البداية أن هذا المشروع فاشل ، ولكننى قَدَّرْتُ أن أسهمه سترتفع حتى يحصل النصابون على أكثر ما يمكن ، ولما باعوا بعت أنا أيضاً .

فأجابه « بات » :

ـ لقد فعلت شيئاً رائعًا بحقٍّ !

وعندما دخل « بات » المتجر أذاع الخبر فبدأ الناس فى التخمينات الجديدة حول ما بلغته ثروة « شارك » ، وخافوا أن يكونوا خصومًا له فى أى صفقة .

وفى هذه الأثناء استدان « شارك » أربعمائة دولار من « مصرف مونتيرى» ، واشترى جرارًا مُستعمَلاً من نوع « ورد سون » وذاعـت شُهرة « شارك » شيئاً فشيئاً ، وحِكْمته ، وحُسْنُ تقديرِه ، وبُعْد نَظَرِه ، حتى أنه لم يعد فى « مراعى الفردوس » مَنْ لا يستشير « شارك » إذا فكر فى شراء أسهم أو قطعة أرض ، أو حتى جواد ، فكان يولى مشكلات المعجبين عناية يبذل فيها نصحاً مثيرًا للتعجب ، وخلال سنوات أصبح سجل حسابات « شارك » المالية يشير إلى أنه جمع مائةً وخمسة وعشرين ألف دولار من استشارات تدل على المهارة والذكاء .

وكلما لاحَظَ جيرانُه أنه يعيشُ عيشة الفقراء ازدادوا له تقديرًا واحتراماً ، لأنه لم ينبهر بالثروة ، ولأنه لم يكن غبيًّا ، فقد ظلت زوجته وابنته الجميلة تعتنيان بالخضروات ، وتجهيزاتها للبيع فى « مونتيرى » ، كما ظل « شارك » يرعى حديقته بما تتطلبه هذه الرعاية من مختلف الخدمات .

لم يمر « شارك » فى حياته بحالة غرام كالتى نقرأ عنها فى الروايات ، ففى سن التاسعة عَشْـرَةَ اصطحب « كاترين مولوك » ثلاث مرات إلى حفلات راقصة كان متاحاً له التواجدُ فيها . . وأدت هذه المرات الثلاث إلى توقع أهلها وجيرانه كلهم أن يتزوجها ، فتزوجها كما توقعوا . لم تكن «كاترين » جميلة ، لكنها كانت نضرة كالعشب الجديد ، وكانت تتميز

بشموخ وحيوية الفرس الصغيرة ، لكن بعد زواجها فَقَدَتْ نضارتَها وحيويتها، كما تتغير الزهرة عند تلقيها لحبوب اللقاح ، فقد ذبل وجهها ، وزاد عرض أردافها ، ودخلت مرحلة تالية فى حياتها ، هى مرحلة العمل .

أمَّا من ناحية معاملته لها فلم يكن « شارك » قاسياً ولا رفيقاً ، فقد سيطر عليها بنفس الشدة الممتزجة باللِّين . . الشدة التى كان يتعامل بها مع الخيول ، فقد كانت القسوة مثلها مثل التسامح عنده ، والتساهل بالنسبة له كسلوك الحمقى ، فلم يتكلم يوماً مع « كاترين » كما يتكلم مع إنسان . . لم يُحَدِّثْهَا عن آماله أو آرائه أو نواحى فشله ، ولا عن ثروته الورقية الخيالية ، ولا عن محاصيله . . ولو كان قد تكلم معها فى ذلك لسَبَّبَ لها حيرة وهمًّا ، فقد كانت حياتها معقدة تماماً ، ولا تحتاج إلى عبء جديد من مشاكل شخص آخر وآرائه .

كان منزل « آل ويكس » الأسمر السيىء الوحيد القبيح فى هذه المزرعة ، فمخلفات الطبيعة وقذاراتها تختفى فى الأرض مع الأيام ، أما مخلفات البشر فهى تدوم أكثر ، كانت مساحة المزرعة مملوءة بالأوراق والزكائب القديمة، وقطع الزجاج ، ومجموعات من الأسلاك المتشابكة التى كانت تُستخدم لرفع جرار الماء ، وكان المكان الوحيد الذى لم ينبت العشب فيه او أزهار هو أكوام الأقذار المكدسة حول المنزل ، وكان تفريغ الصابون ومياه الحمَّامات أصاب بالعقم هذه الأقذار وجعلها غير صالحة للإنبات ، كان «شارك » يروى حديقته ، ولكنه كان لا يرى الإسراف فى إهدار المياه الصالحة فى تنظيف ما حول المنزل .

توافدت نساء « مراعى الفردوس » جماعات إلى منزل « شارك » لإبداء

إعجابهن بالطفلة الجميلة . وكان ذلك يوم مولد ابنته « أليس » ، ولما وجدنها جميلة فعلاً لم يعرفن ماذا يَقُلْنَ ، فقد فقدت تعبيرات السرور والإعجاب النسائى معناها . وكان الهدفُ منها أساساً طَمْـأَنَةَ الأمهات الشابات إلى أن المخلوقات الصغيرة المتحركة فى أحضانهن مخلوقات جميلة ، وعندما تكبر لن تكون شيئاً مخيفاً .

ولما رأت « كاترين » ابنتها جميلة إلى هذا الحد امتلأت نفسها إعجاباً ورهبة ، ونظرت إليها بعينين ليس فيهما الحماس الزائف الذى يكون فى أعين الأمهات حينما لايجىء المولود متفقاً مع أحلامهن . خافت « كاترين » على ابنتها من جمالها وما يمكن أن يسببه لها ، وكانت « كاترين » تردد بينها وبين نفسها أن الأطفال الذين يحظون بالجمال ينقلب هذا الجمال قُبْحاً عندما يكبرون ، فكانت بهذه الفكرة حاول أن تخفف عن توقعاتها بما يمكن أن يسببه لا بنتها هذا الجمال .

وفى اليوم الأول لتوافد المهنئات سمع « شارك» واحدة تقول : « ولكنها جميلة حقيقة . . مارأيك فى هذا الجمال ؟ » .

عاد « شارك» إلى حجرة نومه ونظر إلى ابنته الصغيرة جدًّا ، وخرج إلى الحديقة واستغرق فى تفكير عميق حول هذه المولودة الجميلة فعلاً ، ولا يمكن تصور أنها قد ورثت عنه أو عن « كاترين » أو أحد الأقارب هذا الجمال ، فهم جميعاً لا يصلون إلى هذا المستوى من الجمال ، بل هم جميعاً من البسطاء العاديين .

من الواضح أن هبة غالية قد مُنِحَتْ له ، وبما أن كل ثمين يكون قِبْلَةً للطامعين فلابد « لأليس » من الحماية .

آمن « شارك » بالله الموجود القادر على كل شيء ، والذى يسمو على إدراكنا وعقولنا . . كبرت « أليس » وازدادت جمالاً ، كانت بشرتها متألقة وضيئة ، وكان شعرها الأسود مجعدًا ، وإذا نظر الواحد إلى هاتين العينين الرزينتين فلابد أن يسأل : ماهذا الشيء الذى أعرفه ويبدو لى أننى أتذكره جيدًا ، الشيء الذى قضيتُ عمرى فى البحث عنه ؟

وعندما تستدير « أليس » يعود إلى صوابه فيقول : « لماذا كل هذا ؟ فإنها ليست أكثر من بنت صغيرة جميلة » .

لاحَظَ « شارك » كل ذلك على عدد كبير من الناس ، ورأى رجالاً يحمرون خجلاً عند النظر إليها ، ورأى الفتيان الصغار يتقاتلون كالنمور عندما تحضر جلستهم ، وتخيل أنه يرى الرغبة فى وجه كل منهم .

وأثناء عمله فى الحديقة كم تألم من تصور ابنته وقد خطفها العمر ، ولذلك كان لا يمل من تحذيرها طوال النهار . . مرة من قوائم الخيل ، ومرة أخرى من الأسوار العالية ، وغير ذلك من الأخطار ، كعبور الطريق دون انتباه للسيارات المارة ، كان يتصور كل جارٍ وكل بائع متجول يريد إيذاءها ، وأسوأ من ذلك أنه كان يرى كل غريب كما لو كان شريرًا يمكن أن يخطف ابنته . . وكان لا يجعلها تفارق بصره ، وخاصة عندما علم بوجود متسولين فى « مراعى الفردوس » .

وكان المتنزهون يندهشون من شراسته عندما يطردهم من أرضه .

أما « كاترين» فكلما ازداد جمال « أليس » ازدادت خوفًا وشكًّا . . كانت تعتقد كأن القَدَر ينتظر الفرصة ليضرب ضربته ، أو كأنه يستجمع قواه لضربة أكبر وأشد . . ولذلك لازَمَتْ ابنتها ، واستعبدتْ نفسَها لها ، لا

تتركها تؤدى إلاَّ أعمالاً قليلة ، فكانت كمن يتعامل مع شخص على وشك الموت .

وعلى الرغم من حب « آل ويكس » الجارف لا بنتهم الصغيرة ، وحرصهم على سلامتها وعلى جمالها ، فقد ازدادت مخاوف « شارك » لِعِلْمِ الأَبَوَيْنِ أن ابنتهما الحبيبة غبية لدرجة لاتُصَدَّق ، وأنها بليدة ، متأخرة فكريًّا ، وأنها لا تستطيع حماية نفسها ، أنها يمكن أن تكون فريسة سهلة لكل مَنْ يُضمر لها شرًّا . . أما « كاترين » فقد كانت غباوة « أليس » من دواعى سرورها ، فكانت تساعدها فى أشياء كثيرة ، وبتلك المساعدة كانت «كاترين » تنسى إلى حَدٍّ مَّا الفارق الكبير بينهما . . ولذلك فقد سعدت بكل نواحى الضعف فى ابنتها ، لأن ذلك يجعلها بأنها أقرب لها من ذى قبل .

وعندما بلغت « أليس » الرابعة عشرة أُضيف هَمٌّ جديدُ إلى الهموم التى كان يحملها والدها ، فإذا كان « شارك » يخاف قبل ذلك أن يخسرها أو يصيبها مكروه فهو اليوم قد أصبح مرعوبًا من التفكير فى أنها قد نفقد عفافها . . وتدريجيًّا سيطر عليه هذا الخوف أكثر من ذى قبل ، أصبح يرى فى فَقْد عُذرية ابنته خسارة وعاراً فى الوقت نفسه . . وأصبح الانزعاج والشك يُلاحقانه لوجود أىِّ رجل أو فَتًى قرب المزرعة ، وأصبح هذا الموضوع كابوساً يؤرقه ، وكان دائم التحذير لزوجته حتى لا تسمح « لأليس » أن تغيب عن نظرها ، وكان يقول لها ـ والشك والخوف يملآن قلبه و عينيه :

ـ لا يمكن أن تتصورى ما يمكن أن يحدث !

وزاد من هُمومه ومخاوفه هذا التصور فى عقلية ابنته ، وكان يعتقد أن أى إنسان يمكن أن يدمرها ، وأ ن أى شخص ينفرد بها لفترة سيتصرف تصرفاً

شائنًا ، و لن تستطيع هى حماية نفسها لما هى عليه من غباء ، فكان «شارك» كالرجل الذى يسهر على كلبته الأصيلة ويحرسها خوفاً عليها فى موسم « التكاثر » .

وبعد فترة لم يعد « شارك » يكتفى بالاطمئنان على طهارتها إلاَّ عندما يتأكد من ذلك ، ففى كل شهر يزعج زوجته ، فقد كان يعلم التوقيت أكثر منها ، فيسألها بضراوة :

ـ هل هى على مايرام ؟

وتجيبه « كاترين » بازدراء :

ـ لا . . ليس بعد .

بعد ساعات يعود ليسأل :

ـ هل هى بخير ؟

وكان يظل على هذه الحال حتى تجيبه « كاترين » :

ـ طبعًا . . هى بخير . . ماذا تظن ؟

كانت هذه الإجابة تُطمئنه لمدة شهر ، ومع ذلك كان لا يخفف من مراقبتها وحراستها طوال الشهر ، فطالما ظلت العفة سليمة فيجب عليه مداومة السهر عليها .

وكان « شارك » يعرف أنه لابد أن يأتى « لأليس » من يطلبها للزواج ، ولكنه كـان يستبعد هذه الفكرة ويحاول تجاهلها ، فقد كان يعتبر زواجها لا يقل خطرًا عن إغوائها . كان يعتبرها شيئاً غالياً ثميناً يجب الحفاظ

عليه . . فإن فقدت بكارتها فلن تبقى هذا الشيء الغالى الذى آدخره بهذا الحرص .

لم يكن يحبها كما يحب الأب ابنته ، بل كان ينظر إليها بنهم المتطلع لتملك شيء نادر جميل . . وشيئاً فشيئاً أصبحت مسألة عُذريتها رمزًا إلى صحتها ونقائها ووقايتها .

ولما بلغت « أليس » السادسة عشرة ذهب « شارك » لزوجته وعلى وجهه مظاهر الانزعاج قائلاً :

ـ إننا لن نستطيع التأكد ومعرفة هل هى بخير أم لا إلاَّ إذا استشرنا طبيباً .

حملقت فيه « كاترين » لفترة مُحَاوِلةً أن تفهم معنى كلماته . . ولأول مرة تفقد أعصابها وتصرخ :

ـ أنت حيوان مملوء بالشكوك القذرة . . اخرج من هنا . . وإنْ عُدْتَ إلى هذا الكلام مرة أخرى فسأهجر بيتك .

تعجب « شارك » قليلاً لثورتها ، ولكنه لم يخف منها ، نسى فكرة الفحص الطبى مكتفياً بسؤاله الشهرى التقليدى .

كانت ثروة « شارك » الخيالية تتضخم فى هذه الأثناء . . وفى كل يوم بعد أن تأوى « كاترين » و «أليس » إلى فراشها ـ كان يفتح الدفتر السميك تحت المصباح المعلق ، فتضيق عيناه الشاحبتان ، وترتسم على وجهه الغليظ نظرة خُبث ودهاء وهو يخطط لمشاريعه الاستثمارية ويحسب أرباحه .

وتتحرك شفتاه قليلاً ، فهو الآن يطلب الأسهم بالتليفون ، وترتسم على

وجهه نظرة أسَفٍ باهتة وهو يوقع حجزاً على مزرعة خصبة ويهمس : «أكره ذلك ، ولكن يجب أن تعلموا يا إخوان أن العمل هو العمل » . ويغمس ريشته فى دواته ويسجل هذا الحجز فى سجله وهو يردد : الخَسُّ ، كلهم ينتجون الخس ، إنهم سيغمرون السوق به . . من الأصوب أن أزرع أنا البطاطس فأكسب بعض المال . . إنها أرض مناسبة » . سجل أنه زرع تلاثمائة فدان البطاطس .

وتاهت عيناه وسط السطور . . ثلاثون ألف دولار مودعة فى المصرف ولاتنال إلا الفائدة المصرفية فقط . . إن ذلك لمُخْجِل . . إنه مال مُجَمد عمليًّا . . وارتسم على عينيه بعض العبوس الذى يصاحب الاستغراق والتفكير . . وتساءل فى نفسه عن شركة تدعى « سان جوزيه للبناء والتسليف » ، فهى فائدة ٦٪ لكن الاستعجال ليس من الحكمة فى التعامل معها قبل التحرى عنها .

وبينما كان يطوى السجل قرر أن يستشير « جون وايتسايد » فى الأمر فتلك الشركات تفلس أحياناً و يختفى موظفوها .

قبل مجىء عائلة « مونرو » إلى الوادى ، كان « شارك » يشك فى نوايا كل الرجال والفتيان تجاه « أليس » ، غير أنه بمجرد أن وقع بصره على « جيمى مونرو » تركزت كل شكوكه ومخاوفه حول هذا الشاب الغشاش المخداع .

كان الفتى جميلا ونحيفَ الوجه ، تلمع عيناه بهذا الغرور المعهود فى طُلاَّب المدارس الثانوية . . وكان يُشاع عنه أنه يشرب « الجين » ويرتدى زِيَّ أهل المدن وليس زِيَّ العمل المعروف فى القرية . . وكان شعره يلمع من الزيوت . كان « جيمى » جريئًا فى عاداته وحركاته إلى درجة جعلت فيتات « مراعى الفردوس » يَضْحَكْنَ ويتدلَّلْنَ إعجاباً وخَجَلاً . . وكان يُراقب

الفتات بعينيه الهادئتين السَّاخِرَتَيْن ، ويبدو عليه الاستهتار والانغماس فيه ، والفتيات ينجذبن إلى الشاب الذى له ماضٍ ، و « جيمى » له ماضٍ ، فقد شرب الخمر عدة مرات فى الملهى الواقع على جانب النهر ، كما أنه قد قَبَّلَ حوالى مائة فتاة على الأقل . . وقام بمغامرات آثِمَة فى عدة مناسبات على ضفاف النهر فى مدينة «ساينلس » .

أجهد « جيمى نفسه حتى لا تبدو عليه هذه الحياة الماضية ، ولم يكتفِ بذلك ، فأطلق عدة إشاعات صغيرة انتشرت فى « مراعى الفردوس » بسرعة البرق ، ووصلت إلى « شارك » فزادت فى نفسه مشاعر الكرَاهية تجاه «جيمى » ، وخوفاً من تصرفاته وخبرته النسائية تساءل فى نفسه :

ـ هل يمكن أن تجد « أليس » الجميلة الغبية مأمناً من شخص مثل «جيمى مونرو ؟ » . فتعمَّد التحدُّث عنه بكراهية شديدة أثارت اهتماماً فى ذهن الفتاة البليدة :

ـ إيَّاكِ أن أضبطكِ مع من يُسمى « جيمى مونرو ! » .

ـ ومن هو « جيمى مونرو » ياأبى ؟

ـ لا يهم أن تعرفيه وإذا ضبطتُكِ تتحدثين معه أو تنظرين إليه مجرد نظر فسأسلخ جلدك .

كان «شارك » يتعامل مع ابنته كما يتعامل مع إناء ثمين خشى عليه من الخَدْش ولم تضطره أن يعاقبها ، فقد كانت « أليس » دائماًطفلة طيبة مطيعة، والخطأ لا يصدر إلا عن فكر أو طموح ، وكانت بعيدة كل البعد عن ذلك ، ومن كثرة ما حَذَّرَهَا من هذا الفتى تسلل إلى عقلها أنها يجب أن

ترى « جيمى مونرو » ، لدرجة أنها حلمت به ، وإذا عرفنا أن « أليس » نادرًا ما تحلم عرفنا إلى أى حد تنبهت إليه واهتمت به .

رأت فى منامها رجلاً يشبه صورة الرجل الهندى المرسوم على التقويم فى غرفة نومها اسمه «جيمى » ، وقد جاء إليها فى سيارة لامعة ، وقَدَّمَ لها ثمرة ناضجة ، و لما قضمتها سال عصيرها على ذقنها ، فارتبكت ، وعند ذلك أيقظتها أُمُّها ، لأنها كانت تَشْخِر .

وذات يوم تلقى « شارك » بَـرْقية تخبره بوفاة العمة « نِيلِّى » فى الليلة الماضية ، وأن الجنازة يوم السبت . . فتوجه إلى مزرعة « جون وايتسايد » ليعتذر له عن عدم حضوره اجتماع مجلس إدارة المدرسة ، فقد كان «جون» أمين سر هذا المجلس .

وقبل أن يغادر المكان تردد « شارك » للحظة قبل أن يقول :

ـ كنت أريد أن أسألك عن شركة « سان جوزيه » للبناء والتسليف .

ابتسم «جون وايتسايد » وأجاب :

ـ لا أعلم الكثير عن هذه الشركة بالتحديد .

ـ فى الحقيقة الذى فى البنك ثلاثون ألف دولارٍ تُدِرُّ ربحاً ٣ ٪ فقط ففكرت أن أحصل على ربح أكثر إذا تحريت الأمر .

ضم « جون وايتسايد » شفتيه ونفخ قليلاً وقال :

ـ من المُسَلم به أن التسليف والبناء هما مجالك الأفضل ، غير أن هذا ليس أسلوبى ، فأنا لا أحب المضاربات إذا لم أستطع أن أحقق ربحاً مؤكدًا ، فالمضاربون كثيرون .

فأجابه « جون » :

ـ معقول ياسَيِّد « ويكس » ، فشركات البناء والتسليف قليلاً ما تخسر ، وهى تدفع فائدة سخية .

ورد « شارك » كمن اتخذ قراره :

ـ سأبحث الأمر ، أمَّا الآن فأنا ذاهب لحضور مأتم العمة « نيلِّى » ، سأتوقف بِضْعَ ساعات فى « سان جوزيه » وأبحث أمر هذه الشركة فى المتجر العام . . و دارت تكهنات وتقديرات جديدة لثروة « شارك » ، إذ أنه كان قد استشار عددًا من الرجال ، فاستنتج « ت . ب . آلن » قائلا :

ـ هناك شىءٌ واحد مؤكد ، هو أن « شارك ويكس » ليس غبيًّا ، إنه يستشير عدة رجالٍ ليستفيد بآرائهم وخبراتهم ، ولا يُسَلِّمَ برأْيٍ مَّا حتى يتفحصه بنفسه . وردَّدَ الجميع .

ـ إنه ليس لعبة فى يدأحد .

ذهب « شارك» إلى « أولكراند » صباح السبت تاركاً زجته وابنته لأول مرة فى حياته .

وفى المساء جاء « توم بريهان » يدعو « كاترين » و « أليس » إلى حَفْلٍ راقصٍ يُقَام فى المدرسة ، فقالت « كاترين » بلهجة مذعورة مرتجفة :

ـ لا أعتقد أن السيد « ويكس » سيرضيه ذلك .

ـ ولكنه لم يَقُلْ لكما لا تذهبا . . هل قال ذلك ؟

ـ لا . . لكنه لم يتغيب عن البيت قبل اليوم . . ولا أعتقد أنه كان سيقبل .

ـ أعتقد أن ذلك لم يخطر على باله . . هيا ارتَدِيَا ثيابكُمَا .

وقالت « أليس » :

ـ دعينا نذهب يا أمى .

كانت « كاترين » تعلم أن ابنتها ستتخذ هذا القرار بسهولة ، لأنها أغْـبَى من أن تخاف ، وما كان يمكنها تصور النتائج التى يمكن أن تحدث ، ولا أسابيع المناقشات التى ستحتدم عندما يعود « شارك » ، بل كان يمكن « كاترين » أن تسمع صوته يقول : « ظننت أنكما ستهتمان بالمكان فى غيابى ، فكان أول عملٍ قُمتما به هو أنكما سارعتما إلى حفلٍ راقصٍ . . وبعد ذلك يأتى دور الأسئلة المعهودة : « مَعَ مَنْ رقصتْ «أليس» ؟وماذا قال لها ؟ ولماذا لم تسمعى ماقاله ؟ كان يجب أن تسمعى » .

لن يغضب « شارك » لكنه سيظل يتحدث فى هذا الموضوع لأسابيع وأسابيع ، إلى أن يجعلها تكره فكرة الرقص بشكل عام .

وعندما يأتى الموعد الشهرى فستطن أسئلته كالباعوض إلى أن يتأكد أن «أليس » لن تضع طفلاً .

وهكذا اقتنعت « كاترين » أن متعة الذهاب للحفل لا يمكن أن تساوى استماعها إلى ما سيتبع ذلك من تأنيبٍ ونقيق .

وتضرعت « أليس » إليها :

ـ دعينا نذهب يا أماه . . إننا لم نذهب فى حياتنا كلها إلى أى مكان وحدنا . واجتاحت « كاترين » موجة من الشفقة ، فالفتاة المسكينة لم يكن لها شىء خاص فى حياتها ، ولم تتحدث حديثاً عابرًا مع أىِّ فتى ،

لأن والدها لم يكن يسمح لها أن تذهب إلى أبعد من مدى سَمْعِه ، فاتخذت قرارها وقالت لاهثة :

ـ حسناً إذا كان السيد «بريهان » يستطيع انتظارنا حتى نستعد فسنذهب . لقد شعرت بشجاعة هائلة بداخلها ، إذ إن ذلك سيشعل غضب « شارك » .

فى الريف يعتبر الجمال الرائع نقمة مثله مثل القبح والدمامة . . كان فتيان القرية ينظرن إلى « أليس » فتتضرج وجوههم وترتعش أيديهم ، وكانوا يختلسون إليها النظر ، فإذا التفتت إليهم تظاهروا بعدم الشعور بوجودها ، وكانا لا يقدرون على طلبها للرقص أو تبادل الكلام معها . . أمّا « أليس » التى تتسبب فى ذلك فلم تكن تدرك أنها جميلة إلى هذه الدرجة ، وكان «جيمى مونرو » مستندًا إلى أحد الجدران فى سَأَم واضح عندما دخلت كل من « كاترين» و « أليس » من باب المدرسة . . كان « جيمى » يرتدى ثياباً جميلة ، وحذاءً لا معاً ، وربطة عنق سوداء فوق قميص أبيض من الحرير ، كما كان شعره لامعاً . . وكواحد من شباب المدينة اندفع كالصقر، وقبل أن تخلع « أليس » معطفها كان يقف بجانبها قائلاً بصوته الرنان :

ـ هل ترقصين ياصغيرة ؟

فأجابت « أليس »

ـ ماذا ؟

ـ مارأيك فى الرقص معى ؟

ـ تعنى أنا أرقص ؟

نظرت « أليس » إليه بعينيها الغامضتين المملوءتين بالتفاؤل ، وأصبح

السؤال السخيف مبهجاً باسماً ، فقد كان يُلَمِّحُ ضمنًا إلى أشياء أخرى تثير حتى « جيمى المستهتر» ، وتصور أنها تعنى الرقص . . الرقص فقط ؟ على الرغم من خبرة « جيمى » منذ حياته ودراسته الثانوية فقد ارتعشت يداه ، واندفع الدم إلى وجهه ، واستدارت « أليس » لوالدتها التى كانت تتحدث مع السيدة « بريهان » كعادة ربات المنازل وقالت :

ـ أُمِّى ، هلِ لى أن أرقص ؟

ابتسمت « كاترين » وأجابتها :

ـ اسعدِ ى بوقتك .

وجد « جيمى » رقصها سيئاً . . فلما توقفت الموسيقى قال لها : إن المكان حار جدًّا واقترح عليها الخروج قليلاً . . ثم قادها من يدها خارج القاعة إلى مابين شجيرات الصفصاف فى ساحة المدرسة .

غير أن سيدة من الحاضرات كانت تقف عند مدخل المدرسة فرأتهما وأخبرت « كاترين » التى أصابها الذعر ، وأسرعت تنادى ابنتها بعنف وتأمرها بالعودة .

وعندما رأت الاثنين التفتت « كاترين » وقالت لجيمى :

ـ إبْتَعِدْ عنها . . هل تسمعنى ؟ ابتعد عن هذه الفتاة وإلاَّ تسببتَ لنفسك فى المتاعب .

شعر « جيمى » بإهانة رجولته ، وكأنه طفل أرسل مطرودًا إلى منزله .

دفعت «كاترين » ابنتها إلى فناء المدرسة متسائلة فى رعب :

ـ ألم يأمرك والدك بالابتعاد عن « جيمى مونرو » ؟ أليس كذلك ؟

قالت « أليس » :

ـ هل كان هو « جيمى مونر » ؟

ـ نعم هَوَ ماذا كنتما تفعلان بالخارج ؟

فأجابتها « أليس » بصوت مرتجف :

ـ كنا نتبادل القُبَل .

ـ امتلأت « كاترين» رعباً وقالت :

ـ يا إلٰهى ماذا أفعل ؟ !

ـ وهل كان هذا شرًّا يا أمى ؟

ـ لا . . ليس شرٌّ لكن احذرى أن يعلم أباك بذلك ، لا تخبريه حتى لو سألك ، إنه سَيُجَنُّ . . اجلس إلى جانبى الآن وطوال السهرة إيَّاكِ أن تحاولى رؤية « جيمى مونرو » مرة أخرى . . أرجو ألاَّ يعلم والدك بما حدث .

وفى يوم الاثنين نزل « شارك ويكس » من قطار الليل فى « سالبناس » ، وركب الأتوبيس الذى يمتد خَطُّ سَيْرِهِ من المرتفعات إلى « مراعى الفردوس » وبعد ذلك حَمَل حقيبته وبدأ يكمل الرحلة سيرًا على الأقدام ، قاطعاً مسافة أربعة أميال إلى بيته . . كان الليل صافياً ، والسماء منيرة بالنجوم ، وكانت التلال بأصواتها الغامضة كأنَّها تُرحب به ، فتبعث فى نفسه سلسلة من التصورات جعلته ينسى خطواته .

لقد استمتع باشتراكه فى هذا المأتم . . فالزهور جميلة وكثيرة ، وقد بعث فى نفسه بُكاء النساء وسير الرجال على أطراف الأصابع شيئاً عن الحُزن

النبيـل الـذى لم يكـن مزعجاً . . حتى التراتيـل الكنائسية ، تـلك التـى لا يفهمها ولا يصغى إليها أحد كانت بمثابة دواء صَبَّ فى جسده وفِكْرِه حلاوةً خفيفة ممتعة . . لقد أمضى ساعة فى الكَنيسة وعاد منها بالسلام المنعش الكامن فى الأزهار وأريجها ، وفى البخور المتموج ، لقد أثار المأتم وبساطته البالغة كل هذه الأحاسيس فى نفسه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف العمة « نيلِّى » جيدًا فإنه سَعِدَ بمأتمها ، ولما سمع أقرباؤه عن ثرائه تعاملوا معه بحفاوة واحترام .

كانت هذه المشاعر قد يسَّرت طريق عودته لمنزله ، أسرعت بالزمن حتى وصل إلى باب المتجر العمومى فى القرية ، فدخل ، لعلمه بأنه سيجد من يخبره عَمَّا حدث فى غيابه عن الوادى .

لم يكن بالمخزن غير صاحبه « ت . ب . آلن » الذى كان يعلم كل ما حدث . .

وقد اشتهر « آلن » بتهويله ومبالغته فى كل خبر . . فأتفه شائعة تصبح مثيرة عندما يرويها .

دخل « شارك » ، بمجرد أن رآه « آلن » حتى اعتدل فى جلسته ولمعت عيناه وقال بصوت واثق :

ـ سمعتُ أنكَ كُنْتَ غائباً .

ـ كنت فى « أوكلاند » لحضور مأتم ، وفكرت أن أؤدى بعض الأعمال فى الوقت نفسه . وتمهل « آلن » قبل أن يسأل :

ـ وهل قُمْتَ بشىء ؟

ـ ليس عملاً بالمعنى المفهوم . . فقد كنت أتحرى أَمْـرَ إحدى الشركات .

ـ هل استثمرت فيها بعض المال ؟

فأجابه « شارك » :

ـ قليلاً .

وسأل « شارك» :

ـ هل حدث شيء أثناء غيابى ؟

وفجأة تغيرت نظرات « آلن » العجوز كمن يحمل سِرًّا لا يريد الإفضاء به وبَدَتْ على أساريره عدم الرغبة فى الحديث فيما حدث تلافياً للفضيحة . . ولكنه قال أخيرًا :

ـ حفل المدرسة الراقص !

ـ نعم . . قد علمت بأمره .

دار صراع فى داخل « آلن » هل يُخبر « شارك » بمعلوماته من أجل مصلحته أم يحتفظ بمعلوماته لنفسه ؟ !

راقب « شارك » باهتمام هذا الصراع الذى رآه مرات كثيرة سابقة سأله بإلحاح :

ـ حسناً . . ما الموضوع ؟

ـ سمعتُ أن زواجاً قد يحدث قريباً ؟

ـ زواج مَنْ ؟

ـ إنه قريب من بيتك . . كما أعتقد .

سأل « شارك » :

ـ من ؟

حاول « آلن » التهرب لكن دون جدوى ، فاستسلم وقال :

ـ أنت .

رَدَّ « شارك » باستنكار :

ـ أنا !

فأجاب « آلن » :

ـ « آليس » .

فتصلبَ « شارك » وأسرع إليه منحنياً ومهددًا :

ـ ماذا تعنى ؟ قل لى ماذا تعنى أيها الـ ... ؟

وأدرك « آلن » أنه تجاوز الحدود ، فتراجع إلى الوراء ثم قال :

ـ احذر يا سيد « ويكس » من إيذائى .

ـ أخبرنى بما تعرف عن كل شىء .

هز « شارك » « آلن » من كتفيه بعنف ، قال « آلن » .

ـ لقد حدث ذلك فى الحفل .

ـ هل كانت « أليس » فى الحفل ؟

ـ نعم .

ـ ليس عملاً بالمعنى المفهوم . . فقد كنت أتحرى أمْـرَ إحدى الشركات .

ـ هل استثمرت فيها بعض المال ؟

فأجابه « شارك » :

ـ قليلاً .

وسأل « شارك» :

ـ هل حدث شيء أثناء غيابى ؟

وفجأة تغيرت نظرات « آلن » العجوز كمن يحمل سِرًّا لا يريد الإفضاء به وبَدَتْ على أساريره عدم الرغبة فى الحديث فيها حدث تلافياً للفضيحة . . ولكنه قال أخيرًا :

ـ حفل المدرسة الراقص !

ـ نعم . . قد علمت بأمره .

دار صراع فى داخل « آلن » هل يُخبر « شارك » بمعلوماته من أجل مصلحته أم يحتفظ بمعلوماته لنفسه ؟ !

راقب « شارك » باهتمام هذا الصراع الذى رآه مرات كثيرة سابقة سأله بإلحاح :

ـ حسناً . . ما الموضوع ؟

ـ سمعتُ أن زواجاً قد يحدث قريباً ؟

ـ زواج مَنْ ؟

ـ إنه قريب من بيتك . . كما أعتقد .

سأل « شارك :

ـ من ؟

حاول « آلن » التهرب لكن دون جدوى ، فاستسلم وقال :

ـ أنت .

رَدَّ « شارك » باستنكار :

ـ أنا !

فأجاب « آلن » :

ـ « آليس » .

فتصلبَ « شارك » وأسرع إليه منحنياً ومهددًا :

ـ ماذا تعنى ؟ قل لى ماذا تعنى أيها الـ ... ؟

وأدرك « آلن » أنه تجاوز الحدود ، فتراجع إلى الوراء ثم قال :

ـ احذر يا سيد « ويكس » من إيذائى .

ـ أخبرنى بما تعرف عن كل شىء .

هز « شارك » « آلن » من كتفيه بعنف ، قال « آلن » .

ـ لقد حدث ذلك فى الحفل .

ـ هل كانت « أليس » فى الحفل ؟

ـ نعم .

ـ وماذا كانت تفعل فى الحفل ؟

لا أعرف . . لا شيء .

جذبه « شارك » من على مقعده وأوقفه بشدة على قدميه المرتعشتين وصرخ :

ـ أخبرنى .

فهمس « آلن » :

ـ لقد تنزهت مع « جيمى مونرو » .

أمسك شارك كتفيه وهز البقال المذعور قائلاً

ـ احْكِ لى ماذا فَعَلا ؟

ـ لا أدرى ياسيد « ويكس » .

ـ صرخ « شارك » :

ـ أخبرنى .

ـ قالت الآنسة « بيرك » إنهما كانا يتبادلان القُبلات .

ترك « شارك » « آلن » وجلس مذهولاً محدقاً فى « آلن » بنظرات فارغة ، غير أن عقله كان فى صراع مع مشكلة « دنس » ابنته . . إذ لم يتصور أن الأمر قد توقف عند القبلات ، وأخذت عيناه تحملقان فيما حوله بنظرات يائسة ، فجأة وقعت عيناه على مكان البنادق المعروضة فى واجهة المتجر . فصرخ « آلن »

ـ حـذَارِ أن تفعل شيئاً يا « شارك » ، فالبنادق ليست ملكك .

لم يكن « شارك » قد رأى السلاح ، غير أن هذه الكلمة قد وجهت انتباهه إليه ، فقفز بسرعة وفتح باب الواجهة الزجاجى وأخرج بندقية ثقيلة . . نزع عنها بطاقة السعر ، ودس فى جيبه صندوقاً من الطلقات ، واندفع خارجاً ليذوب فى الظلام دون كلمة أو نظرة إلى صاحب المتجر الذى تناول التليفون قبل أن ينتهى من سماع وَقْع خطوات « شارك » ، وبينما كان « شارك » متوجهًا إلى منزل عائلة « مونرو » كانت أفكاره تتدافع فى ألم ويأس ، وبعد أن قطع هذه المسافة أصبح متأكدًا أنه لم يَرِدْ على خاطره فكرة قتل « جيمى مونرو » ، وإنما أوحى إليه البقال بهذه الفكرة ، ولقد قام بها دون تريث ، فماذا يفعل الآن ؟ . . وتخيل ما الذى يمكن أن يحدث لو دخل إلى منزل عائلة « مونرو » . . ربما اضطرته الظروف إلى إطلاق الرصاص على « جيمى مونرو » وارتكاب جريمة لحفظ كرامته فى « مراعى الفردوس » .

سمع صوت سيارة قادمة فقفز نحو الغابة حتى مرت بهديرها بجواره ، ولاَحَظَ أنه سيصل إلى منزل عائلة « مونرو » بسرعة ، وأنه لم يكره «جيمى» ولم يشعر ناحيته إلا هذا الشعور عندما سمع بفقد ابنته لعذريتها ، وهو الآن لا يتصورها إلا « ميتة » . أصبح الآن يرى أضواء بيت عائلة «مونرو » . . ولكنه أدرك أنه لا يستطيع قتل «جيمى » حتى ولو أصبح موضع سخرية . . لن يقتل الفتى « مونرو » فهو ليس من هواة الجريمة . . وقرر أن يصل للبوابة ثم يعود إلى بيته . . وفجأة قفز رجل فى وجهه وصرخ فيه :

ـ ارم البندقية يا « ويكس » وارفع يدك .

رَمَى « شارك » البندقية على الأرض بإذْعَانٍ . . لقد عَرَفَ صوت

ضابط الأمن فى المقاطعة وقد قابله عدة مرات، وكثيرًا ما كان يُرَحّبَ به قائلا:

ـ هالو « جاك » .

ورأى جموعاً من الناس حوله ، وخلفهم رأى وجه «جيمى» مرعوبًا . . ورأى أيضًا «بيرت مونرو» والخوف ظاهر عليه ، فلما رأى «شارك» صاح به :

ـ لماذا أردت قتل « جيمى » . . إنه لم يُؤْذِكَ ، أخبرنى « آلن » تليفونيًّا عن نيتك ، ويجب أن أمنعك من إيذاء أحد .

أجابه رجل الأمن .

ـ لن تستطيع أن تسجنه فهو لم يفعل شيئًا ، كل مايمكنك عمله هو أن يدفع كفالة مالية ويتعهّد بعدم الإخلال بالأمن .

ورد « بيرت » بصوت مرتجف :

ـ هل هذا رأيك ؟ سأقوم بما أشرت به .

ـ من الأفضل أن تطلب كفالة كبيرة ، فشارك رجل ثرى ، هيا نصحبه إلى « سالبناس » الآن وهناك تتقدم بدعواك .

فى الصباح دخل « شارك ويكس » بيته وارتمى على فراشه ، كانت عيناه مُـجْهَدَتَيْنِ مفتوحَين ، وارتمت ذراعاه إلى جانبه كجثة هامدة ، وظل هكذا لساعات طويلة . سُـرَّت الزوجة عندما رأته قادماً إلى المنزل وكانت فى الحديقة . وقد رأت الزوجة كتفيه المنحنيتين ورأسه المحمول عليها بتعب وإجهاد .

وسارت على أطراف أصابعها عندما ذهبت لإعداد الغذاء ، وطلبت من « أليس » التزام الهدوء

وفى الثالثة أطلت الزوجة على باب غرفة النوم وقالت :

ـ « أليس » بخير . . كان يجب أن تسألنى قبل أن تفعل كل ذلك .

وبقى « شارك » لا ينطق ولا يتحرك .

ـ ألا تصدقنى ؟

وراعها جموده فقالت :

ـ إنْ كُنْتَ لا تصدقنى فسنعرضها على الطبيب وسأستدعيه الآن إذا أَرَدْتَ .

أجاب « شارك » وهو جامد كأنه جثة تتكلم :

ـ إننى أصدقك .

كانت « كاترين » تقف عند مدخل الغرفة . . كانت غريزتها تقودها ، ففعلت مالم تفعله فى حياتها ، فقد أشرقت أفكارها وجلست على طرف الفراش وجذبت رأس « شارك » إليها ومسحت بيدها على جبهته . . كان يبدو على جسده الإنهاك واليأس . . وظل بصره متعلقاً بالسقف ، غير أنه بدأ يتكلم كلاماً متقطعًا :

ـ لقد عرفوا جميعًا أننى لا أملك مالاً ، وأننى لم أملك ثروة فى يوم من الأيام ، فقد أخذونى وطلبوا منى تعهدًا بعشرة آلاف دولار ، وكان يجب أن أخبر القاضى . . هل تفهمين ما أعنى ؟ لقد سمعوا جميعاً . .

لم يكن هذا السجل أكثر من كذبة . . كل مافيه كان وهماً . . أنا الذى صنعته ، والآن لم يبق أحد لا يعرف ذلك .

4

4

كانت قصة اكتشاف أصل « تولاريشيتو » الذى يحيطه الغموض مجرد أسطورة رفض أهالى « مراعى الفردوس » تصديقهـا تمامًا كرفضهـم الاقتنـاع بوجـود أشبـاح . كـان «بانشو » هنديًّا مكسيكيًّا يعمل أجيرًا عند « فرانكلين جميز » ، وكان «بانشو » يدخر ليذهب إلى « مونتيرى » مرة كل ثلاثة أشهر ليعترف بخطاياه ويُكَفِّر عنها ، ثم يذهب بعدها ليحتسى الخمر . . وكثيرًا ما استطاع الفكاك من التعرض للحبس . . كان يخرج من الحانة عندما تغلق أبوابها فيذهب إلى عربته ، وما إنْ يستقر بداخلها حتى ينام ، فينطلق به الجواد عائدًا للمزرعة ، ليصل إليها قبل طلوع الشمس ، فيكون الإفطار مُعَدًّا ، فينال « بانشو » إفطاره ثم يذهب إلى عمله . كان «بانشو » يصل المزرعة دائماً وهو نائم داخل العربة ، لذلك فقد تعجب الجميع بشدة عندما وصل ذات مرة إلى المزرعة مستيقظًا يقود عربته متجهاً إلى الحظيرة بسرعة كبيرة .

ارتدى « جوميز » ملابسه وذهب ليتعرف من « بانشو» على القصة الغريبة التى سمعها ، والتى كان ملخصها : « أن بانشو » كان عائدًا إلى البيت وهو « يَقِظٌ وَاعٍ » كالمعتاد ، وفجأة اقترب من أرض « بليك » ، فسمع صوت طفل يبكى وسط النباتات على جانب الطريق ، أوقف

«بانشو » عربته واتجه للصوت ليتأكد منه ، فوجد طفلاً صغيرًا مُلْقًى فى مكان واضح وسط النباتات ، وكان ـ على مايبدو من شكله ـ طفلاً فى الشهر الثالث من عمره ، فحمله وأشعل عودًا من الثقاب ، وأصابه الرعب عندما وجد الطفل يغمز له بعينيه ويقول بصوت عميق :

ـ انظر ، لَدَىَّ أسنان حادة جدًّا !

ألقى « بانشو » بسرعة مافى يده وقفز إلى العربة وانطلق بها وهو يضرب بالسوط حصانه العجوز ويصرخ صراخاً يشبه نباح الكلب .

جذب « جوميز » لحيته وفكر مليًّا ، فقد كان يعرف « بانشو » جيدًا ، ويعلم أنه بعيد عن الجنون والهيستريا ، حتى وهو ثَمِلٌ ، ووجد أن مجرد صَحْوه يدل على أن شيئاً قد حدث ، فأخذ جواده وانطلق إلى المكان الذى حدده « بانشو » ووجد الطفل وعاد به إلى المزرعة .

لكن الرضيع لم يتكلم قبل ثلاثة أعوام ، وتبين أن فمه كان خالياً من الأسنان ، ومع ذلك لم يقتنع « بانشو » أن الطفل قد خاطَبَهُ بهذه الكلمات المرعبة .

كان الطفلُ غريبَ التكوين ، فكان له ذراعان قصيرتان ، وساقان طويلتان مفككتا المفاصل ، ورأس ضخم يرتكز على أكتاف عريضة مشوهة ، ولم يكن له عنق يفصل بين الرأس والكتفين ، وكان وجهه المسطح المرتبط بجسده الغريب سبباً فى تسميته « تولاريشيتو » ، وهى بمعنى « الضفدع الصغير » . وكان « جوميز » على الرغم من ذلك يناديه : « الذئب » ، لأنه يرى فى وجهه علامات المكر الشديد . . لم يوافق «بانشو» على هذه التسمية ، فاعترض مُذَكِّرًا سيده بشكل الطفل وتكوينه ، وهكذا لصق بالطفل اسم « تولار يشيتو » .

ولم يُعْـرَف مَنْ هو الذى تَرَكَ هذا المخلوق الصغير المُشَوَّه وألقى به ، غير أن « جوميز » قد رباه فى مزرعته وأسند مهمة رعايته لبانشو الذى لم يستطع التخلص من مخاوفه من الطفل ، ولم تتمكن الأيام ولا السنون من محو الأثر الذى تركته العبارة التى نطق بها « تولاريشيتو » فى وجهه أول مرة .

كبر الطفل « تولاريشيتو » بسرعة ، غير أن عقله قد توقف عن النمو عند الخامسة .

وما إنْ بلغ السادسة حتى كان يستطيع أن يؤدى عمل رجل بالغ . كانت أصابعه أقوى وأمهر من معظم الرجال . واستثمروا فى المزرعة أصابع «تولاريشيتو » حتى أنه ما من عقدة صعبة تستعصى عليه . وعلى الرغم من هذه القوة فقد كانت هذه اليد تتعامل بحنو ورقة بالغة مع النباتات ، فلم يُؤْذِ شتلة ، أو يخدش غصناً .

وكذلك ظهرت على « تولاريشيتو » موهبة تثير الإعجاب ، فقد كان ينحت بظفر إبهامه تماثيلَ دقيقة لمختلف الحيوانات على البلاط . ولقد احتفظ « فرانكلين جوميز » فى بيته بكثير من تماثيل الذئاب والأسود والسناجب الصغيرة التى نحتها « تولاريشيتو » ، كما علق فى السقف صورة طولها قدمان لصقرٍ مُحَلِّقٍ نحته هذا المخلوق العجيب .

أمَّا « بانشو » فقد أرجع موهبة الطفل إلى نوع من الملامح الشيطانية والنشأة غير الطبيعية . . ورفض أن يعتبر الطفل إنسانًا بمعنى الكلمة . ومع أن سكان « مراعى الفردوس » لا يعتقدون فى النشأة الشطانية «لتولاريشيتو» فإنهم لم يرتاحوا له ، فقد كانت عيناه عجوزتين ، على وجهه تبدو ملامح سكان الكهوف ، كما أن قوته الجسدية الهائلة المصحوبة بالمواهب الغريبة قد أبعدت عنه الأطفال ، وتسببت فى قلق الرجال والنساء .

شيء واحد فقط كان قادرًا على إغضاب « تولاريشيتو » إذا حاول أحد أن يحطم عملاً من صُنْع يديه ، فقد كان يهجم بوحشية على المُدَمِّر أو اللاَّمُبَالى والشرر يتطاير من عينيه ، فكان « جوميز » فى هذه الأحوال يربط يديه ورجليه ويتركه وحيدًا حتى يهدأ وتعود إليه طبيعته الطيبة . . كان ذلك بعد أن تكررت هذه الحوادث ثلاث مرات كاد « تولاريشيتو » أن يقتل الشخص الذى أساء إلى أعماله .

وعند بلوغه السادسة لم يذهب «تولاريشيتو» إلى المدرسة ، على الرغم من موافقة « جوميز » على ضرورة ذهابه إليها ، ففى كل مرة يبعثون به إلى المدرسة كان يختفى يومًا أو أكثر لشدة خوفه من المدرسة ، لم تستطع قوة القانون أن تجبره على الذهاب إلى المدرسة إلا عندما بلغ الحادية عشرة ، وأصبحت يداه وكتفاه غاية فى القوة .

كان « جوميز » يعلم أن « تولاريشيتو » لم يتعلم شيئاً على الإطلاق ، إلا أنه قد أضاف لموهبته فى النحت موهبة جديدة على نفس القَدْرِ ، وهى الرسم .

عندما اكتشفت المُدَرِّسة « مسز مارتن » فيه هذه الموهبة أعطته قطعة من الطباشير وطلبت إليه أن يرسم على السبورة قافلة من الحيوانات ، فأمضى الفتى فترة طويلة بعد اليوم الدراسى فى الرسم ، وفى الصباح التالى كانت الجدران تحمل صورة رائعة لمهرجان حيوانى تجتمع فيه كل الحيوانات التى رآها « تولاريشيتو » ، وفوقها تُحَلِّق جميع أنواع الطيور ، وكذلك أفعى تزحف وراء بقرة ، وذئب وراء خنزير ، وقد رسم كل هذا فى دقة وتفصيل مدهش .

انبهرت «مسز مارتن» بعبقرية « تولاريشيتو » فأثنت عليه ، وامتدحت عمله أمام التلاميذ، وألقت محاضرة قصيرة عن كل حيوان من الحيوانات التى رسمها وشرحت مع ما تصورته من مجد لاكتشافها هذه الموهبة وإنمائها.

وقال « تولاريشيتو » « لمسز مارتن » ذات يومٍ :

- إننى أستطيع أن أنتج أكثر من هذا بكثير .

وربتت « مسز مارتن » فوق كتفيه قالت :

- لك ما تشاء ، سترسم كل يوم . . لقد منحك الله موهبة كبرى .

انحنت عليه وتطلعت إلى عينيه مؤكدة أهمية ماقالت :

- إنها موهبة عظيمة وهبها الله لك .

ونظرت إلى الساعة وأعلنت بابتسامة بَدْء الحساب للصف الرابع .

اندفع تلاميذ الصف الرابع لمحو رسوم الحيوانات التى رسمها «تولاريشيتو » ليتسع مكانها لكتابة الأرقام ، ما كادوا يمرون بالمسّاحة على اللوح مرتين حتى هجم عليهم « تولاريشيتو » . . وكان ماحدث يوماً مشهودًا . . فلم تستطع « مسز مارتن » يعاونها تلاميذ المدرسة جميعاً من السيطرة على « تولاريشيتو » بسبب ما يكتسبه عند الغضب من قوة رجل ، بل قوة رجل مجنون . . وأسفرت المعركة عن تحطيم أثاث غُرَف الدراسة ، وقلب المقاعد وسكب الحبر ، ونثر وبعثرة باقات الزهور المهداة إلى المدرّسة وتمزقت ثيابها وأصيب الطلاب الكبار الذين وقع عليهم عبء المعركة ، بجروح ورضوض وإصابات بالغة ، فقد قاتل « تولاريشيتو » بيديه وقدميه

ورأسه وأسنانه دون ضوابط حتى انتصر فى النهاية . . أما « مسز مارتن » فقد فَرَّت ومعها جميع الطلاب تاركة المدرسة لتولاريشيتو ، الذى ما إنْ وجد نفسه وحيدًا حتى أغلقَ عليه الباب ومسح الدم من على عينيه ، ثم بدأ فى إصلاح الرسوم التى ضاعت بعض معالمها بسبب المسح .

وتوجهت « مسز مارتن » فى هذه الليلة إلى « فرانكلين جوميز » وطلبت منه معاقبة « تولاريشيتو » بالجَلْد .

هز « جوميز » كتفيه ونظر إليها قائلاً باستنكار :

ـ هل تريدين حقًّا أن أجلده ؟

فأجابته بوجه مملوء بالخدوش :

ـ طبعًا أريد ذلك . . لو شاهدتَ بنفسك مافعله لَـمـاَ استنكرْتَ طلبى هذا ، إنه فعلاً طلبى ، وهو فى حاجة إلى تأديب .

استدعى « جوميز » « تولاريشيتو » وإنتزع من على الحائط سوطًا كبيرًا ، وبينما كان « تولاريشيتو » يبتسم برقة فى وجه « مسز مارتن » وَجَّهَ «جوميز » سوطه من الخلف بقسوة إلى ظهر « تولاريشيتو » فأخذت يد «مسز مارتن » تتحرك لا إراديًّا كما لو كانت تشاركه الضرب ، وعندما انتهى العقاب تحسس« تولاريشيتو » نفسه وعاد إلى فراشه وهو لا يزال مبتسماً ، لقد شاهدت « مسز مارتن » العقاب والرعب يملأ قلبها .

وأخذت تصرخ :

إنه حيوان . . لقد كان الأمر كما لو أنك تجلد كلباً .

بَدَا بعضُ الاحتقار لها على وجه « جوميز » وهو يقول :

ـ لو كان كلباً لتذلّل . . تقولين إه حيوان . . لكنه حيوان طيب ، لقد طلبت إليه أن يرسم ، ثم طلبت إزالة ما رسمه هو لا يحب ذلك ، وعلى الرغم من محاولاتها مقاطعته فإنه استرسل قائلا :

ـ لا يجدى هذا الضفدع الصغير الذهاب للمدرسة ، فهو قادر على تأدية أعمال مدهشة بيديه . . فعقله لا يستوعب ما تُعلمه له المدرسة . . فهو ليس بمجنون ، وإنما من أولئك الذين لم يكتمل خلقهم تماماً .

وأضاف :

ـ حاولت أن يكتفى بذلك ، وبحثت الأمر مع المفتش ، فقال إن القانون يُلزمه الذهاب إلى المدرسة حتى سن الثانية عشرة ، أى بعد سبعة أعوام من الآن . . إن ضفدعى الصغير سيبقى سبعة أعوام فى الصَّفِّ الأول ، لأن القانون يحتم ذلك ، والأمر ليس فى يدى .

قاطعته « مسز مارتن » قائلة :

ـ إن « تولار يشيتو » المخلوقٌ خَطر يجب أن يُحْبَس ، وكان يجب أن ترى مافعله اليوم .

أجابها « جوميز »

ـ كلاً . . هو ليس مخلوقاً خَطِرًا ، ويجب أن يبقى حُرًّا طليقًا ، فليس هناك من يملك قدرته على حَلْب الأبقار بهذه السرعة والرقة . . ولا فى استطاعة أحد أن يفعل مثله فَـيُـرَوِّض حصاناً جامحاً دون أن يركبه ، أو يدرّب كلباً دون أن يلجأ إلى ضربه ، ولكنه القانون يُلزمنا أن يظل فى الصف الأول سبعة أعوام ليردد : « قاق . . قطة » . . ولو كان خطراً فعلاً لا ستطاع أن يقتلنى بسهولة عندما كنت أضربه .

ـ هنا أدركت « مسز مارتن » أن هناك أمورًا كثيرة لا تفهمها عن «تولاريشيتو » ، وشعرت أنها تصرفت بحقارة ، فى حين كان « جوميز » كريماً شهماً .

وفى صباح اليوم التالى فى المدرسة وجدته أمامها ، وكانت رسوماته للحيوانات تغطى كل الجدران ، وقال لها :

ـ هل رأيتِ رسوماتى الجديدة ؟ لَدَىَّ كتاب به صور كثيرة لم أجد مكاناً كافياً لأرسمها .

لم تحاول « مسز مارتن » أن تطلب مسح رسوماته واستبدلت السبورة بالورق ، وقدمت استقالتها فى نهاية السنة الدراسية لأسباب صحية .

كانت المدرّسة الجديدة « مس مورجان » شابة غاية فى الجمال ، ورأى شيوخ الوادى أنها أصغر ممَّا يجب ، وكان جمالها خطرًا على بعض الطلاب فى الصفوف العليا ممن فى سن السابعة عشرة ، وكان مشكوكاً أن تقوم مدرّسة فى هذه السن بالقدرة على حفظ النظام فى المدرسة .

أضفت « مس مورجان » بحماسها الشديد لعملها روحاً جديدة على المدرسة التى اعتادت على وجود العوانس من المُدَرِّسَاتِ المتقدمات فى السن ـ كانت « مس مورجان » تجد متعة كبيرة فى عملها كَمُدَرِّسَة ، فأثارت دهشة المَدرسة ، وغيرت من طابعها المعتاد .

أثرت حالة « تولاريشيتو » فى نفس «مس مورجان » منذ رأته أول مرة ، وكانت على علم ، بظروفه كما كانت قد قرأت كتباً وأخذت دروساً عن المخلوقات ناقصة التكوين مثله . . ولأنها سمعت عن المعركة التى أشعلها فقد قسمت السبورة نصفين خصصت النصف العلوى لرسوم«تولاريشيتو»

واشترت له كراسة رسم كبيرة من مالها الخاص . فأصبح لا يهتم بحصص القراءة والكتابة ، وإنما لزم كراسة الرسم ليقدم لها كل مساء رسماً رائعاً لأحد الحيوانات ، فكانت تأخذه شاكرة وتعلقه أعلى السبورة .

شغف التلاميذ بحصص « مس مورجان »وطريقتها الجديدة ، بل إن أكثر التلاميذ شغباً مع المدرسة السابقة فقدوا اهتمامهم بهذا الشغب ، كما لجأت « مس مورجان » إلى حيلة جديدة أقبل عليها التلاميذ ، فقد كانت تقرأ عليهم ولمدة نصف ساعة يوميًّا ، فقرات من « إيفانهو »أو «التعويذة» ، وقصص الصيد والمغامرات . . فلم تكن تقرأ عليهم قصص الأطفال التقليدية ، مثل قصة « الزجاجة الحمراء الصغيرة » ، وقصة « الإوزة والذئب» ، كانت تقرأ عليهم القصص المثيرة للكبار . . فالتف حولها التلاميذ حتى المشاغبين ، فقد كانوا يتركون ، اللعب خوفاً من أن يضيع عليهم جزء من القصة التى كانوا يتابعونها بشغف .

أمَّا « تولاريشيتو » فلم يكن يهتم بسماع القصص ، وإنما كان يستمر فى الرسم بعناية ، وبين فترة وأخرى يتوقف ليختلس النظر إلى « مس مورجان » محاولاً أن يفهم لماذا يهتم التلاميذ بهذه القصص التى كانت فى نظره كالدروس ، ولهذا لم يكن يهتم بها .

شعرت « مس مورجان » بعد فترة أنها قد بالغت فى ذلك ، فأصبحت مهتمة بقصص الجنيات ، وصارت وتهتم بالذين اقتنعوا بوجود جنيات ، ثم كانت النتيجة أن شاهدوها وقد خصصت نصف ساعة من بعد ظهر كل يوم لقراءة حكايات الجن . . وهنا بدأ « تولاريشيتو » يتغير كلما قرأت لهم « مس مورجان » قصصاً عن الجن ، والحوريات ، والغيلان . . فكان

ينسى القلم فى يدهُ ويترك كل شىء ليستمع إليها فى اهتمام بالغ بكل كلمة تقرأها .

كانت « مس مورجان » تجتاز طريقها وحيدة إلى المزرعة التى كانت تعيش فيها سيرًا على الأقدام فى نهاية اليوم الدراسى ، فتقطف زهرة بريَّة من هنا وتقذف حجرًا هناك ، وتراقب طيور السُّمان وهى تطير خائفة . . وفكرت فى اقتناء كلب يشاركها هذه الرحلة الممتعة ، فيلاحظ حبال الحفر والمخابىء فى الأرض ، ودبيب الزواحف على الأوراق الجافة ، وسحر التغريد الحزين لبعض الطيور ، وهذه الرائحة العطرة التى تنبعث من الأرض . . لقد تسلقت بعد ظهر أحد الأيام رَبْوةً مرتفعة لترسم أحرف اسمها الأولى على طرف صخرة ، وبينما كانت تتسلق جرحت أصبعها ، فحفرت على الصخرة عبارة : « هنا كنت ، وفى هذا المكان تركتُ بقعةً من دمى » . . ثم ضغطت بإصبعها المجروحة على الصخرة فانطبعت عليها بقعة صغيرة من الدم .

وفى تلك الليلة دَوَّنَت انطباعاتها فقالت :

« بعد أن يُؤَمِّن الإنسانُ مصدرَ رزقِه ، لديه أمل منشود فى أن يترك بصمةً أو دليلاً على أنه قد عاش . . ربما يترك هذه البصمة على الصخور، أو على الخشب ، أو على حياة غيره من الناس . . هذا الأمل المنشود يكمن فى نفس أىِّ إنسان ، ابتداء من الطفل أو الفتى الذى يكتب عبارات بذيئة على جدران المرحاض ، إلى « بوذا » الذى يحفر صورته فى عقول أتباعه ، إن الحياة مُغرِقة فى اللاواقعية . . وربما شككنا فى وجودنا ، ولذلك فإننا نحاول جاهدين أن نثبت ونؤكد أننا نعيش فى الواقع » .

واحتفظت « مس مورجان » بصورة من هذه الانطباعات . وذات يوم ، بعد قراءة فصل عن الأشباح لتلاميذها ، عادت ذات مساء إلى البيت ، وفى طريق عودتها أحست بحركة بين الأعشاب ، ظهر بعدها رأس «تولاريشيتو » المخيف .

صرخت « مس مورجان » :

آه ! أفزعتنى . . لا يصح أن تُفاجئنى هكذا !

قام « تولاريشيتو » واقفًا على قدميه وابتسم خجلاً ، وأَخَذَ يضرب بقبعته على فخذه . شعرت «مس مورجان » بالرعب يملؤها ، فالطريق كانت مهجورة . . وقد قرأت قصصاً كثيرة عن المعتوهين ، تحكمت بصعوبة فى صوتها المرتعش وسألته :

ـ ماذا . . ماذا تريد ؟

انفرج فم « تولاريشيتو » عن ابتسامة عريضة ، فى حين أسرعت حركة القبعة فى يده . فسألته مرة أخرى :

ـ هل كنت مستلقياً على الأعشاب ؟ أم أنك تريد شيئاً ؟

بذل الغلام جَهدًا حتى يتكلم ، ثم احتمى وراء ابتسامته . . فقالت وهى على وشك أن تفر من أمامه :

ـ ماذا تريد ؟

بذل جهدًا كبيرًا حتى ينطق لسانه :

ـ كنت أريد أن أسالك عن هذه المخلوقات .

ـ سألته :

أىّ مخلوقات تعنى ؟

ـ هؤلاء الذين حَكَى عنهم الكتاب .

ضحكت « مس مورجان » فى ارتياح وقالت :

ـ هل تعنى الأقزام والأشباح حُـرَّاس الكنوز ؟

أوما برأسه موافقاً .

ـ وماذا تريد أن تعرف عنها ؟

أجابها « تولاريشيتو » بصوت لا يعلو ولا ينخفض :

ـ لم أرَ واحدًا منها فى حياتى .

ـ من النادر أن يراها أحد .

ـ ولكننى أعرف عنها أشياء .

ـ لمعت عينا « مس مورجان» فى اهتمام وسألته :

ـ مَنْ حَكَى لكن عنها ؟ وماذا عرفت ؟

فأجاب « تولاريشيتو » .

ـ لم يَحْكِ لى عنها أحد .

ـ مادمت لم ترها ولم يَحْكِ لك أحد ، فما الذى تعرفه عنها ؟

أجاب :

ـ ربما أكون قد سمعتها تتكلم .

وفكرت « مس مورجان » :

ـ « لماذا أنفى وجود الأقزام والأشباح من خيال هذا الكائن الناقص الغريب ، ألا يمكن أن يسعد بحياته عندما يعيش معها بخياله ؟ ومالضرر فى ذلك ؟ »

وسألته : هل بحثت عنها ؟

ـ لا لم أبحث عنها ، وكنت أعرف وجودها فقط ، لكنى سأبحث عنها من الأن

انبهرت « مس مورجان » بالموقف وشعرت أن أمامها فرصة قدمها لها لوجود قصة واقعية مبهرة أكثر من أى كتاب .

وسألته : أين سبتحث عنها ؟

فأجاب :

ـ سأحفر .

ـ ولكن الأقزام والأشباح لا تظهر إلا ليلاً يا «تولاريشيتو » . . يجب أن ترقبها فى الليل ، وعليك أن تخبرنى إذا وجدت واحدًا منها هل تعدنى؟

ـ أعِدُكِ .

وتركته يتابعها ببصره ومضت فى طريقها وهى سعيدة ببحثه عن الأشباح ليلاً ، فقد يعثر عليها ويتحدث إليها . . لقد استطاعت بكلمات قليلة أن تغير حياته وتفضله عن البلهاء المتشردين حوله ، وتجعل الأشباح أكثر جاذبية وإثارة .

ـ وفى المساء ارتدى « تولاريشيتو » ملابسه وأخذ فأساً وهمّ بالخروج . ولكن « بانشو » العجوز رآه فسأله :

ـ إلى أين أيها الضفدع الصغير ؟

أصابت « بولاريشيتو » بعض العصبية لأنه قد يحول بينه وبين الخروج .

ـ إننى أخرج دائماً ليلاً ، فما الجديد ؟

ـ ولكنك تحمل فأساً ، فهل ستبحث عن الذهب ؟

وبدت الجدية على وجه الصبى وقال :

ـ إننى ذاهب لأبحث عمَّن يعيشون فى باطن الأرض .

ـ أصاب « بانشو» الرعب ، وقال :

ـ لا تذهب . . استمع إلى صديقك العجوز ، إلى أبيك الروحى . . اسمع نصيحتى ولا تذهب ، فأنا الذى وجدتُكَ فى الحقل ، وأَبْعِدْ عنك أقرباءَكَ من الشياطين ، إنكَ الآن الأخ الصغير للمسيح . . فلا تعد إلى أهلك واسمع نصيحة رجل كبير . نظر « تولاريشيتو » إلى الأرض وأضاف إلى عقله هذه المعلومات الجديدة ، وقال لبانشو :

ـ قُلْتَ إن الشياطين هم أهلى . . وأنا لا أشبه الآخرين ، هنا أو فى المدرسة ، وأنا أعرف ذلك . . إننى أحن إلى أهلى فى باطن الأرض . . إنهم مثلى ، وقد نادونى ، ويجب أن أذهب إليهم يا « بانشو » .

وهنا تراجع « بانشو » رافعاً إصبعين متعاقدين وقال :

ـ اذهب إذَنْ إلى أبيك الشيطان ، فأنا لا أكفى لأقاوم هذا الشرير ، فذلك يحتاج إلى قديس ، ولكن انظر ، لقد رسمت علامة الصليب ضدك وضد أهلك جميعهم ، فى الهواء وابتسم « تولاريشيتو » فى حزن واتجه نحو التلال .

خفق قلب « تولاريشيتو » من شدة الفرح لعودته إلى موطنه الحقيقى ، قد قضى حياته غريباً منبوذًا وها هو ذا يعود إلى وطنه . . وكما اعتاد فقد سمع أصواتاً تنبعث من باطن الأرض ، ورنين الأجراس المعلقة فى رقاب الأبقار ، وأصوات ملايين الحشرات ، وزمجرة ذئب ، وصفير الطيور ، غير أنه كان يسترقُ السَّمْعَ إلى أصوات أخرى ، صوت حركة الكائنات ، والأصوات الصادرة من مخلوقات خفية تعيش تحت الأرض .

وتوقف ذات مرة لينادى « ياأبى » لقد عدتُ إلى البيت ، لكن بلا جواب . وهمس : « أين أنتم ياقومى ؟ ، لقد عاد « تولاريشيتو » إلى وطنه» . لكنه لم يتلق ردًّا ، بل ولم يشعر بأى أشباح قريبة منه

وهنا ظهر القمر من وراء التلال ، فأخذ « تولاريشيتو » يهمس ويبتهل فى نفسه : « إن الحيوانات ستنطلق الآن ، وسيخرج سكان العالم السفلى » .

كان هناك بستان مملوء بأشجار الفاكهة كثيفة الأوراق ، ومزرعة خصبة تطل على الوادى ، هى مزرعة « بيرت مونرو » وكان « تولاريشيتو » يأتى إلى هذا البستان ليستلقى تحت الأشجار وينظر للنجوم ، لقد شعر فى لحظة اقترابه من البستان ، أنه يقترب من وطنه . . لم يكن يسمع صوت الأشباح ، لكنه كان يعرف أنها قريبة منه . . ونادَى عليها مرة بعد مرة ، ولكنها لم تُلَبِّ نداءه ، فقال فى نفسه : « ربما لا تحب الظهور فى ضوء القمر » .

حفر « تولاريشيتو » حفرة عميقة جدًّا عند جذع شجرة ضخمة ، وظل يَحْفِرُ طوال الليل ويتوقف للحظات يستمع ثم يواصل الحفر فى الأرض المبللة ، وعلى الرغم من أنه لم يسمع شيئاً فإنه كان واثقاً من أنه يقترب من العالم السفلى ، وتوقف عند ظهور خيوط الفجر ، فانسحب وسط الأشجار الكثيفة لينام .

وفى اليوم التالى خرج « بيرت مونرو » من منزله ليرقب فخًا نصبه لاصطياد الذئاب ، ففوجىء بالحفرة التى حفرها « تولاريشيتو » عند الشجرة ، فغضب وثار ، وقال : لابد أن الأولاد كانوا يحفرون خندقاً ، وهذا شىء قد يعرضهم للخطر ، فقد ينهار الخندق عليهم أو يقع أحدهم فيه ويؤذى نفسه » . وعاد إلى البيت بعد أن ردم الحفرة ، وسأل أبناءه الذين نفوا علمهم بالحفرة ، ولما أقبل الليل ، خرج « تولاريشيتو » من بين الأشجار ليتابع الحَفْر ، فوجد الحفرة وقد رُدمت ، فزمجر غاضباً ، غير أنه فكر وضحك متصوّرا أن من يبحث عنهم قد ظهروا ، وأنه سيختبىء ليراهم ويُعَرِّفَهُمْ بنفسه .

وبدأ « تولاريشيتو » يحفر الحفرة ويعمقها ، وقبل بزوغ الفجر اختبأ وسط الأشجار وأخذ يترقب .

خرج « بيرت مونرو » قبل الإفطار ليرقب الفخ من جديد ، فوجد الحفرة ، فصاح غاضباً : « لقد حفروها مرة أخرى ، ولابد « مانى » مشترك معهم» .

بدأ « بيرت مورنو » فى ردم الحفرة ، وفجأة سمع زمجرة متوحشة ، وفى لحظة هجم عليه « تولاريشيتو » وهو يقفز كالضفدعة على ساقيه الطويلتين وهو يلوح بفأسه كالعصا .

حضر « جيمى مونرو » ليستدعى والده لإفطارر فوجده مُلقًى على الأرض والدم ينزف من فمه وجبينه ، والتراب يتطاير من الحفرة .

وتصور « جيمى » أن هناك مَنْ قتل والده ويحفر قبرًا ليدفنه ، فجرى مذعورًا إلى المنزل واستدعى فريقًا من جيرانه ، فعثروا على « تولاريشيتو »

الذى قاومهم كالأسد الجريح بكل ما أوتى من قوة ، حتى ضربوه على رأسه فسقط فاقدًا الوعى ، فقيدوه ووضعوه فى السجن .

وفى « ساليناس » فحصت مجموعة الأطباء « تولاريشيتو » الذى كان يبتسم بوداعة كلما سألوه ، لكنه لم يكن يجيب . . أما « فرانكلين جوميز » فقد أدلى بمعلوماته عنه للأطباء ، مطالباً بوضعه تحت وصايته ، لكن القاضى رفض طلب « جوميز » قائلاً :

ـ لايمكن أن نُجيب طلبك ، فقد حاول أن يقتل رجلاً ، ولذلك فلا يمكننا إطلاق سراحه ، وإلاَّ كرر المحاولة إنْ عاجلاً أو آجلاً

وبعد مداولة قصيرة حكم القاضى بإيداع « تولاريشيتو » مصحة للأمراض العقلية للحالات الخطرة فى « نابا » .

5

5

كانت حياة « هيلين ديفنتر » مرتبطة بالكوارث ، متصفة بها . . كانت «هيلين » طويلة القامة ، حزينة العينين ، حادَّة الملامح . . بدت كأنها أرملة عند موت قطتها حينما كانت فى الخامسة عشرة ، وظلت فى حُزن عليها ستة أشهر ، حزن هادىء عميق . . أمَّا والدها الذى توفى فى نهاية هذه الأشهر الستة فقد ظل حدادها عليه مستمرًّا بلا توقف ، وكان واضحاً أنها باحثة عن المآسى ، فغمرتها بها الحياة .

عندما بلغت الخامسة والعشرين تزوجت من « هيوبرت ديفنتر فان » الذى توفى بعد ثلاثة أشهر من زواجه بها . . فقد كان صيادًا يقضى ستة أشهر من كل عام فى مهمة صيد ، فأصاب نفسه بطلق نارى . . وبينما كان يحتضر سألوه : هل يريد إبلاغ أى وصية لزوجته ؟ فأجاب :

ـ أوصوها أن تضع صورتى بين الإبل ووحيد القرن

أسدلت « هيلين ديفنتر فان » الستائر ، وكرست قاعة الاستقبال وكل مافيها من تذكارات الصيد لروح « هيوبرت » . . لم تبكِ « هيلين » فليس من طبيعتها البكاء ، بل اتسعت عيناها ، وأصبح واضحاً عليها السرحان فى الماضى .'. وكان « هيوبرت » قد ترك لها المنزل فى « سان فرانسيسكو »

وثروة كبيرة . وقد لدت ابنتها « هيلدا » بعد ستة أشهر من مقتل «هيوبرت»، وكانت طفلة جميلة كالدمية ، لها نفس عَيْنَىْ والدتها الواسعتين غير أن « هيلدا » أُصيبت بجميع أمراض الأطفال بسرعة غريبة . . وقد بدأت فى البداية بالصراخ وما إنْ بدأت فى التنقل حتى أخذت فى تحطيم كل ما يعترض طريق غضبها . . وكانت « هيلين دفنتر » تحاول دائماً تدليلها ، غير أن ذلك لم يُسبب إلاّ زيادة ثورتها .

وعندما بلغت « هيلدا السادسة أكد « د. فيليبس » طبيب العائلة لهيلين ما شَكَّتْ فيه من قبل :

« إن عقل « هيلدا » ليس على مايرام. واقترح أن تعرضها على طبيب نفسى ، وامتلأت عينا الأم السوداوان ألماً .

وأضاف الطبيب :

ـ إننى لست متخصصًا فى هذا ، ، وعليكِ أن تعرضيها على مَنْ هو أقدر منى .

قالت هيلين :

ـ لقد تعوَّدْنَا أن تُحيطنا برعايتك . . لن أستطيع أن أثق بغيرك .

انفجر « د. فيليبس » صائحاً :

ـ يجب أن تدركى أننا نستطيع شفاءها إذا تداركنا الأمر .

رفعت « هيلين » يديها وخفضتهما فى يأس، وقالت :

ـ لن تُشْفى أبدًا ياد كتور ، فقد وُلدت فى توقيتٍ غير مناسب ، كانت وفاة والدها أقسى من أن أحتملها ، ولم تكن حالتى تسمح بحمل طفلة

مكتملة . . ما الذى يمكن عمله يا دكتور ؟ لا أملك إلاَّ الصبر ولاأمل فى أن أستوعب الموقف ، وسأراقبها وأرعاها وأكرس لها حياتى ، لكن لن أستطيع عرضها على غيرك .

قال الطبيب :

ـ يبدو أنك تُصَعِّبِينَ الأمور على نفسك .

ـ إننا نأخذ ما يُمنح لنا ، وسأستطيع الاحتمال . . أنا متأكدة من ذلك ، فلا توجد كارثة أقوى من قُدرة تحملى . . ولكن شىء واحد لا يمكن أن أتحمله . . وهو سلب « هيلدا » منى . . سأتمسك بها ، وستأتى لتراها كالمعتاد ، لكن لا يجب أن يتدخل واحد آخر .

غادر « د فيليبس » المنزل مندهشاً . . فقد كان احتمالها وجَلَدُها غير المُبَـرَّر يدهشه دائماً . وقال :

ـ لو كنت من القَدَر لعملتُ جاهدًا على تحطيم هذه المقاومة المستكينة !

لم تمض فترة طويلة على هذا الحوار حتى بدأت الأحلام والرؤى تهاجم «هيلدا » . . فترى مخلوقات مفزعة ذات مخالب تحاول قتلها وهى نائمة . . أو تعضها أقزام مخيفة فى أذنها . . وصاحت « هيلدا » ذات صباح :

ـ جاء نمر وجرَّ الغطاء عنى .

ـ لا تخافى منه يا حبيبتى .

ـ لكنه حاول أن يعضنى يا أمى .

ـ سأنام بجوارك الليلة حتى لايعود النمر إليك .

وظلت تسهر بجانب سرير الطفلة كل ليلة حتى الفجر وزادت عيناها

احمرارًا بسبب هذا العناء المجنون ، ولكن الأكاذيب التى بدأت « هيلدا » تحكيها كانت تقلقلها أكثر من الأحلام :

ـ ركبت فيلاً ذهبيًا هذا الصباح يا أمى ، وذهبت للحديقة ، فوجدت عجوزاً جالسًا فى الشارع ، طَلَبَ منى الذهاب معه إلى منزله ، فذهبت ، وهناك تركنى أركب الفيل الكبير .

كانت عينا الفتاة تسرح بعيدًا وهى تحكى قصتها ، وكانت أمها تتوسل إليها :

ـ لا تَحْكِ هذه الحكايات يا حبيبتى . . فأنتِ تعرفين أن ذلك لم يحدث .

ـ ولكنه حدث ، وقد أعطانى العجوز ساعة . . انظرى ، هاهى ذى .

ومدت يدها بساعة يد مُرَصَّعَة بالماس . . ارتعشت يد « هيلين » فزعاً وهى تأخذ الساعة ، وقالت بغضب :

من أين هذه الساعة يا « هيلدا ؟

ـ لقد أعطاها العجوزُ لى يا أمى .

وكان محفورًا على ظَهْـرِ الساعة الحرفان الأولان من اسم لا تعرفه «هيلين» ، التى نظرت بيأس إلى الحرفين وقالت بحزم :

ـ ستأخذ « ماما » هذه الساعة يا عزيزتى .

وتسللت هذه الليلة ودفنت الساعة فى حفرة عميقة فى الحديقة ، وفى نفس الأسبوع أقامت سورًا حديديًا حول الحديقة ، ولم تعد تسمح لهيلدا بالخروج وحدها ، وفى سن الثالثة عشرة هربت « هيلدا » من المنزل ، واستأجرت « هيلين » مخبرين سريين خصوصيين للبحث عنها . . وبعد

أربعة أيام عُثِرَ على « هيلدا» نائمة فى مكتب عقارى مهجور فى « لوس أنجلوس » . . وتَسَلَّمَتْ « هيلين » ابنتها من قسم الشرطة ، وسألتها :

ـ لماذا هربتِ يا « هيلدا » ؟

ـ أردتُ أن أعزف على البيانو .

ـ لماذا لم تعزفى على البيانو الذى فى بيتنا ؟

ـ أردتُ أن أعزف على النوع الآخر ، الطويل .

أجلست « هيلين » « هيلدا » وضمتها بقوة :

ـ وماذا فعلت بعد ذلك يا حبيتى ؟

ـ خرجت إلى الشارع ، واصطحبنى رجل فى سيارته ، وأعطانى خمسة دولارات ، وعشتُ مع بعض الغجر وجعلونى ملكة عليهم ، ثم تزوجت واحدًا منهم ، وكنا على وشك إنجاب طفل ، ولكنى تعبت ونمت وجاء شرطى وأخذنى .

قالت «هيلين » :

ـ يا حبيبتى المسكينة . . تعرفين أنه لا شىء من هذا صحيح .

ـ ولكنه صحيح يا أُمِّى .

واستدعت « هيلين » الدكتور « فيليبس » وقالت له :

ـ تقول « هيلدا » إنها تزوجت غجريًّا ، هل تظن ذلك صحيحاً . . لايمكن تحمُّل هذا .

فحص الطبيب الفتاة بعناية وقال :

ـ لقد نصحتك بعرضها على طبيب متخصص .

واقترب من الفتاة وسألها :

ـ هل عادت العجوز الشريرة إلى غرفة نومك يا « هيلدا »؟ !

ارتعشت يدا « هيلدا » وقالت :

ـ جاءت أمس ومعها قرد كبير حاول أن يعضنى .

ـ تذكرى أن هذه العجوز تخافنى ولا يمكن أن تؤذيك ، لأننى أرعاكِ ، وإذا عادت أخبريها أننى أرعاكِ وسترين أنها ستهرب بسرعة .

ابتسمت الفتاة وقالت :

ـ وهل سيهرب القرد أيضاً ؟

ـ طبعًا . . وعلى فكرة هذه قطعة حلوى لابنتك .

وأخرج من جيبه قطعة من حلوى النعناع وهو يقول :

ـ هذه لبابيت . . هذا اسمها ، أليس كذلك ؟

انتزعت «هيلدا » الحلوى من يده وجرت خارج الحجرة .

ـ خِبرتى وعلمى من المؤسف أنها أقل مما يتطلبه علاج « هيلدا » التى أعرفها أنها ستتدهور ، خاصة أنها تقترب من سن البلوغ ومرحلة النمو وما يرافقها من انفعالات ستزيد من اضطرابها العقلى ، ولا يمكن تصور ما قد يحدث . . فقد تتحول إلى قاتلة ، أو تهرب مع أول رجل يصادفها . . فإذا لم تَضَعِيها فى أَيدٍ خبيرة وتوليها رقابة دقيقة ، فقد يحدث ما تندمين عليه . فهروبها مؤخرًا ليس إلا مقدمة لما يمكن أن ترتكبه .

جلست « هيلين » فى جمود ، وكان الصمود الذى استنفره مرسوماً على ملامح وجهها ، فسألته مُعنفة :

ـ ما الذى تنصح به ؟

ـ إيداعها فى مستشفى خاص للأمراض العقلية .

كان مسرورًا لأن رده جاء قاسياً .

تقلص وجه الأُمّ ، وارتبكت صلابتها ، وصاحت :

ـ أنا مسئولة عنها وهى لى ، ولن أفعل ذلك . . سأبقى معها ولن أتركها تغيب عن بصرى ، ولن أبعدها عنى .

فرد بحنق :

ـ إنكِ تعرفين النتيجة .

ثم أدرك صعوبة التفاهم معها فقال :

ـ إننى صديق لكِ يا « هيلين» منذ أعوام . . فلماذا تتحملين كل هذا العبء من الحزن والخطر وحدك ؟

ـ يمكن أن أتَحَمَّلَ أى شىء إلاَّ بُعدها عنى !

ـ لقد أعجبك دور الشهيدة ، فأنتِ تتلذذين بالألم ، ولا تتركين جزءًا من أى مأساة إلاَّ وعشَتيه بالكامل .

ثأر غاضباً وصاح مكملاً

ـ هيلين، على الرغم من أننى رجل هادىء فإننى أريد أن أضربك بقبعتى .

ونظر إلى عينيها السوداوين وأدرك أنه أضاف إلى مآسيها مأساة جديدة، وأضاف إليها ما ستعانى بسببه وقال :

ـ أنا ذاهب . . لا تستدعينى مرة أخرى . . لقد بدأت أكرهك .

عرف سكان « مراعى الفردوس » قدوم سيدة ثرية إلى الوادى للعيش فيه، وشاهدوا السيارات التى تنقل الأخشاب وتصعد الطريق إلى «كريسماس كانيون » ، وسخروا من إنفاق المال بحماقة ، وإحضار الأخشاب لبناء كوخ . . قضى « بيرت مونرو » نصف النهار مراقباً للنجارين وهم يشيدون المنزل فى « كريسماس كانيون » .

وفى المتجر العمومى وقف يحكى ما شاهده :

ـ لابد أن السيدة « فانْ ديفنتر » واسعة الثراء ، لقد بَدَءُوا العمل فى بناء المنزل بالفعل ، ولا شك أنه سيكون جميلاً ، كل خشبة فيه رائعة الشكل ، أكثر من بستانى يأتون بالشتلات والأشجار المزهرة ويزرعونها فى الأرض . وقال « بيرت همبرت » :

ـ هؤلاء الأثرياء يسرفون فى النفقات .

وأضاف :

ـ حزروا ما اذا وضعوا على النوافذ ؟ لقد ركبّوا قضباناً ، وهى ليست حديدية ، بل خشبية سميكة . . أليست هذه من تصرفات النساء الغريبة ؟ لابد أن هذه العجوز تخاف الذئاب .

وتكلم « ت . ب . آلن » :

ـ هل سَتُحْضِر معها كثيرًا من الخدم ؟ لابد أنها ستشترى احتياجاتها من المدينة كأمثالها .

وصلت « هيلين فان ديفنتر » ومعها « هيلدا » وخادم فلبينى ، وطاهٍ صينى بالسيارة إلى « كريسماس كانيون » . . وبمجرد إتمام المنزل والحديقة كان المنزل الخشبى جميلاً ، وقد أَضْفَى الصُنَّاع عليه مسحة قديمة بِرَشِّهِ بالحوامض ، وكذلك الحديقة التى كانت بها أشجار الغار والسنديان ، ونبتت بجوارها زهور بيضاء وزرقاء ، كما أُحيطت الممرات بسور من الأزهار الزرقاء . . سارع الخادم والطاهى إلى مكانهما فى حين أمسكت « هيلين » بذراع « هيلدا » وتمشيا فى الحديقة

قالت « هيلين » :

ـ هل تعتقدى يا حبيبتى أننا سنحب الإقامة فى هذا المكان الجميل ؟

قطفت « هيلدا » زهرة طويت بها جذع سنديانه وقالت :

ـ إننى أُفَضِّل منزلنا السابق .

ـ لماذا يا حبيبتى ولم يكن عندنا هذه الزهور الجميلة والأشجار الباسقة ؟ هنا نستطيع التنزه بين التلال .

ـ أننى أُفضل منزلنا القديم .

ـ لماذا يا حبيبتى ؟

ـ لأن أصدقائى كلهم هناك ، وكان يكفى أن أنظر من السور لأشاهد الناس وهم يمرو ن .

ـ ستحبينّ الحياة هنا بعد أن تعتادى عليها .

ـ لا . . لن أحب الحياة هنا أبدًا .

أخذت « هيلدا » تبكى ثم أخذت فى الصراخ فجأة ، والتقطت لوحاً من الأرض وضربت أمها على صدرها به .

تسلل الخادم فى هدوء من خلف الفتاة وأمسك بذراعيها وحملها إلى المنزل وهى تخبط بساقيها وتصرخ .

حطمت « هيلدا » أثاث الغرفة التى أُعدت لها . . مزقت الوسائد ، ونثرت الريش فى الغرفة . . وحطمت زجاج النافذة ، وطرقت على الألواح الخشبية وهى تصرخ بغضب . . أما « هيلين » فقد ظلت فى غرفتها ، وكلما قررت القيام والذهاب إلى « هيلدا » ظلت فى مقعدها . . وجاءت لحظة أوشك فيها هذا الجَلَد أن ينهار ، غير أنه عاد أقوى مما كان . . لم يعد يؤثر فيها هذا الصراخ القادم من غرفة « هيلدا » . .

ودخل الخادم يسأل :

ـ هل أغلق النوافذ ؟

ـ لا يا « جو » . . إننا بعيدون عن الناس ، ولن يسمع هذا الصراخ أحد .

* * *

ـ من الصعب على سيدة أن تبدأ حياتها هنا وحدها ، أعتقد أن يجب أن أرى هل يحتاجون إلى شىء ؟

قال « بيرت مونرو » ذلك لزوجته وهو يرى السكان الجُدد داخل السيارة متجهين إلى المنزل الخشبى فى « كريسماس كانيون » .

قالت زوجته مازحة :

ـ الفضول وحده . هو الذى يدفعك إلى ذلك .

ـ إذا كُنتِ تعتقدين ذلك فلن أذهب .

ـ كنت أمزح يا « بيرت » . . من حسن الجوار أن تفعل ذلك ، وسأذهب أنا لزيارتها فيما بعد مع السيدة « وايتسايد » . . اذهب الآن لتساعد فى تنظيم أمورهم .

ومشى على ضفاف الجدول فى قاع « كريسماس كانيون » وقال لنفسه :

« الحياة جميلة فى هذا المكان غير أنه غير صالح للزراعة . كان يمكن أن أقيم فى مثله دون عمل ، لولا عَقْد الهدنة فى الموعد الذى تمت فيه » .

وصل إلى سمعه صراخ « هيلدا » وهو لا يزال على بُعد ربع ميل من المنزل، فقال فى نفسه :

« ماهذا ؟ كأنهم يقتلون أحدًا . »

أسرع ليرى ماذا يحدث .

رأى « بيرت » الفتاة من النافذة المحاطة بالقضبان تطل على الممر الأمامى للمنزل ، وكانت ممسكة بالقضبان وقد ملأتها الثورة والخوف ، فقال لها :

ـ ماذا يحدث ؟ لماذا حبسوكى ؟

قالت « هيليدا » :

ـ إنهم يُجيعُوننى ويريدون أن أموت .

قال « بيرت» :

ـ لماذا يريدون أن تموتى ؟

وأجابت كمن يهمس بشىء مهم :

ـ مالى هو السبب . . فهم لن يحصلوا على مالى إلا بعد أن أموت .

ـ ولكنكِ فتاة صغيرة .

قالت « هيلدا » :

ـ لست فتاة صغيرة . . فأنا امرأة مكتملة الأنوثة وأبدو صغيرة فى السن لأنهم يضربوننى ويُجِيعُوننى

تجهَّم وجه « بيرت » وقال :

ـ سأبحث الأمر .

ـ لا تخبرهم . . يكفى أن تُخرجنى من هنا وسوف أحصل على أموالى وأتزوجك . شك « بيرت » فى الأمر ، وقال مهدئاً :

ـ طبعاً . . سأساعدك . . انتظرى قليلاً وسأخلصك .

سار إلى المدخل

ـ هل يمكن أن أقابل ربة المنزل ؟ أجاب الخادم :

ـ لا .

ثم أغلق الباب .

أحمرَّ وجه « بيرت » خجلاً ، ولكنه عاد يدق الباب بغضب :

ـ قُلتَ لك أريدُ مقابلة ربة المنزل بخصوص الفتاة المحبوسة .

أجابه الخادم :

ـ السيدة مريضة جدًّا . . متأسف جدًّا .

وأغلق الباب . . سار « بيرت » فى الممر عائدًا وهو يقول لنفسه :

سآمُـرُ زَوْجَتى ألاَّ تزرهم . . فتاة مجنونة ، وخادم وقح . . فليذهبوا إلى الجحيم .

***

نادت « هيلين » من غرفة النوم :

ـ ما الأمر يا « جو » ؟

ـ طلب رجل مقابلتك فقلت له إنَّكِ مريضة .

حسناً . . من هو ؟ ولماذا كان يريد مقابلتى ؟

ـ لا أعرف من هو . . ولكنه كان يريد مقابلتك بخصوص الآنسة «هيلدا » .

وفجأة تلّون وجه « هيلين » غضباً وعنفته قائلة :

ـ من هو ؟ وماذا كان يريد ؟

ـ لا أعلم ياسيدتى .

ـ وتركته يُذهب ؟ إنكَ تتصرف دون الرجوع إلىَّ . . أُخْـرُجْ من هنا .

وألقت بنفسها على مقعدها وغطت عينيها . . قال « جو » وهو ينسحب ببطء :

ـ أمركِ ياسيدتى .

ـ فقالت :

ـ تعالَ يا « جو » . . ارجع .

فلما عاد قالت ولم تزل تخبىء عينيها :

ـ سامِحْنِى يا « جو » . . لقد فعلتَ الصواب . . ستبقى معى أليس كذلك ؟

ـ نعم ياسيدتى .

قامت «هيلين » وسارت نحو النافذة وقالت والقلق يبدو عليها .

ـ لا أعرف ماذا حدث لى اليوم . . هل « هيلدا » بخير ؟

ـ نعم . . الآنسة هادئة الآن .

ـ حسنًا ، أشعل النار فى مدفأة غرفة المعيشة ثم استدعى « هيلدا » .

وكانت « هيلدا » قدر راعت فى تصميمها لحجرة المعيشة أن تصنع نصباً تذكاريًّا لزوجها . . فجعلتها أقرب إلى كوخ الصيد . . كانت غرفة واسعة ، جدرانها وأعمدتها من الخشب الأحمر . . وعلى جدرانها مجموعة مختلفة الأنواع من رءوس الغزلان ، وفى أحد الجوانب مدفأة حجرية ضخمة عُلِّقَ فوقها عَلم حربى فرنسى ممزق ، أحضره « هيوبرت » من مكان مّا . . وقداصطفت بنادق « هيوبرت » فى صندوق زجاجى مغلق . . وكانت «هيلين» تعرف أنها لن تفتقد زوجها ، لأن لديها هذه الحجرة المشبعة بعبق ذكراه لتجلس فيها .

كانت« هيلين » تتمنى أن تحقق لها هذه الحجرة فى البيت الجديد ما كانت تمنحه لها غرفة الاستقبال فى بيت « التل الروسى » من أحلام وخيالات ، كانت تجلس أمام النار معقودة اليدين ، وتتأمل تذكارات الصيد

المعلقة ، وتكرر : « لقد اصطاد هيوبرت هذا » ، فتتوالى خيالاتها بالترتيب ، و يُخَيَّل إليها أنها تراه أمامها ، فتتأمل شكل يديه ، وطول ساقيه . وبعد ذلك تتذكر طريقة كلامه ومقاطع الشدّ على الكلمات ، وكيف كان وجهه يزداد احمرارًا عندما يغضب ، وكيف كان يتنقل بين ضيوفه ويستعرض تذكارات الصيد معهم . . كان « هيوبرت » يتوقف أمام كل تذكار شابكاً يديه وراء ظهره ، راوياً طريقة صيد الحيوان بكل تفاصيلها الدقيقة .

كانت « هيلين » تتخيل أنها تستمع إليه يرى كل هذه الحكايات ذات النهايات المتشابهة :

« كانت المسافة بعيدة جدًّا ، والرياح تهب من الشمال . . وأوقعت الصيد . . وكان الأمر مجرد حظ طبعاً » .

ولم يكن « هيوبرت » يعنى فعلاً أن الأمر مجرد « حظٌ » ، ولكنه مجرد تواضع منه .

كانت خيالات « هيلين » تتسلسل بهذه الصورة ، إلى درجة أنها كانت تشعر بهذا الصياد الماهر يملأ بحيويته المكان ، وعندما كانت تصل بخيالها إلى هذه المرحلة تسمع جرس الباب يُصدر رنَّة حزينة ، وترسم أمامها وجوه الرجال المرتبكين وهم يروون الحادثة لها فى حزن .

وتسترجع صورتهم وهم يصعدون سلم المدخل الأمامى حاملين الجثمان . وهنا كانت موجة طاغية من الحزن تملأ صدرها فتغوص فى مقعدها . . وهكذا إستبقت زوجها حيًّا بداخلها ، وكانت ترفض بعناد أن تسمح لصورته أن تغيب فى ذاكرتها . كانت زوجة لمدة ثلاثة أشهر . . ثلاثة أشهر فقط . . ومن هنا كان شعور بالاكتئاب واليأس يتملكها ،

وكانت تتسبب فى طغيان هذا الشعور ، لكنها كانت ترحب به وفاء لذكرى «هيربرت » .

وكانت « هيلين » تتهيأ لخيالاتها فى الليلة الأولى من الإقامة فى منزلها الجديد ، وهى أمام المدفأة أمام الحطب المشتعل والنور اللامع المنعكس على عيون الحيوانات الزجاجية . عاد « جو » إلى غرفة النوم وقال :

ـ أشعلتُ النارَ ياسيدتى . . هل أدعو الآنسة « هيلدا » الآن ؟

نظرت « هيلين من نافذتها ، كان الغروب يكسو قمم التلال ، وبدأت بعض الخفافيش فى الطيران هنا وهناك ، ونادت طيور السّمّان بعضها البعض وهى تتجه إلى الماء ، فى حين كانت الأبقار فى قلب الوادى تعود إلى الحظيرة . من القريب أن يغمر « هيلين » فى هذه اللحظة شعور بالسلام . . وشعرت أنها بعيدة عن يد الكوارث التى ارتبطت بها فترة طويلة ، وتنهدت بارتياح . . كان « جو » لا يزال واقفاً عند الباب .

فقالت « هيلين » :

ـ ماذا ؟ الآنسة « هيلدا »؟ لا تُحضرها الآن . . لا شك أن العشاء أصبح جاهزًا ، وإذا كانت « هيلدا » لا تريد العشاء فسأراها بعد ذلك . لم ترغب فى رؤية « هيلدا » حتى لا يتلاشى الشعور بالسلام . . أرادت أن تجلس لتستمتع بما حولها ، ضوء الغروب ، وطيور السمان ، وأصواتها وهى قادمة لتشرب قبل هبوط الليل . وضعت « هيلين » وشاحاً حريريًّا على كتفيها وخرجت إلى الحديقة ـ التى بَدَتْ كأن السلام قد غَلَّفها وأحاط بها ، ورأت أرنباً رمادياً صغيرًا له ذيل أبيض بين الزهور . . فسرها هذا المشهد ، وأدار الأرنب رأسه وتطلع إليها برهة ثم تابع قضم النباتات الجديدة ، وفجأة

شعرت « هيلين » بسعادة جنونية كأن شيئاً مثيراً سيحدث ، من فرط سرورها خاطبت الأرنب :

ـ أكْمِلْ وجبتَك ، يمكن أكلُ الزهور القديمة . . غدًا سأزرع لك كرنباً . . هل اسمك « بيتر » ؟ جميع الأرانب اسمها « بيتر » لم أنتظر شيئًا منذ زمن بعيد ، أليس هذا مضحكاً ، بل إنه محزن ، لكننى الآن أكاد أنفجر ترقباً . . لا أعرف ما هذا الشىء الذى أترقبه . . ومشت مبتعدة ، وأشارت للأرنب قائلة :

ـ أعتقد أن الزهور الأخرى أَلَذُّ طعماً .

وجذبها صوت خرير المياه ، فسارت نحو الجدول . . لما اقتربت من الضفة ، اندفع سربٌ من طيور السمان فى فزع ، وخجلت « هيلين » لأنها أفزعتها ، فقالت :

ـ عُودِى ، إن الأرنب لم يهرب منى . . إننى لن أؤذيك أبدًا ، وتذكرت كيف اصطحبها « هيوبرت » ليعلمها الصيد بالبندقية ، كيف كان جادًّا رزينًا وهو يعلمها طريقة حمل بنادق الصيد ، وكيف تُصوبها وعيناها مفتوحتان قائلاً :

ـ سأقذف الآن علبةَ من الصفيح . . لا أُريدكِ أن تطلقى النار على شىء ثابت . . فإنَّ من السهل أَنْ نُطلق النار على طير واقف ، .

وقد ظلت تُطلق النارَ بحماسٍ على علب الصفيح . . وفى طريق العودة إلى المنزل رَبَتَ ذِرَاعَها قائلاً :

ـ سيمر وقت طويل قبل أن تصطادى طيور السمان ، ولكن يمكنكِ بعد فترة قصيرة اصطياد الأرانب .

وتذكرت الحبال الجلدية التى أحضرها إلى المنزل وقد عُلقت بها الطيور من رقابها . وفجأة أدركت « هيلين » أنها لم تكن تريد استرجاع ذكرى «هبوبرت » ، فقد كانت ذكريات الماضى تقضى بداخلها على هذا الشعور بالسلام .

أسدلَ الظلامُ ستائره ، وامتلأ الجو برائحة النبات . . وسمعت صوت جرس الطاهى للدعوة للعشاء . . شدت « هيلين » وشاحها وعادت إلى المنزل ، وجدت ابنتها قد سبقتها إلى غرفة الطعام . . وبدت سعيدة راضية جدًّا عن نفسها ، وقد اختفت ثورتها وقت الظهيرة . . وقالت « هيلين» :

ـ« هيلدا » يا حبيبتى ، أنتِ أحسن الآن ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

قبلتها « هيلين » على جبينها وضَمَّتَها بقوة وقالت :

ـ عندما تشعرين كم هى الحياة جميلة ستحبينها . . أنا واثقة من ذلك .

ولم ترد « هيلدا » ولكن المكر بدا فى عينيها .

ورددت « هيلين » :

ـ ستحبين الحياة هنا . . أليس كذلك ؟

وردت « هيلدا » ردًّا غامضاً :

ـ قد أحب الحياة هنا وربما لا أحبها .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ ربما لا أبقى هنا لفترة طويلة

ـ ماذا ؟

نظرت « هيلدا » إليها بسرعة . . وكانت تحاول أن تحتفظ بسرٍّ مَّا ، وقالت :

ـ قد أهرب وأتزوج .

استرخت « هيلين » فى مقعدها وابتسمت قائلة :

ـ آه فهمت ، سيحدث ذلك طبعاً ، ولكن من الأفضل الانتظار بضع سنين ، ومَنْ هو هذه المرة ؟ الأمير أيضًا ؟

ـ لا ، إنه رجل فقير ، ولكنى سأحبه ، لقد رسمنا اليوم جميع خططنا وأعتقد أنه قادم لمصاحبتى .

وتذكرت « هيلين » وسألتها :

ـ هل هو الرجل الذى حضر ظهر اليوم إلى المنزل ؟

وقامت « هيلدا » مسرعة من على المائدة وقالت :

ـ لن أخبرك بشىء ، وليس من حقك أن تسألينى . . انتظرى قليلاً وسأثبتُ لكِ أننى لن أبقى فى هذا المنزل العتيق .

جرت إلى غرفتها وأغلقت باب حجرتها بعنف .

قرعت « هيلين » الجرسَ للخادم وسألته :

ـ «جو » . . ماذا قال الرجل الذى جاء اليوم بالضبط ؟

قال إنه يريد مقابلتك بخصوص الفتاة الصغيرة .

ـ كيف كان يبدو ؟ وكم يبلغ من العمر ؟

ـ لم يكن عجوزًا ولا شابًّا أعتقد أنه فى حوالى الخمسين .

أدركت « هيلين» أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مأساة من المآسى التى تخترعها « هيلدا » وتحكيها ، وإن كانت « هيلدا » تتخيل أنها حقيقة . . مسكينة ! تناولت « هيلين » طعامها ببطء ثم جلست أمام المدفأة فى حجرة المعيشة وراحت تبعد النار عن الحطب المتوهج ،و أطفأت جميع الأنوار . . ورجعت إلى عادتها القديمة ، وبدأت تتخيل « هيوبرت » ، يديه وساقيه المستقيمتين ، ولكنها لم تستطع تخيله بوضوح ، لقد اختفت ملامحه . . وعاد إليها السلام عندما عاودها الأمل .

أخفت « هيلين » وجهها بيديها وبكت . . ثم جففت عينيها وسارت ببطء فى الحجرة وفتحت النوافذ الكبيرة ، وعالجت المزاليج الجديدة ، وتسلل نسيم الليل إلى الحجرة ، ولفح النسيم كتفيها العاريتين ، واستندت إلى النافذة تستمع إلى هذه الأصوات الرقيقة القادمة من التل ، وشردت . . إنها مملوءة بالحياة ، تتفجر حيوية ، وبينما هى تستمع انتبهت إلى صوت يأتى من الناحية الأخرى للمنزل ، صوت مبرد الخشب ، وقالت :

ـ ماهذا ؟ هل هو صوت حيوان يحفر تحت شجرة ؟ لقد سمعتُ عن وجود حيوانات تقرض أساس المنازل الخشبية ، ولكن لا أعتقد بوجودها هنا .

وسمعت صوت ارتطام ثم سكون ، فانتابها القلق ، وأسرعت إلى غرفة «هيلدا » وصاحت :

ـ هل أنتِ بخير يا حبيبتى ؟

ولما لم تسمع ردًّا دخلت الحجرة فوجدت أحد الألواح الخشبية مخلوعاً ، وأن « هيلدا » قد اختفت .

جمدت « هيلين » للحظة مذهولة أمام النافذة المفتوحة والظلمة خارجها ، وشحب وجهها وتقلصت شفتاها ؛ كعادتها عندما تواجه المصائب ، وذهبت إلى حجرة المعيشة ، ودون شعور فتحت صندوق الأسلحة وأخذت بندقية . جلس الدكتور « فيليبس » بجانب « هيلين » فى مكتب المحقق الجنائى ، كان عليه أن يتواجد بصفته طبيب الفتاة ، وكان باعثه أيضاً حماية « هيلين » من الفزع ، لكنها بدت فى حُزنها الشديد كالصخرة التى يغسلها البحر . . كان المحقق يسأله :

ـ هل كان هروبها متوقعاً ؟

نظر الدكتور « فيلبيس » بارتباك إلى « هيلين » وقال :

ـ من المستحيل معرفة ذلك . . فقد كانت مريضتى منذ ولادتها ، وفى مثل حالتها يمكن أن تنتحر أو ترتكب جريمة قتل . . وكذلك من الممكن أن تعيش دون أن تُلحق الضرر بأحد ، أو تأتى بفعل عنيف .

كان المحقق يوقع أوراقاً ويقول :

ـ كان الأمر مروعًا . . بالتأكيد كانت تعانى من الجنون ، وبغض النظر عن الدوافع التى من الممكن فى مثل حالتها أن تكون دَوافِعَ تافهة جدًّا . كان رأسها فى الجَدْوَل والبندقية بجوارها . سأوصى باعتبار الحادث حادث انتحار ! . . آسف للحديث بهذا الأسلوب ياسيدة « فان ديفنتر » ، أنا مُقَدِّرٌ أن عثورك عليها كان صدمة رهيبة لك .

ساعد الدكتور « فيليبس » «هيلين » على الخروج من المحكمة وقال لها :

ـ تماسَكِى . . إن ما حدث هو الأفضل ، فلا تتألمى لهذا القدر .

لم تنظر إليه ، وقالت بصوت رقيق :

ـ أعرف الآن ما ينتظرنى فى الحياة . . ما كنت أشك فيه دائماً ، لاتقلق يا دكتور . . إنى أستطيع الاحتمال .

6

6

كان « جونيوس موليتى » سليل عائلة طيبة مثقفة ، نشأ نشأة طيبة ، وكان شابًّا نحيفَ الحجم ، وعندما توفى والده مفلساً اضْطُرَّ للالتحاق بعملٍ كتابىٍّ استمر فيه عشر سنوات تم تركه .

كان « جونيوس » يعود إلى غرفته المفروشة بعد عمله فيستند إلى الوسائد على « الشيزلونج » ويقضى مساءه فى القراءة ، وكان يرى أن « ستفنسون » هو أرفع مَنْ كَتبَ بالإنجليزية ، وقد أعاد قراءة كتاب « رحلات مع حمار » عدة مرات ، وبعد أن بلغ عامه الخامس والثلاثين فقد وعيه ذات مساء على سُلم المنزل الذى يستأجر إحدى حجراته ، ولما أفاق اكتشف أنه يتنفس بصعوبة . . كان الطبيب الذى استشاره متفائلاً ولطيفاً قال له :

ـ لَـمْ تُهمل فى نفسك إلى درجة عدم تدارك الأمر . . ولكن يجب أن تبتعد برئتيك عن « سان فرنسيسكو » التى إن بقيت فيها لن تعيش عاماً واحدًا . . إنك تحتاج إلى جو جاف دافئ .

سُـرَّ « جونيوس » بما حدث ، وشعر أن القيد الذى كان يكبله قد كُسِرَ من تلقاء نفسه وكان لديه خمسمائة دولار نسى أن ينفقها ، فقال :

ـ بهذا المبلغ إمَّا أن أُشْفَى وأبدأ حياتى من جديد بداية نظيفة ، أو أموت وأتخلص من هذه الحياة .

نصحه أحد موظفى المكتب بالمعيشة فى وادى « مراعى الفردوس» الدافىء ، فانتقل «جونيوس» فورًا إلى هناك ، وأعجبه الاسم ، فقال :

ـ قد يكون نذيرًا بالموت أو بديلاً عنه .

كانت فى «مراعى الفردوس» عدة أُسرٍ مستعدة لاستضافة الوافدين ، وبعد أن استعلم «جونيوس» عن كُلٍّ منها ذهب للعيش فى مزرعة الأرملة «كويكر» . كانت تحتاج إلى المال ، أما هو فقد استطاع أن يجد مكانًا منفصلاً للنوم . . وكان لهذه السيدة ولدان وخادم يقوم بأعمال المزرعة .

وكان من دواعى سروره تخلُّصه من وظيفته . . ترك «جونيوس» شعره دون تمشيط ، وازداد بصره قوة ، ولم يعد يرتدى عدساته إلاَّ بحكم التعود .

وعلى الرغم من اجتيازه فترة النقاهة عام ١٩١٠ ، فإنه بقى مقيماً عند الأرملة «كويكر» عام ١٩١١ . وبدأت «مسز كويكر» تقلق بشأن بقائه وما يمكن أن يثيره وجود رجل أعزب فى منزلها من أقاويل . . ولما تأكدت من تمام شفائه فاتحته فى الأمر ، فتزوجها فورًا وهو سعيد بذلك ، لأنه أصبح بعد زواجه منها يمتلك منزلاً ومستقبلا مشرقًا ، فمسز « موليتى » كانت تملك مائتى فدان عند سفوح التلال ، مملوءة بالعشب ، وخمسة فدادين مزروعة فاكهة وخضروات . . أحضر «جونيوس» كتبه ومقعده «الشيزلونج» ونسخة من كتاب «الكاردينال» لفيلا سكيز . . وبدا المستقبل أمامه مشرقاً سعيدًا .

فجأة استغنت «مسز موليتى» عن العامل ، وحاولت دفع زوجها للقيام

بِمَهامِّه ، لكنها لم تجده مُهَيَّئًا لذلك ، فقد أصبح مُحِبًّا للكسل بعد تعوده عليه فى فترة النقاهة . . لقد أحب الوادى والمزرعة ، ولكن كما هما دون إضافة ، فلم يكن يريد زرعَ جديدٍ أو اقتلاعَ قديمٍ ، ولما أعطته السيدة «موليتى» فأساً ودعته للعمل فى مزرعة الخضراوات والفاكهة ، وجدته بعد ساعات يقرأ فى كتاب « المخطوف» ، واضعاً قدميه فى مياه الجدول ، وأبدى أسفه لأنه لم يَدْرِ بما فعل . . وكانت هذه هى الحقيقة .

لاحقته كثيرًا بملاحظاتها حول كسله وإهماله لملابسه ، ولكنه أصبح قادرًا على عدم الاستماع إليها أو الاهتمام بكلامها تماماً . . ولما طالت فترة توجيهه بدون فائدة بدأت هى أيضاً تهمل فى شعرها .

فى الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩١٧ عانت عائلته ـ عائلة «موليتى» ـ من الفقر الشديد بسبب إهماله للمزرعة ، واضطرارها لبيع عدة أفدنة من المراعى لتوفير المال اللازم للحياة ، ومع ذلك لم تجد الأسرة ما يكفيها . وبدا الفقر على المزرعة ، وظهر جليًّا على ملابسهم ، ومع ذلك ظل «جونيوس» مستغرقاً فى مقالات «ديفيد جريسون» و«مغامرات فى القناعة» ، يجلس بزى العمل تحت أشجار الجميز ليقرأها لزوجته وولديها .

وفى بداية عام ١٩١٧ حملت « مسز موليتى » ، وفى آخر العام أصاب وباء الإنفلونزا الأسرة ، ربما بسبب قلة التغذية . . وأُصيب الولدان فى وقت واحد ، فى حين كانت والدتهما تلزم الفراش أيضاً ، وعلى الرغم مما حاوله الجيران من المساعدة فإن الحُمَّى اللعينة قد أصابتها وهى فى المخاض ، وقتلتها قبل أن ترى وليدها .

وحكت الجارات اللاتى ساعدتها فى الولادة أن « جونيوس » كان يقرأ الكتب ، فى حين كانت زوجته وولداها يحتضرون . لكن هذه الحكاية لم

تكن حقيقية ، فلم يكن يعرف أن الطفلين مريضان . ولما عرف أخذ يتنقل بين الولدين المحتضرين ليحكى لهما قصصاً عن الماس ، وجمال الصليب المعقوف ، وتاريخه ورمزه . . وأسلم أحدهما الروح وهو يقرأ له بصوت عالٍ الفصلَ الثانى من كتاب « جزيرة الكنز » ، ولم يتنبه إلى وفاته إلا بعد نهاية الفصل . . كان مذهولاً فى تلك الفترة ، ولم يكن يعرف ماذا يمكن أن يفعل لهما ، فقد قَدَّمَ لهما الأشياء الوحيدة التى يمتلكها ، ولكنها لم تفعل شيئاً أمام الموت .

وبعد إجراءات الدفن عاد « جونيوس » إلى الجدول وقرأ بضع صفحات من كتاب « رحلات حمار » . عَنَّفَتْهُ إحدى الجارات وشتمته بوقاحة ، فحاول الامتناع عن الاستماع إليها ، فأخذت تنظر إليه باحتقار . . ثم أحضرت طفله ووضعته بين ذراعيه ، ولما استدارت كان لايزال واقفاً والطفل بين ذراعيه يصرخ ، فلم يستطع أن يجد له مكاناً يضعه فيه ، وكان سكان الوادى أحياناً يكرهون « جونيوس » لكسله ، وأحياناً يشفقون عليه لرؤيته ، وكانوا يتبادلون الحكايات عن كسله ، لكنهم لم يتصوروا أن « جونيوس » كان سعيدًا ، فقد حكوا أنه اشترى عَنْزًا لتغذية الطفل . تبعاً لنصيحة الطبيب . . ولم يسأل عن جنس العَنْزِ عند شرائها، ولم يوضح أنه يحتاجها من أجل اللبن . . ولما وصلت إليه نظر وسأل بجدية :

ـ هل هذه عَنْزٌ طبيعية ؟

أجابه صاحبها :

ـ طبعاً .

ـ ولكن أليس من الضرورى وجود كيس أو ما يشبه ذلك ؟ أعنى من أجل الحصول على اللبن ؟

انفجر سكان الوادى ضاحكين ، ولما تسلّم « جونيوس » عَنْـزًا أخرى قَضَى يومين دون حَلْبِ نقطة لبن واحدة وأراد أن يعيدها هى الأخرى ، ولكن البائع عَلَّمَهُ كيف يحلبها . . وحكى البعض أنه وضع الطفل تحت العَنْز وتركه يرضع الحليب ، ولكن ذلك لم يكن صحيحًا . . وأعلن سكان الوادى عدم علمهم بكيفية قيامه بتربية الطفل .

ذهب « جونيوس » إلى « مونتيرى » واستأجر رجلاً مُسِنًّا لمساعدته فى المزرعة ، ودفع له تحت الحساب خمسة دولارات ، ولم يدفع له شيئا بعد ذلك قط ، وفى خلال أسبوعين كان الرجل قد تعلم منه الكسل حتى صار مثله تماماً .

وكانا يجلسان يتبادلان الحديث حول ألوان الزهور ، وهل فى الطبيعة علم رموز ؟ وأين تقع قارة أطلنطا ؟ وكيف كان هنود الأنكا يدفنون موتاهم؟

أهمل « جونيوس » وخادمه المزرعة تماماً . . فكانا يزرعان البطاطا فى الربيع فى وقت متأخر عن موسم زرعها ، ودون أن يغطياها بالتراب لإبعاد الخنافس عنها . . وزرعا فاصوليا ، وذرة ، وبازلاء ، وراقباها مرة ثم أهملاها ، فنمت الأعشاب حتى حجبت كل شىء عن الأنظار ، وأصبح أمرًا عاديًّا أن يُشَاهَدَ « جونيوس » يسير مخترقاً الأعشاب البرية ليخرج ومعه خيارة ذابلة ، وقد توقف عن ارتداء الأحذية ، لأنه يحب ملامسة التراب الدافىء بقدميه ، ولأنه لم يكن يملك حِذاءً .

كان « جونيوس » يتبادل الحديث كثيراً مع خادمه « جاكوب شتوتر » وقد قال له مرة :

ـ تصور . . عند وفاة الولدين تصورت أن ذلك قمة الأهوال ، ثم قَلَّ حجم الأهوال وتحولت إلى غَمٍّ ، ثم تضاءل الغمُّ ليصبح حُزناً ، وأعتقد أننى لم أفهم زوجتى والولدين جيدًا ، فالمعرفة أمر غريب . هناك عقول بعيدة الإدراك ، وعقول أخرى محدودة الإدراك ، فأنا مثلاً أشعر «بالبارتينون» أكثر من إحساسى بمنزلى . . هل رأيت يوماً يا « جاكوب » صورة لسور «البارتينون » الذى أقيمت عليه تماثيل بديعة لعربات تجرها خيول متوثبة ؟

قال « جاكوب » :

ـ نعم . . إنه رائع !

أضاف « جونيوس » :

ـ هذه الخيول الجميلة المتوثبة المنطلقة إلى مرعى سماوى . . وهؤلاء الفتيان المتحمسون إلى مهرجان لا يدركه العقل خلف السور ، كيف يمكن الإنسان أن يتصور شعور هذه الخيول عندما تكون سعيدة . . لابد أن المثَّال قد تصور هذا الشعور ، وإلَّا لما كان قد نحتها بهذه الروعة

هكذا كان الوقت يمضى . . كان « جونيوس » يقطعه بالحديث فى أى موضوع . . وغالباً ما شعر الرجلان بالجوع ، لأن الطعام لم يعد فى وقت العشاء . اختار « جونيوس » لطفله اسم « روبرت لويس » ، ولكن «جاكوب شتوتز » قال :

مقطع واحد كافٍ للاسم ، فروبرت اسم طويل . . يستحسن أن نسميه « بوب » .

قال « جونيوس » :

ـ سأتساهل معك وسنسميه « روبر » ، فهو أقصر من « روبرت » كان «جونيوس » يتساهل مع « جاكوب » ، فهو الذى يتولى المهمة الشاقة للتنظيف وإزالة العنكبوت ، وكان بين فترة وأخرى يتحمس وتصيبه حُمَّى لتنظيف المنزل .

نشأ « روبر » فى جو جادٍّ . . فلم يتعامل معه والده كطفل ، لأنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الصغر . . فإذا أبدى « روبر » ملاحظة استمع إليها الرجلان بكل اهتمام واحترام . . وكثيرًا ما كان « روبر » يستمع إلى أحاديث الرجلين . . مدت شجرة جميز عملاقة فرعاً أفقيًا فوق الجدول ، وكان الثلاثة يجلسون عليه . . يدلى الرجلان أقدامها فى الماء ، فى حين يحاول « روبر » بصعوبة تقلبدهما . . كانت ملامسة قدمه للماء علامة على نُموه بالقدر الكافى . . ولأن « جاكوب » وصل إلى الفترة التى تخلَّى فيها عن الحذاء ، فلم يَـرْتَدِ « روبر » حذاءً فى حياته .

ولأن المناقشة بين الرجلين كانت راقية وناضجة اللغة ، فلم يعرف «روبر » معنى الحديث الطفولى ، وكانوا يطلقون لأفكارهم العنان لتصبح الفكرة غير محدودة . على فرع الشجرة كان الثلاثة يجلسون وملابسهم بالية، وشعرهم غير مشذب ، لا يقصُّونه إلاَّ حماية لعيونهم . . وكانت لِحْيَتَا الرجلين طويلتين مُشَعَّثَتَيْنِ ، وكانت الشجرة تتمايل مع الريح ، وتسقط منها أيضًا ورقة بنية اللون تشبه المنديل ، كان « روبر » فى الخامسة من عمره وقت ملاحظة سقوط الورقة فقال :

ـ أشجار الجميز طيبة .

أمسك « جاكوب » بالورقة وقال :

- إنها تنمو بالقرب من الماء ، فالأشياء الطيبة تقترب من الماء ، والأشياء السيئة دائماً جافة .

وقال « جونيوس » :

- أشجار الجمز طيبة لأنها كبيرة الحجم . . الأشياء الشريرة صغيرة ، ونادرًا ما تجد شيئاً كبيرًا سامًّا أو غادرًا ، ولهذا السبب يُعَدُّ كِبَرُ الحجم رمزًا « للخيرِ » وصِغَرُ الحجمِ رمزًا للشَّـرِّ عند البشر ، هل فهمت يا « روبر » .

وكان « روبر » يرد

- نعم . . فهمت ، مثل الفيلة .

- الفيلة تبدو شريرة ، ولكننا إذا تفكرنا فيها وجدناها طيبة لطيفة .

قاطعه « جاكوب » :

- وماذا عن الماء ؟ ما رأيك فيه ؟

أجاب « روبر » :

- لا أعرف شيئاً عن الماء .

فقال « جونيوس » :

- الماء هو أَصْل الحياة .

وعلى الرغم من ابتعاد سُكان « مراعى الفردوس » عن « جونيوس موليتى» بعد وفاة زوجته وولديها ، وعلى الرغم من الروايات عن استغراقه فى القراءة حين كان الولدان يحتضران ، فإن مشكلته الجديدة أثارت

انتباههم . . فقد كان يعيش فى فقر شديد ، فى حين أن العلائلات المجاورة فى هذا الوادى الخصب كانت تجمع ثروات صغيرة ، وتشترى السيارات الفورد، وأجهزة الراديو ، وتوصل الكهرباء إلى منازلها ، وتذهب مرتين أسبوعيًّا إلى السينما فى « مونتيرى » و « سالييناس » . . وكان «جونيوس » يزداد تدهورًا ، ويتحول إلى بدائى يرتدى الملابس البالية .

ازداد حياته نفورًا منه ومن أرضه الخصبة التى امتلأت بالعُشب البرى ، والأشجار المثمرة المهمَلَة ، والأسوار المنهارة ، والمنزل القذر الذى امتلأ مدخله بالحفر ، ونوافذه بالقذارة . . فقد كانوا ـ رجالاً ونساءً ـ يكرهون كَسَله وتهاونه الشديد فى حق نفسه ، وكانوا قد اهتموا بزيارته لفترة ، لعل نظافتهم تثنيه عن كسله ، ولكنه استقبلهم بلا خجل من فقره أو ملابسه البالية . . وتدريجيًّا نبذوا « جونيوس » وأبعده عن مجتمعهم ، وقررا عدم استقباله إذا زارهم . ولم يدرك « جونيوس » نفور جيرانه ، فظل مستغرقاً فى السعادة فى حياته اللاواقعية ، فقد كان يقنع بالجلوس فى الشمس وإسقاط قدميه فى مياه الجدول ، فإذا لم تكن لديه ثياب جميلة فهو على الأقل لا يذهب إلى مكان يتطلب تواجده فيه الثياب الجميلة .

وعلى الرغم من أن الناس لا تحب « جونيوس » فإنهم كانوا يشفقون على « روبر» وفظاعة تركه ينمو، وينشأ فى هذه القذارة ، ولكنهم لم يتدخلوا فى خصوصيات« جونيوس » وقالت السيدة « باتكس » لفريق السيدات فى قاعة استقبالها .

ـ سننتظر حتى يبلغ الطفل سن المدرسة . . فلن نقدر أن نفعل له الآن أىّ شىء . . ولكن عندما يصل للسادسة سيصبح من حقنا التدخل .

هزت السيدة رأسها بأسف وقالت :

ـ لا يجب أن نغفل أنه ابن « مسز كويكر » وليس « جونيوس موليتى » فقط ، كان يجب أن نتدخل من فترة طويلة ، وسنشمل هذا الطفل عندما يلتحق بالمدرسة بالرعاية التى لم يَنَلْهَا من قبل .

وبدا كأن الوادى فى انتظار التحاق « روبر » بالمدرسة ، وعندما حان الوقت ولم يذهب . . كتب « جون وايتسايد » أمين مجلس إدارة المدرسة إلى «جونيوس موليتى » بهذا الشأن . وتلقىٰ «جونيوس » ، وقال لروبر :

ـ لقد غفلت عن ضرورة إلحاقك بالمدرسة .

قال روبر :

ـ لا أريد أن أذهب .

ـ أعرف ذلك . . وأنا أيضًا لا أُريدك أن تذهب ، ولكنْ هناك قوانين وعقوبات إذا لم ننفذها ، ويجب أن نضع فى اعتبارنا هذه العقوبات . إن أبناء « قرطاجة » كانوا يُعاقَبون على سوء الحظ . . فالقائد الذى يخسر المعركة لسوء حظه كان يعاقب بالإعدام .

واستغرقوا فى مناقشات أنستهم الرسالة ، فأرسل « جون وايتسايد » رسالة أخرى شديدة اللهجة .

قال « جونيوس » عندما تسلمها :

ـ يجب أن تذهب يا « روبر » . . سيعلمونك أشياء كثيرة مفيدة .

ـ ولماذا لا تعلمنى أنت ؟

ـ لا أستطيع ذلك . . لقد نسيت الأشياء التى يُعلمونها .

وهكذا وصل « روبر » إلى المدرسة . . كان يرتدى بنطلوناً ممزقاً عند الركبتين وقميصًا أزرق دون « ياقة » ، وكان شعره طويلاً يتدلى فوق عينيه الرماديتين مثل الحصان .

التف الأطفال حوله فى فناء المدرسة وراحوا يحملقون فيه . . كانوا جميعاً يعلمون بفقر أسرة « موليتى » وكسل « جونيوس » وكانوا ينتظرو مجىء «روبر» للسخرية منه ، ولكنهم التزموا الصمت فلم ينطق واحد بعبارة مثل : «من أين لكَ هذه الملابس ؟ ». أو : « انظروا إلى شعره ! » . . كما كانوا ينوون .

أمَّا « روبر » فقد أخذ ينظر إلى دائرة الأطفال من حوله بجدية ، ولم يشعر بأى خوف ، وسألهم :

ـ ألا تلعبون ؟ لقد أخبرنى أبى أنكم تلعبون .

انفرط عقد الدائرة وقالوا : « إنه لا يعرف أى لعبة . . لنعلمه لعبة «بيوى » . . لا . . لعبة « الطفل الزنجى » .

وبدأ التفكير على وجه « روبر » ، وأخيرًا قرر :

ـ سنجرب لعبة « بيوى » أولاً .

كان « روبر » غيرَ ماهرٍ فى تعلُّم اللعبات الجديدة ، ولكنَّ مُدَرِّسِيه صبروا عليه ، ولم ييأسوا منه ، بل تنافسوا ليعلموه لعبة العصا . . وكانت هناك أساليب مختلفة لتعلُّم هذه اللعبة . . وقف « روبر » يستمع ثم اختار مدربه ـ فرضت شخصية « روبر » نفسها على المدرسة فورًا . . فقد تركه الأولاد الأكبر سنًّا وشأنه ، فى حين بدأ الصغار فى تقليده فى كل شىء ، حتى بنطلونه الممزق ، وكانوا يجلسون معه تحت الشمس وقت الغداء

ويسندون ظهورهم إلى الحائط . كان « روبر » يحكى لهم عن شجرة الجميز، فكانوا يستمعون إليه باهتمام ويتمنون لو كان آباؤهم مثل أبيه .

تسلل عدد من الأطفال إلى مزرعة « موليتى » على الرغم من إرادة أهلهم، وكان «جونيوس » جالساً على فرع شجرة الجميز . . فأخذ يقرأ عليهم قصة «جزيرة الكنز » وجلسوا هم بجانبه .

وفى فترة قصيرة أصبح « روبر » ـ بمساعدة أبيه ـ ملكاً فى فناء المدرسة كان الحَكَم فى كل الخُصومات ، ولم يحاول أحَدٌ قط الاختلاف معه .

شعر « روبر» تدريجيًّا أنه زعيم الأطفال فى المدرسة ، كما شعر زملاؤه بنضجه ، ولم تمضِ فترة طويلة حتى أصبح هو الذى يختار اللعبة التى سيلعبونها . . وكان الحَكَمَ الأكبر فى لعبة « البيسبول » . . فلم يكن هناك طفل يستطيع التحكيم إلاَّ ويثير معركة ، أمَّا هو فعلى الرغم من عدم إجادته لِلّعبة فإنّ قضايا النظام كانت تُحَال إليه دائماً .

ولفت « روبر » نظر « مس مورجان » ، فقد كان مدهشاً فى قاعة الفصل ، وكان رائعاً فى فناء المدرسة ، وكان يمكنه القراءة بصورة ممتازة ، كما كان يستخدم أسلوباً لا يستخدمه إلا الكبار، وعلى الرغم من هذا فقد تعلم الكتابة بصعوبة بالغة ، وكتب بيده حروفاً مشوهة .

حاولت « مس مورجان » مساعدته فقالت :

ـ اخْتَـرْ عبارة واكتبها مرات كثيرة حتى تتعلم كتابتها ، واهتمّ بكل حرف .

اختار « روبر » عبارة « ليس هناك أفظع مما نتصوره فى أنفسنا » . وكتب العبارة عدة مرات . . ولما جاءت « مس مورجان » سألته :

ـ روبر . . أين سمعت هذه العبارة ؟

ـ إنها عبارة لستيفنسون . . والدى يعرفها جيدًا .

كانت « مس مورجان » قد سمعت طبعاً عن « جونيوس » ولكنها الآن تَوَدُّ لو قابلته .

شكا « روبر » لجونيوس أنهم قد شعروا بالملل من اللعبات المعروفة فى فناء المدرسة . . استغرق « جونيوس » فى التفكير وقال لروبر :

ـ لعبة التجسس جذَّابة . . أذكر أنا كنا نحبها .

ـ وعلى مَنْ نتجسس ؟

ـ لافرقَ ، يمكنكم التجسس على مَنْ تريدون .

وذهب « روبر » إلى المدرسة متحمساً . . وبعد ظهر هذا اليوم كان قد شكل « م . م . ص . أ . ت . ع . ى . » وهى الحروف الأولى لمكتب المخابرات الصبيان الاحتياطى للتجسس على اليابانيين .

كان اسم هذه المنظمة وحده كفيلاً بأن يجعلها تبدو كقوة لها وزنها .

أخذ « روبر » الأطفال واحدًا بعد الآخر إلى ظل شجرة فى فناء المدرسة ليُقْسموا على الكتمان ، وكأنهم يُنْشِئُونَ حزباً حقيقيًا .

اجتمع « روبر » مع الأولاد وأخذ يشرح لهم أن « أمريكا » ستحارب اليابانيين بالتأكيد ، وعلينا الاستعداد بالمعلومات التى يمكننا بها مساعدة بلادنا إذا قامت الحرب .

اجتذبت الجميع هذه العبارات الخطرة ، وهذا المنطق الجاد ، وأصبح التجسس موضع اهتمام المدرسة بأسرها . . وقد سبب هذا المتاعب

لتاكاش كاتو الطالب اليابانى فى الصف الثالث ، فقد خضع لمراقبة دقيقة، فلم يقض لحظة واحدة على انفراد ، وحتى بعد عودته لمنزله كان خمسة أولاد على الأقل يتسللون خلفه ، غير أن « مستر كاتو » أطلق النار فى الهواء عندما لاحظ وجهًا يتطلع من نافذة بيته ذات ليلة . . واضطر «روبر» لدعوة أفراد المنظمة وأمرهم بالتوقف عن التجسس ليلاً . .

ولم يُعَانِ « تاكاش كاتو » لمدة طويلة من المراقبة التى يتعرض لها ، فقد اضطروا أَلاَّ يتركوه ، بل صاحَبَهُم فى كل رحلة ، ودُعِى إلى كل مكان يذهبون إليه .

كانت ضربة قاضية عندما قدم « تاكاش » طلباً للانضمام للمنظمة التى يعلم بوجودها .

وشرح له « روبى » :

لا يمكن أن تضم إلينا . . فنحن عمل ضد اليابانيين .

كاد « تاكاش » يبكى :

ـ لقد ولدتُ مثلكم هنا ، وأنا « أمريكى » مثلكم تماماً ، أليس كذلك ؟

وفكر « روبر » . . لم يكن يريد أن يقسو على « تاكاش » . . ثم ابتسم قائلاً :

ـ هل تتكلم اليابانية ؟

ـ طبعاً وأجيدها تماماً .

ـ تستطيع أن تعمل معنا مترجماً ، وأن تقوم بترجمة الرسائل السرية .

وبدت السعادة على وجه « تاكاش » وقال :

ـ من المؤكد يمكننى القيام بذلك . . ويمكن أيضاً أن نتجسس على والدى ، ولكن المنظمة انهارت . . فلم يكن هناك من تتجسس عليه غير «مسز كاتو » أما « مستر كاتو » فكان عصبيًّا جدًّا ، يستخدم بندقيته كثيرًا .

مر عيد « هالروين » وعيد الشكر . . وظهر تأثير « روبر» على الأولاد بازدياد ما يعرفونه من مفردات لغوية كثيرة ، وكرههم لارتداء الثياب الجميلة والأحذية . . وأرسى « روبر » ـ دون أن يقصد ـ فكرًا جديدًا يعتبر أن الملابس الجميلة ليست من صفات الرجولة .

وبعد ظهر يوم جمعة كتب « روبر » أربع عشرة مذكرة ووزعها سرًّا فى فناء المدرسة ، وقد جاء فى هذه المذكرات المتشابهة : « يخطط كثير من الهنود لإحراق رئيس الولايات المتحدة فى العاشرة غدًا فى منزلى . . تسللوا إلى هناك وَاعْوُوا مثل الثعالب فى حقلنا ، سوف ألحق بكم وأقودكم لإنقاذ المسكين» .

أثارت أخبار وقصص « جونيوس » اهتمام « مس مورجان » ، فقررت أن تقوم بزيارة لهذه الأسرة ، خاصة بعد معرفتها بابنه وتأثيره على الأولاد ، إلى درجة أن ولدًا مشهورًا بالغباء حكى لها أن « هنجست » و « هورسا » قاما بغزو إنجلترا . . ولما تعجبت من إلمامه بهذه الملعومات أخبرها أن «جونيوس موليتى » أخبره بها . وأضحكتها كثيرًا قصة العَنْزِ التى اشتراها لتغذية طِفْلِه ، لدرجة أنها كتبتها وأرسلتها إلى إحدى المجلات . . وأجلت «مس مورجان » لعدة مرات زيارتها لمزرعة « موليتى » . . وذات صباح من شهر ديسمبر على الرغم من سطوع الشمس فإن الهواء كان شديد البرودة ، وبعد تناولها الإفطار ارتدت ملابسها وغادرت المنزل .

تقع « موليتى » على بعد ميلين . . كان الجو باردًا ولم تكن الشمس قد ارتفعت فوق الجبل بعد . . عرفت « مس موجان » مزرعة « موليتى » من حواجزها المنحنية من وطأة النباتات الطفيلية والأغصان العارية لأشجار الفاكهة . قفزت السناجب والأرانب تحت قدميها . وطارت حمامات رقيقة الصوت ورفرفت بأجنحتها . . كان الهدوء يخيم على المكان ، فبدا وكأنه مهجور من مائة عام . . قالت فى نفسها : « كم هو جميل ومهما هذا المكان» .

كان لون المبانى قد استحال رماديًّا بفعل الزمن والجو . . دخلت « مس مورجان » إلى فناء المنزل من بوابة متهدمة ، وجمدت فى مكانها وقد انفرجت شفتاها من الذهول ، فقد رأت عجوزًا مهلهل الملابس مربوطًا فى عمود فى وسط الفناء وأمامه رجل أصغر سنًّا فى ملابس أكثر تمزقاً يقوم بتكديس العشب عند قدمى أسيرٍ . ارتجفت « مس مورجان » وتراجعت إلى الوراء ، وراحت تردد فى نفسها :

« لا يمكن أن يحدث ذلك . . أنت تحلمين . . لا يمكن أن يحدث ذلك » واستمعت إلى حوار بين الرجلين :

قال الجلاد :

ـ الساعة تقترب من العاشرة .

أجاب الأسير :

ـ نعم . . انتبه وانظر كيف تشعل النار فى العشب ، وتأكد من أنهم قادمون قبل أن تشعله .

كادت « مس مورجان » أن تصرخ ، وتقدمت ببطء إليهما ، فالتفت

إليها الرجل الطليق ورآها ، فظهرت عليه الدهشة ، ولكنه تمالك نفسه بسرعة وانحنى لها . . كانت انحناءة ساحرة ، وساحرة أن تصدر من مثل هذا الرجل الملتحى ذى الملابس المهلهلة .

قالت « مس مورجان » :

ـ أنا مُدَرِّسة المدرسة ، خرجت للنزهة فرأيت هذا المنزل ، وتصورت للوهلة الأولى أن الإعداد للحرق حقيقى .

ابتسم « جونيوس » وقال :

ـ ولكنها حقيقية فعلاً . . لقد تصورت أنك النجدة التى ستأتى فى العاشرة .

وسمع فجأة عواء الثعالب تحت المنزل بين شجر الصفصاف ، فقال «جونيوس » :

ـ أسف يا « مس مورجان » هذه هى النجدة . . أنا « جونيوس موليتى» ، أما هذا الرجل فهو فى الأحوال العادية « جاكوب شتوتز » . . أما هذا فهو رئيس الولايات المتحدة الذى يحرقه الهنود . . وقد فكرت فى أن أجعله الجنرال الإسكتلندى « غوينفير» و ولكنه يصلح كرئيس أفضل .

قال « الرئيس » المقيد إلى مكان الحريف :

ـ اللعنة على هذا الجنون !

ضحكت « مس مورجان » وقالت :

ـ هل أستطيع مراقبة النجدة يا مستر « موليتى » ؟

ـ أنا لست مستر « موليتى » . . أنا الآن ثلاثمائة هندى .

عاد عواء الثعالب يتردد ، وقال الثلاثمائة هندى للمدرسة :

ـ اذهبى إلى السلم ، فلن يعتقدوا أنكِ هندية وسيقتلونك هنا .

أشعل « جونيوس » عود ثقاب وأشعل الأعشاب ، وارتفع اللهب بين أشجار الصفصاف . . وانطلق الأولاد وهم مسلحون بأسلحة تشبه أسلحة الفرنسيين عندما اقتحموا سجن الباستيل . . وما كاد اللهب يرتفع نحو الرئيس حتى أخذ المنقذون يحلون الحبال ويطفئون النار بسرعة ، ووقف « جاكوب » حُرًّا سعيدًا . . لم يكن الاحتفال الذى أعْقَبَ ذلك أقل من عملية الإنقاذ جمالاً . . فأخذ الرئيس يتنقل بين الأولاد وهم يؤدون التحية ، ويُعَلق على صدر كل منهم قطعة رصاص محفور عليها كلمة «بطل » . . وانتهت اللعبة .

وأعلن « روبر » :

ـ السبت القادم سنقوم بشنق الأشرار المذنبين مرتكبى هذه المؤامرة الدنيئة . هتف الأولاد :

ـ لنشنقهم الآن

ـ لا . . هناك أمور كثيرة يجب تجهيزها . . يجب إعداد المشنقة .

كان هذا اليوم من أجمل أيام « مس مورجان » ، وعلى الرغم من أن موقعها كان مُمَيَّزًا فوق فرع شجرة الجميز فقد أصبحت علاقة الأولاد بها أقوى من مجرد كونها مُدَرِّسَة .

قال « روبر »

ـ أليس لطيفًا لو خلعْتِ حذاءك ؟ تأكدت « مس مورجان » من ذلك عندما خلعت حذاءها ، وأدلت بقدميها فى الماء .

فى الغروب حكى « جونيوس » للأولاد عن آكلى اللحوم البشرية ، وحكاية صُنع المكرونة ، واكتشاف النحاس وأخيرًا عاد الأولاد إلى منازلهم ، وسمحت لهم « مس مورجان » أن يسبقها ، فقد كانت تريد أن تفكر فى هذا الرجل الغريب بهدوء .

ترقبت المدرّسة وتلاميذها باهتمام بالغ يوم زيارة مجلس إدارة المدرسة . كان هذا اليوم يوماً تسوده الرسميات والاضطراب . . كان شرح الدروس يتم بقلق ، والخطأ فى الهجاء يُعامَل على أنه جريمة عظمى .

كان ذلك اليوم من الأيام الصعبة للتلاميذ والمدرِّسة . . بعد ظهر يوم الخامس عشر من ديسمبر جاء أعضاء مجلس الإدارة لزيارة مدرسة « مراعى الفردوس » . اصْطَفُّوا وقد بدا الجمود على ملامحهم كأنهم مشيعو جنازة . دخلوا المدرسة بعد الغداء مباشرة وفى مقدمتهم « جون وايتسايد » العجَوز الذى تعرض لا نتقادٍ من أهل الوادى ، نظرًا لتساهله فى عملية التعليم . وجاء بعده فى الصف « بات همبرت » ـ الذى انتخب بناءً على إرادته . . فقد كان رجلاً وحيدًا يسعى لأى فرصة تقربه من الناس . . كان يرتدى ملابس غامقة وعادية كملابس التمثال البرونزى للنكولن فى واشنطن ، وجاء بعدهما « ت . ب آلن » الذى كان من حقه الاشتراك كعضو فى مجلس الإدارة ، لأنه التاجر الوحيد فى الوادى ، وتلاهم « ريموند بانكس » المرح الضخم ، ذو اليدين والوجه الأحمر ، أمّا آخر من دخل فكان مضطرباً بعض الشىء وهو يتبع الأعضاء الآخرين إلى مقاعدهم فى صدر القاعة .

جلس أعضاء مجلس الإدارة فى تَعالٍ ، فى حين جلست زوجاتهم فى اوأخر القاعة وراء الأولاد الذين شعروا بالحصار والطريق المسدودة للهرب ،

ولما التفتو ا إلى الوراء كانت السيدات يبتسمن لهم . . ورأوا لفة ورق على ركبتى « مسز مونرو » .

بدأ الدرس ، فرحبت « مس مورجان » وهى تبتسم بارتباك بمجلس إدارة المدرسة وقالت :

ـ أعتقد أيها السادة أنكم مهتمون بمشاهدة كل شىء على طبيعته فى المدرسة ، لذلك سيبدو كل شىء عاديًّا .

شعرت بالأسف ،فلم تشاهد فى حياتها أولادًا على هذا القدر من الغباء . . توالت الأخطاء الشنيعة المخيفة فى الهجاء والحساب والقراءة ، والتى كانت تشبه هذيان مجنون . . وعلى الرغم من تملُّك أعضاء مجلس الإدارة لوقارهم فإنهم لم يتمكنوا من منع أنفسهم من الابتسام ، وابتسمت السيدات فى الخلف بعصبية ، وتصورت « مس مورجان » أن مجلس الإدارة سيقوم بالاستغناء عنها .

وقام « جون وايتسايد » وقال :

ـ شكرًا « مس مورجان » . . أستأذنك فى بعض الكلمات للأولاد ، ثم يمكن السماح لهم بالانصراف بعد أن تحملونا هذا الوقت . . وتنفست المدرسّة الصعداء وقالت :

ـ أنا سعيدة لأنكم قدرتم أن الأولاد لم يكونوا على مايرام ، وفى غير حالتهم الطبيعية .

ابتسم « جون وايتسايد » ، فكثيرًا ما شاهد هذا الاضطراب ، ثم تحدث خمس دقائق إلى الأولاد ونصحهم بالاستذكار كثيراً ، والشعور بالحب تجاه

مدرستهم .. وكانت هذه نص الكلمات التقليدية التى يرددها منذ سنوات، وتكرر سماعها لدى التلاميذ الكبار ، وسُمح للتلاميذ بالانصراف، فخرجوا فى هدوء ، وما إنْ أصبحوا فى الهواء الطلق حتى عبروا عن ارتياحهم بالصياح والاستغراق فى اللعب فى معارك وهمية بسكاكين وسيوف خيالية .

صافح « جون وايتسايد »« مس مورجان » وحياها برقة قائلاً :

ـ لم نر مدرّسة حافظت على نظام المدرسة أكثر منكِ .. وأعتقد أنكِ لاتعلمين مدى حب الأولاد لكِ .

أجابت :

ـ إنهم أولاد طيبون .

سأل « جون وايتسايد » :

ـ وما أحوال « موليتى » الصغير ؟

ـ مجتهد وعلى درجة عالية من الذكاء .

ـ لقد تشاورنا بخصوصه فى مجلس الإدارة ، وقد أبدينا اهتمامنا به فى زيارتنا بشكل خاص تعرفين طبعًا أن حياته فى المنزل ليست على مايرام .

أحست « مس مورجان » أنها تريد الدفاع عن « موليتى » فقالت :

ـ يسكن منزلا غريباً ، لكنه ليس سيئاً .

ـ لا تُسيئى فهمى يا « مس مورجان » .. إنما أردنا منحه بعض الأشياء . تعرفين أنه فقير جدًّا ، ولقد اشترت له « مسز مونرو » بعض الملابس ، فهل تناديه حتى تعطيها له ؟

ردت قائلة :

ـ أُفضل ألاَّ تفعلوا ذلك ، فهو ولد ذو كبرياء .

ـ لِمَ لا . . اشترينا له بضعة قمصان وبنطلونات وبعض الأحذية ، فالطقس بارد ومن غير اللائق أن يظل حافيًا فى هذا الوقت من العام ، فالجليد يغطى الأرض كل صباح ، ومن غير المعقول أن يحرجه امتلاكه لثياب مناسبة .

قالت المعلمة بيأس : أُفَضِّل ألاَّ يحدث ذلك .

ـ أعتقد يا « مس مورجان » أنك تبالغين ، أرجوك استدعيه فوراً .

جاء « روبر » . . كان شعره يتدلى على وجهه ، وعيناه تلمعان من تأثير اللعب فى فناء المدرسة . . نظر إليه الجميع فى رقة وهم يحاولون تلافى النظر إلى ملابسه الممزقة ، فى حين أخذ هو يحملق فيهم بارتباك .

قالت « مس مورجان » :

ـ « مسز مونرو » ستعطيك أشياء لك يا « روبر » .

تقدمت « مسز مونرو » وأعطته اللفة التى معها ، فوضع « روبر » اللفة على الأرض بعناية ، ووضع يديه خلف ظهره .

قال « ت . ب . آلن » :

ـ افتحها يا « روبر » . . هل يروق لك هذا الذوق ؟

نظر إليه « روبر » بنفور ، وحل عقدة الخيط فانفردت القمصان والبنطلونات أمامه . . ونظر إليهم دون أن يفهم ، وفجأة أحمرَّ وجهه بشدة

وكأنه فهم كل شيء ، ثم جرى نحو الباب تاركاً كومة الملابس على الأرض، واختفى . وسألت « مسز مونرو » المدرسة :

ـ ماذا به ؟

قالت « مس مورجان :

ـ شَعَر بالحرج .

ـ لماذا ؟ لقد تعاملنا معه بلطف بالغ .

حاولت المدرسة أن تفسر لهم ما حدث وهى حانقة عليهم

ـ كان يعرف أنه فقير .

قال « جون وايتسايد » :

ـ آسف يا آنستى . . أنا السبب .

وسأل « بيرت مونرو » :

ماذا يمكننا أن نفعل من أجله ؟

قالت « مسز مونرو» لزوجها :

« بيرت »، من الأفضل أن تذهب وتتحدث مع « مستر موليتى » فى الأمر، على أن يكون ذلك بلطف . . انصحه بأنه لا يجب سير الأطفال حُفَاةً على الجليد ، فقد تفيد هذه النصيحة وتجعله يقنع ابنه بقبول الملابس ، مارأيك يا « مستر وايتسايد » ؟

ـ عليكم أن تقروا جميعاً ذلك وتسجلوا اعتراضى على القيام بهذه المهمة ، فقد تسببنا فى إحراجه بما فيه الكفاية .

أصرت « مسز مونرو » :

ـ أعتقد أن صحته أهم من مشاعره .

بدأت المدرسة إجازة عيد الميلاد من ٢٠ ديسمبر ، وقررت « مس مورجان » تمضية إجازتها فى « لوس أنجلوس » وبينما كانت تقف لا نتظار سيارة تحملها إلى « ساليناس » لَمَحَتْ رجلاً وصبيًّا يرتديان ملابس رخيصة جديدة ويقفان على طريق « مراعى الفردوس » بجانبها . . وعندما اقتربا منها تعرفت عليهما ، كانا « جونيوس » وابنه « روبر » الذى بدا حزيناً تعيساً . . فقالت :

ـ « روبر » . . إلى أين ؟ ماذا بك ؟

قال الرجل :

ـ إلى « سان فرانسيسكو » يا « مس مورجان » .

كان « جونيوس » دون اللحية ، وبدا كما لو كان كبيرًا فى السن ، حتى عينيه بَدَا عليهما الذبول والعجز .

كان « جونيوس » فاتح اللون ، لأن لحيته قد منعت عنه حرارة الشمس ، وكانت الحيرة مرتسمة على وجهه . فسألته :

ـ هل تسافران لتمضية العيد ؟ أنا أحب محلات المدينة فى أثناء عيد الميلاد . . ولا أملُّ مشاهدة واجهات المحلات فى العيد .

أجاب « جونيوس » ببطء :

ـ لا أعتقد أننا سنقيم هناك ـ باستمرار . . فأنا مُحاسِب . . أو بالدِّقة كنت مُحاسِباً منذ عشرين عاماً . . وسأسعى لإيجاد عمل .

كان الألم واضحاً على كلماته ،

فسألته : ـ ولماذا تترك هنا ؟

أجاب جونيوس :

ـ لم أكن اعتقد أننى أُسىء هنا إلى الصغير ، ولم يخطر على بالى ذلك قط . . كان علىَّ أن أُدرك أنه يجب ألاَّ ينشأ فى هذا الفقر . . هل تفهمين ذلك ؟ لم أكن أعرف ما يقوله الناس عنا .

ـ لماذا لا تبقَى فى المزرعة ؟ إنها أرض خصبة .

ـ لكننى لا أفهم شيئاً فى الزراعة . . سيحاول « جاكوب » العمل فى المزرعة . . ولكنه كسول . . وبعد فترة سأبيع المزرعة لأوفر لروبر بعض ما حُرِمَ منه .

حزنت « مس مورجان » وأوشكت على البكاء ، وقالت له :

ـ هل يؤثر فيه رأى الحمقى ؟

ـ طبعًا لا . . ولكن لا يجوز تربية الولد هكذا ، أليس كذلك ؟

ظهرت السيارة على الطريق واقتربت منهم ، فأشار « جونيوس » إلى « روبر » وقال :

لم يكن يريد المجىء . . أمسكنا به أناو « جاكوب » ليلة أمس بعدما هرب منا واختبأ فى التلال . إنه لا يعرف كم ستكون الحياة جميلة فى « سان فرانسيسكو » .

توقفت العربة ، وصعد « جونيوس » و « روبر » إلى المقعد الخلفى . .

وأوشكت « مس مورجان » أن تجلس بجوارهما ، ولكنها قررت فجأة الجلوس بجانب السائق ، وقالت لنفسها :

« لابد أنهما يفضلان الانفراد »

7

7

لم يترك « نورمو لوبيز » عند وفاته لا بنتيه الصغيرتين إلاَّ أربعين فداناً على سفح الجبل من الأرض الصخرية التى لا تنبت إلا الأشواك ، وكانت الفتاتان تسكنان بيتاً صغيراً من الألواح الخشبية ، و يتبع البيت بئر وحظيرة، وقد فشلت مجهودات الفتاتين فى زراعة بستان صغير كجزء من هـــذه الأرض ، غير أنهما استطاعتـــا زراعة قليل من الخضراوات والبقول لا يكفى لطعامهما . . كانتا بدينتين مرحتين ، وذات يوم سألت « روزا » أختها «ماريا » :

ـ ألسنا أمهر صُنَّاع الفطائر فى هذا الوادى ؟

فأجابت « ماريا » بتأثر :

ـ ورثنا هذه المهارة من أمنا رحمها الله .

قالت « روزا» :

ـ إذاً فهناك حل . . سنقوم بطهى ثلاثة أنواع من الفطائر ونبيعها إلى سكان « مراعى الفردوس » .

قالت « ماريا» وهى تشكك فى إمكانية ذلك :

ـ هل تظنين أنهم سيُقبلون على فطائرنا ؟

فردت :

ـ اسمعى يا « ماريا » . . لا يرقى مستوى الأماكن التى تبيع الفطائر فى « مونتيرى » إلى مستوى جودة فطائرنا . . ومع ذلك فعلامات الثروة والغِنَى بادية عليهم وعلى ملابسهم الجديدة . . لا يمكن أن نقارن فطائرهم بفطائرنا . . فَذِكْرى أُمنا دائماً فى بالى .

دمعت عينا « ماريا» لما أعتمل بداخلها من مشاعر ، وقالت بحماس :

ـ لايمكن مقارنة ما يصنعه هؤلاء الباعة بما نصنعه نحن . . فليس فى الدنيا كلها مثل الفطائر التى كانت تصنعها أُمنا بيدها الطاهرة .

فقالت « روزا » :

ـ بما أنها جيدة فسيُقبل الناس عليها .

بعد أسبوع واحد من هذا الحوار استغرقت الفتاتان فى الاستعداد للتنظيف والديكورات ، ولما أتمتا عملهما ، كان بيتهما الصغير قد ارتدى رداءً أبيض من الخارج والداخل ، ووزعت الورود عند مدخل البيت ، وتم جمــع النباتات الذابلـة ، وما تراكم من أتربة على مر السنين و أُحرقت ، وجهزت الغرفة الأمامية للمنزل كمطعم به مائدتان عليهما مفرشان من المشمع الأصفر اللون ، وُعلقت لوحة خشبية كُتب عليها :

« عندنا ثلاثة أنواع من أشهى الفطائر ، وبعض الطعام على الطريقة الإسبانية »

كان الإقبال قليلاً جدًا فى بادىء الأمر . . وكانت الأختان تجلسان فى انتظار الزبائن ، وما إن يدخل أحدهم حتى تقف الفتاتان كالطفلتين

المرحتين لا ستقباله بابتسامة وسرور ، وكانتا تشمران أكمامهما حتى يظهر بياض بشرتهما الرائق دلالة على عدم انتمائهما للهنود . ولكن قلة الزبائن سببت المتاعب الكبيرة للأختين ، فلم تتمكنا من إعداد كمية كبيرة من الفطائر حتى لا تفسد إذا بقيت مدة طويلة . . ولاعتماد الفطائر على اللحم الطازج ، كانتا تصطادان الطيور والأرانب داخل الأقفاص لحين الحاجة إليها .

طلبت « روزا » من أختها « ماريا » ذات صباح أن تجهز الجواد لتشترى قليلاً من الذرة من « مونتيرى » ، على أمل أن تتحسن الأحوال ، فتشترى الكثير .

وقالت وهى تُعطى أُختها قطعة نقود فضية :

ـ إذا تبقَّى معكِ شيء فأحضرى لنا قطعة حلوى كبيرة .

ذهبت « ماريا » وعندما عادت فى المساء وجدت أختها هادئة بصورة غريبة ، فلم تصح وتلح فى الاستماع إلى تفاصيل الرحلة ، بل ظلت جالسة تفكر بعمق . . اقتربت منها « ماريا » وقالت :

ـ اشتريتُ الذرة بثمن رخيص جدًّا . . وهذه هى الحلوى التى طَلَبْتِها من النوع الكبير ، بأربعة سنتات فقط .

مدت « روزا » يدها إلى الحلوى وأخذت تأكلها وهى شاردة ، وجلست «ماريا » بالقرب منها تبستم لها فى رقة ، ولكن « روزا » جلست جامدة كالصخر وهى تأكل الحلوى ، وفجأة نظرت إلى « ماريا » وقالت بتجهم :

ـ منحتُ نفسى اليوم لأحد الزبائن .

أخذت « ماريا » تبكى من شدة الحزن ، فى حين أكملت « روزا » حديثها :

ـ أنتِ مخطئة إذا تصورتِ أنى حصلت على ثمن ذلك . . ولكن الرجال تأكل ثلاث فطائر . . ثلاث دفعة واحدة .

فانفجرت « ماريا » تبكى وتولول كالأطفال . فهزتها « روزا » قائلة :

ـ كُفِّى عن البكاء والعويل . . ماذا كان يمكننى أن أفعل . . علينا اجتذاب الزبائن ، إذا أردنا النجاح .

استجمعت « ماريا » شجاعتها وقالت لأختها :

ـ أظن أن أمنا سترتاح ، إذا طَلَبْتِ المغفرة من أمنا العذراء والقديسة «روزا » . . لتهدأ روحك .

فأبتسمت « روزا » ابتسامة عريضة وعانقت أختها :

ـ فعلتُ ذلك فعلاً . . فلم يكد ينصرف حتى ركعت أطلب الغفران . جرت « ماريا » إلى غرفة نومها وركعت تحت صورة السيدة العذراء المعلقة على جدار الحائط ثم قامت وأرتمت فى حضن أختها وهى تصيح بسرور :

ـ « روزا » ، سأقوم باجتذاب الزبائن أيضاً .

كان هذا اليوم بداية تحول فى حياة الفتاتين ، برغم أن العمل لم يزدهر كثيرًا ، ولكنه كان يكفى لتغطية متطلباتها من مأكل ملبس . . ولقد التزمت الفتاتان بالتدين والورع . . فعند كل خطيئة كانت كل منهما تصلى طلباً للغفران عند تمثال العذراء . . كانت كل منهما تعترف بكل خطيئة أولاً بأول وبسرعة . . وكانت الأرض تلمع تحت تمثال العذراء من كثرة ركوع الفتاتين .

سارت حياة الأختين مرحة سعيدة . . فلم يكن هناك أى احتمال للمنافسة بينهما . . كانتا على شبه كبير . . « ماريا اكثر سمنة من « روزا » بعض الشىء و « روزا » أطول من « ماريا » بعض الشىء . امتلأ البيت بالضحك والسرور وصوت غناء الفتاتين وهما تعدان الفطائر بأيديهما الممتلئة القوية . . وكانتا تستغرقان فى الضحك المثير عندما ينطق أحد الزبائن بأى نكتة ـ وخاصة « توم بريان » ـ فقد كان فى رأيهما رجلاً غنيًّا لطيفاً جذاباً .

كانت الفتاتان لا تحصلان إلا على ثمن أطباق الطعام ، ولا يصح تصور أنهما كانتا تسرفان فى تشجيع الزبائن ، ولكنّ قلبيهما الرقيقين كانا يفيضان امتنانًا للزبون الذى يأكل ثلاثة أطباق فأكثر من طعامهما ، فهو فى هذه الحالة يستحق التشجيع . . عرض رجل من الرواد نقودًا على « روزا » لمقابل ما منحته فى ليلة مشئومة ، فقد كانت معدته تعجز عن التهام ثلاثة أطباق . . وصلت إلى سمع بعض الزبائن كلمات هذا العرض المالى ، فتوقف الكلام ، وساد المكان سكون مخيف . . خبأت « ماريا » وجهها بيديها ، وأصفرَّ وجه « روزا» من الغضب والانفعال ، واحمرَّتْ عيناها شررًا ، وخبطت بيديها الممتلئتين القويتين على ركبتها ، ولكنها ضبطت مشاعرها وتحكمت فيها وقالت :

ـ هذا العرض يعتبر إهانة لى . . فنحن تقريبًا أحفاد الجنرال « فاليجو » فهو شديد القرابة لنا ، وعروقنا تسرى فيها دماء نقية . ما الذى كان يمكن أن يصنعه الجنرال « فاليجو » إذا علم بهذه الإهانة ؟ كأنك تقول لنا «لسنا إلاَّ امرأتين شائنتين » كان لابد سيقبض على سيفه ليغسل هذه الإهانة بالدم .

أخذ الرجل يتمتم :

ـ لم أقصد ذلك يا « روزا » . . أُقسم أننى لم أقصد أى إهانة ، فهدأت ثورتها وأشارت بإحدى يديها إلى الباب وهى تقول بهدوء وجمود :

ـ انصرف . . فعلى الرغم من أننى لا أظن أنك قصدت الإهانة ، فإنها قد حدثت بالفعل .

وبمجرد انصرافه صاحت :

ـ والآن من يريد الطبق الخاص على الطريقة الإسبانية ؟ طعام لا نظير له فى العالم .

اعتادت الشقيقتان على أن تكونا سعيدتين . . وكانت « ماريا » الرقيقة الحلوة تزرع الزهور حول البيت والسور . . ومن « ساليناس » اشترت كل من الأختين قبعة مصنوعة من الشرائط القرنفلية والزرقاء أشبه بعش العصافير المقلوب ، وكانتا تسيران بها فى منتهى السعادة . . نظرت كل منهما إلى الأخرى وقد جال بخاطرها أن هذه الفترة من أسعد فترات عمرهما .

تمنيتا لهذه السعادة الدوام ، وقدمت « ماريا » لتمثال العذراء آنية كبيرة مملوءة بالزهور . وفى الواقع لم يكن هناك ما يدعو لهذه المسحة من التشاؤم .

اشترت «ماريا » فونوغرافاً ومجموعة أسطوانات للتانجو والفالس ، كانتا تصنعان الفطائر على أنغامه .

وبدأت الهمسات حول سلوك الشقيقتين تتردد فى وادى « مراعى

الفردوس » بين النساء اللاتى يَتَعَامَلْنَ مع الأختين بفتور ، وما من أحد يعرف كيف نما إلى علمهن أخبار الفتاتين ، فليس من المعقول أن يكون أزواجهن قد حكوا لهن ، ولكن النساء دائماً تعرف كل شيء .

وفى صباح يوم سبت أحضرت « ماريا » سرج الحصان القديم المرتق ووضعته على ظهر حصانها « ليندو » الهزيل ، وعندما أكملت ربط السرج واللجام نظرت إليه بحزن ، فقد بلغ الحصان الكبر ، وقالت له مشفقة :

ـ سنسير على مهل . . لا تخف يا « ليندو » ، فالمسافة ليست بعيدة .

لم يكن « ليندو » يخاف الرحلة إلى مونتيرى فقط ، بل كان يكرهها وينفر منها أيضاً . ارتقت « ماريا » العربة التى مالت بصورة مخيفة وصاحت فى الحصان وهى تضرب ظهره :

ـ هيا يا « ليندو » . . سنذهب إلى « مونتيرى » لشراء بعض المستلزمات .

انتفض الحصان وأدار رأسه نحوها ولم يتحرك ، فقالت له غاضبة :

ـ قلت يجب أن تسير . . أنا غاضبة منكَ .

وأخذت تشد اللجام وتضرب ظهره بعنف .

خفض « ليندو »رأسه إلى الأرض كما تفعل الكلاب وهى تقتفى الأثر، خرج ببطء . . كان عليه أن يسير تسعة أميال ذهاباً ومثلها فى العودة ، ولأن « ليندو » كان يعرف ذلك فقد كان ساخطاً . . أما « ماريا » فقد راحت تغنى بعض أنغم التانجو بعد أن زال غضبها وتبخر حزمها .

كانت التلال تتلألأ بما عليها من الندى ، وكانت رئتا « ماريا » تمتلئان هواءً نقيًّا منعشاً ، فانتعش صوتها ، وعلا صوتُها بالغناء .

وأطلت « ماريا » فإذا برجل يسير فى الطريق على البعد ، وقبل أن تصل إليه بعربتها ، عرفت مشيته المتناقلة أنه « آلن وينكر » أقبح رجال الوادى وأشدهم خجلاً .

كان « آلن وينكر » يشبه القرود فى مشيته وهيئته ، حتى أن الصبية إذا أراد أحدهم إهانة صاحبة أشار إلى « آلن » وهو يقول : هذا أخوك . أما «آل » فقد حاول بإطلاق لحيته إخفاء جهه ، ولكن الشعر الخشن الأشعث نما فى غير المطلوب ، فزاد من قُبح هيئته .

وقد قبلت زوجته الزواج منه لأنها بلغت سبعاً وثلاثين عاماً . ولأن للغيرة ضرورة كبيرة فى حياتها ومشاعرها فقد أخذت تؤلف القصص عنه وتحكى لجيران عن جُـرأته مع النساء ، ومغامراته وآثامه الغامضة ، من كثرة ترديد هذه القصص الوهمية صدقتها فى حين سخر الجيران منها ، إذ لا يوجد فى « مراعى الفردوس » من لا يعلم مدى خجل هذا الرجل القبيح .

تعثر الحصان بجانب « وينكر » ، فشدت « ماريا » اللجام . كان «ليندو » جوادًا ، قويًا ، جامحاً .

صاحت ماريا :

ـ قف يا « ليندو » .

كان أقل شد للجام كفيلاً بتوقف الحصان طلباً للراحة من السير . ألقت « ماريا » التحية على « آلن » بلطف :

ـ صباح الخير .

فابتعد « آلن » خجلاً على جانب الطريق وهو يتكلف النظر إلى سفح الجبل ، أجاب باقتضاب :

ـ صباح الخير

قالت « ماريا » : أنا ذاهبة إلى « مونتيرى » هل تود الركوب ؟

أخذ « آلن » ينظر للغيوم وقال :

ـ لست ذاهباً إلا إلى الموقف العمومى للسيارات .

ـ مسافة قصيرة . . من الأفضل أن تكون راكباً .

ـ حاول الرجل اتخاذ قرار ، ثم ارتقى العربة وجلس إلى جوار « ماريا » التى أفسحت له مكاناً . . وأمرت الحصان بالسير ، فطأطأ برأسه وسار على مهل .

سارت العربة وخيم الصمت ، فبادرت « ماريا إلى الحديث قائلة :

ـ أذاهب فى رحلة ؟

نظر « آلن » إلى سنديانة كبيرة ولم يجب ، فقالت « ماريا » :

ـ لم أركب القطار فى حياتى ، ولكن « روزا » أختى ركبته مرة إلى « سان فرانسيسكو » ذهاباً وإياباً . . وقد سمعت عددًا من الأغنياء يمتدحون السياحة والسفر .

ـ أنا أيضاً لم أسافر إلا إلى ساليناس » .

ـ سافرت إليها كثيراً ، فأنا و « روزا » لنا فيها أفضل الأصدقاء ، هى بلدة أُمِّنَا ، وكان أبى يذهب إليها لبيع الأخشاب والحطب .

اجتهد « آلن » للتغلب على اضطرابه وقال :

ـ لم أتمكن من استعمال « الفورد » القديمة ، وإلاَّ كنت سافرت بها .

فقالت « ماريا » :

ـ هل تمتلك سيارة فورد ؟

ـ ليست إلا « فورد » قديمة .

ـ قررنا أنا وأختى امتلاك سيارة فورد ، وعندئذ يمكننا السفر إلى أماكن كثيرة . يقولون إن السفر مُمتع .

فى هذه اللحظة ظهرت سيارة فورد تتجه إليهما من أعلى التل ، وكأن المصادفة تؤكد الحديث عن السفر .

كانت السيارة الفورد يستقلها « بيرت مونرو » وزوجته . . تجاوزتهما السيارة . . ولكن « بيرت مونرو » ظل ينظر إلى « آلن » و « ماريا » وصاح ضاحكاً لزوجته :

ـ هل شاهدتى زئر النساء مع « ماريا لوبيز » ؟

ابتسمت زوجته ، فقال « بيرت » :

ـ ستكون دعاية طريفة أن نخبر « مسز وينكر » أننا رأينا زوجها هارباً مع « ماريا لوبيز » .

ـ لا تفعل ذلك يا « بيرت » .

ـ لكنها ستكون دعاية غاية فى الطرافة .

أثناء ذلك كانت « ماريا » مازالت تقود العربة ، وقالت لضيفها المنزوى :

ـ لماذا لا تأتى إلينا لتناول الفطائر . . فطائرنا لا مثيل لها ، علمتنا صنعها أُمنا التى بلغت شهرتها فى صنع الفطائر إلى « سان جوان » وأبعد منها ، وعرف الجميع أنه ليس هناك من يصنع الفطائر فى مهارتها ، فالفن فى صناعة الفطائر هو رقتها . . وأنا ذاهبة إلى « مونتيرى » لشراء الدقيق الذى يُباع هناك بسعر رخيص .

غاص « آلن » فى مقعده يتمنى سرعة الوصول إلى موقف السيارات .

شارفت الشمس على الغروب عندما عادت « ماريا » إلى البيت من «مونتيرى » . . كانت « ماريا » تضحك فى سرها متوقعة ثورة أختها ، عندما تعرف أنها اشترت أربع قطع من الحلوى بدلاً من اثنتين . . بل وزادت فى الإسراف واشترت لروزا رباطين للجورب من الحرير مزينين بوردتين حمراوين فى كل جانب . . وتصورت الرباط فى ساقى أختها . وصلت « ماريا » إلى المنزل وحلت « ليندو » من العربة ، فوجدت البيت غارقًا فى السكون ، ولم تكن هناك عربات تدل على وجود زبائن ، فأطلقت الحصان ، وحملت قطع الحلوى ورباط الجورب وسارت إلى المنزل ، فوجدت روزا جالسة فى صمت وملامح وجهها تعبر عن الحزن والألم ، كانت عيناها شاخصتين ووجهها متجهًا ولم تلتفت إلى « ماريا » .

قالت « ماريا » : لقد عدت يا « روزا » ؟

أدارت « روزا » وجهها ببطء وقالت :

ـ نعم .

ـ هل أنتِ مريضة يا « روزا »

أجابت أختها :

ـ كلا :

ـ لك معى هدية يا « روزا » .

نظرت « روزا إلى رباط الساق ، ولكنّ دمعتين انهمرتا من عينها .

ـ ماذا بك ؟ هل أنت مريضة ؟ يجب أن تخبرينى هل جاء أحد ؟

فأجابت « روزا » :

ـ نعم جاء الشريف مدير البوليس .

قالت « ماريا » :

ـ الآن اقتربنا من الغنى والثروة . . كم فطيرة أكلها ؟

عانقت « روزا » أختها وقالت :

ـ ياأختى المسكينة ، لا يمكنا من الآن بيع الفطائر وسنعود مرة أخرى للحرمان من الثياب الجديدة . .

لقد جاء الشريف ، ولكنه لا ليأكل من فطائرنا ، ليقول : « هناك شكوى ضدكما إنكما تديران بيتًا للدعارة » . . وعندما صرخت : هذا كذب وإهانة لأمنا وللجنرال « فاليجو » قال : « وصلتنى شكوى بهذا فإمّا أن تغلقا بيتكما ، وإما سأضطر للقبض عليكما بتهمة إدارة بيت للدعارة» . . فعدت للصراخ هذا كذب حين قال : « لا أستطيع عمل شىء فأنا فى خدمة الجمهور الذى أرسل الشكوى» .

وقعت الصدمة على « ماريا » التى ما إنْ أدركت فداحة المصيبة حتى انفجرت فى الكاء .

ـ كُفِّى عن البكاء يا « ماريا » . . لقد فكرتُ كثيرًا . . وأعتقد أنكِ تعلمين أنا سنجوع لو لم نبع الفطائر . . لقد اتخذت قرارى النهائى بالسفر إلى « سان فرانسيسكو » للعمل كامرأة ساقطة .

أطرقت « روزا » برأسها . . وتوقفت « ماريا » عن البكاء قالت برعب :

ـ من أجل النقود ؟

ـ نعم من أجل النقود . . والمال وأتمنى أن تغفر أمى خطيئتى .

فتركتها « ماريا » وجرت إلى تمثال العذراء ، وهى تصيح :

ـ لقد قدمتُ لكِ الشموع وكنت أضعُ الزهورَ أمامك كل يوم ، فما هو ذنبنا حتى تسمحى بما حدث ؟

وركعت على ركبتها تصلى ، ورسمت على وجهها علامة الصليب ، وكررت السلام على « مريم » خمسين مرة .

وقامت وقد ارتسم على وجهها العزم والتصميم .

دخلت « ماريا » الحجرة وقالت لروزا بصوت عال :

ـ « روزا » أنا أختك ، وأنا مثلك تماماً . . سأرافقك إلى « سان فراسيسكو» لأحترف نفس المهنة .

وراحت الأختان فى عناق طويل مصحوب بالبكاء والتهدات .

8

8

ظلت « مولى مورجان » فى انتظار سيارة نقل الركاب الكبيرة لمدة ثلاثة أرباع ساعة بعد وصولها بالقطار إلى محطة « ساليناس » فى طريقها إلى حقول الفردوس . . ولم يكن بالسيارة إلا السائق و « مولى » التى سألت :

ـ إنها زيارتى الأولى لحقول الفردوس ، فهل تبعد كثيرًا عن الطريق العام ؟

أجاب السائق :

ـ نعم ، حوالى ثلاثة أميال .

ـ وهل يمكننى العثور على سيارة تنقلنى إلى الوادى ؟

ـ لا ، فلابد أن يكون أحد بانتظارك .

ـ وكيف يصل الناس إلى هناك ؟

مرت عجلات السيارة فوق جسد أرنب برىّ ، وبدا السائق خائفاً ، وقال معتذرًا :

ـ لا أدهسها إلاَّ عندما تكون ميتة . إننى أحاول تفاديها دائماً وهى تنبهر بأضواء السيارة .

ـ ولكن . . ماهى الوسيلة التى تمكننى من الوصول إلى « مراعى الفردوس » ؟

ـ لا أدرى . . ولكن يمكنك أن تسيرى إلى الوادى كما يفعل معظم الناس الذين لا ينتظرهم أحد .

سارت « موللى مورجان » متجهمة الوجه بعد نزولها من السيارة عند بداية الطريق الجانبى القذر متجهة نحو الممر عبر التلال . . وقفت بجانبها سيارة نقل فورد قديمة وسألها سائقها :

ـ هل أنت ذاهبة إلى الوادى؟

ـ نعم . . نعم .

ـ إذاً . . اركبى ، ولا تخافى ، فأنا « بات همبرت » صاحب مزرعة فى الوادى . تفحصت « موللى » الرجل المتجهم وهى تقول :

ـ أنا المدرّسة الجديدة ، هل تعرف عنوانُ « مستر وايتسايد » ؟

ـ طبعاً . . فى طريقنا . . إنه أمين سر مجلس الإدارة . . وأنا أيضًا من أعضاء مجلس الإدارة ، وكنا نسأل ، على أى حال وسنجده . واحمرَّ وجهه وارتبك حين تحدث عن جوانب تمس شخصية « موللى » ، وَبرَّر ذلك بقوله :

ـ طبعاً . . أقصد كيف ستكون شخصيتك . . فالمدرسة السابقة قد أتعبتنا كثيراً . . كانت مُدرسةً جيدة ولكنها دائمًا مريضة وعصبية جدًّا . . وأخيرًا اضطرت إلى تركنا .

أمسكت « موللى » قفازها وهى تقول :

ـ فى رسالتكم قلتُم إنه علىّ الاتصال بالسيد « وايتسايد » ، ألاَ تجد أى محاذير فى التعامل معه ؟ أقصد : أى نوع من الناس هو ؟

ـ ستتفقين معه بسهولة . . فهو رجل طيب . . وُلد فى البيت الذى يعيش فيه الآن . . وتخرج فى الجامعة . . إنه رجل طيب ، وهو أمين سر مجلس الإدارة منذ أكثر من عشرين عاماً .

أنزلها أمام منزل مستر « جون وايتسايد » الكبير . شعرت بالرهبة ، وقالت لنفسها :

ـ ليس هناك ما يخيف .

كانت فى التاسعة عشرة من عمرها ، وكانت هذه المقابلة التى سيتوقف عليها أول وظيفة نقطة حاسمة فى حياتها .

سارت غير مطمئنة فى ممر ضيق طويل مملوء بأحواض الزهور المعتَنى بها بشدة ، وكأن زارعها قد أَمَرَ البذور بالنماء والتكاثر . . وكأن كل شىء بحساب وعناية ويد ماهرة تقود نمو الأزهار .

عندما وصلت « مولى مورجان » إلى منتصف الممر ، رأت البيت الكبير ونوافذه والشيش الخشبى الأصفر شبه المغلق لحماية الداخل من شمس الظهيرة ، وكانت شرفة المنزل الواسعة كأنها تود معانقة الزائر مرحبة . . على الرغم من درجات السلم الواسعة والباب الكبير فقد كانت شديدة الخجل وهى تضغط على الجرس .

فتحت الباب امرأة بدينة وابتسمت للزائرة قائلة :

ـ أرجو ألاَّ تكونى بائعة متجولة . . ففى هذه الحالة أشترى مالا أريد شراءَهُ وأندم بعد ذلك .

ـ ضحكت « مولى » على ما قالته « مسز وايتسايد » وانشرحت وقالت :

ـ لا ، أنا المُدرِّسة الجديدة ، وعلى موعد لمقابلة « مستر وايتسايد » . . هل يمكننى مقابلته ؟

ـ إنه مازال يتناول طعامه ، هل تناولتِ طعام الغداء ؟

ـ آه . . طبعاً . . أقصد لا .

ضحكت « مسز وايتسايد » وصارت معها إلى حجرة طعام واسعة بها مائدة مربعة تناثرت عليها أطباق زجاجية . . فقالت لها :

ـ يبدو أن « جون » قد انتهى من الطعام وترك الغرفة . . اجلسى وسأتى لكِ بالطعام حالاً .

ـ شكرًا . . سأتحدث إلى « مستر وايتسايد » وأنصرف .

ـ اجلسى . . فأنتِ بحاجة للطَّعام ثم مقابلة « جون » .

ـ هل هو شديد الحزم مع المدرسّات الجديدات ؟

ـ إن ذلك يتوقف عليهن . . فإذا كُنَّ لم يتناولن طعام الغداء فهو كالدب يصرخ فيهن ، أمَّا إذا كن قد انتهين من الطعام توًّا فهو قاس فقط .

ضحكت «مولى » وقالت :

ـ عندكِ أولاد . . طبعاً رَبَّيْتِ عددًا كبيرًا من الأولاد ، ولا شك أنكِ تحبينهم .

قالت « مسز وايتسايد » :

ـ الواقع أن طفلاً واحدًا قد رَبَّانى ، بل شَيَّبَ شعر جفونى ، وكان عبئاً أكبر من تحمُّلِه ، وهو الآن يربى البقر . . ولا أعتقد أننى نجحت فى تربيته .

ولما انتهت « موللى » من الطعام فتحت السيدة « وايتسايد » باباً جانبيًّا ونادت :

ـ هناكَ من يريد مقابلتك يا « جِون » .

وأشارت إلى « موللى » لدخول غرفة تشبه المكتبات . . بها رفوف مملوءة بالمجلدات السميكة المذهبة الجوانب ، ولكنها كانت كغرفة المعيشة أيضاً، على جوانبها أصص غريبة الشكل ، وقد عُلِّق غليون قديم على مسمار ، وتناثرت مقاعد جلدية مريحة فى أرجائها كلها من النوع الهزَّاز ، وأخيرًا كان هناك مكتب قديم جلس « جون وايتسايد » خلفه ، وعندما رفَعَ عينيه إليها رأت « موللى » أنَّ له أَزَقَّ عينين شهدتها فى حياتها ، وله أيضاً أنْصَعَ شيبٍ .

قالت بلهجة رسمية : أنا « موللى مورجان » .

ـ آه . . نعم يا « مس مورجان » ، كنتُ بانتظارِكِ . . تفضلى بالجلوس .

جلست « موللى » على أحد الكراسى الهزازة المريحة فأصدر صوتاً رقيقاً فقالت :

ـ أحب هذه الكراسى . كنا نملك عددًا منها وأنا طفلة .

واستطردت قائلة :

ـ جئت من أجل الوظيفة كما جاء بالرسالة .

ـ حسناً يا « مس مورجان » . . أَعْطنى بعض المعلومات عن شخصيتك وماضيك . أمَّا طلبى فهو أن تبذلى جهدك لتحقيق أثر طيب .

هزت « موللى » رأسها وحاولت أن تستعيد ذاكرتها ، فتذكرت بيتها . . كان متداعياً قديماً يحتاج إلى طلاء ، وخصوصاً الشرفة الخلفية الواسعة ، وأحواض الغسيل المستديرة . . وشقيقاها « جو » و « توم » على أعلى شجرة صفصاف يلعبان ويصرخان :« أنا نسر » أو « ببغاء » أو «دجاجة» . . ويُفتح باب المطبخ . . فتظهر أمها بشعرها المنكوش وعينيها الحمراوين دائماً ، ويداها تؤلمانها ، وكذلك معصماها .

وتصرخ الأم فى « توم » و « جو » : « ستتعرضان للأذى فوق الشجرة ، هيا انزلا »

وتنخفض الأصوات أعلى الشجرة إلى درجة الهمس ، أما « موللى » فكانت جالسة فوق التراب تمسك بيدها عصًا طويلة بخرقة بالية وتحاول تخيلها سيدة طويلة بملابس أنيقة . وتصيح فيها أمها : « هيا يا موللى » ساعدينى . . فأنا متعبة اليوم » . وتغرس « موللى » العصا فى التراب ثم تدخل البيت فى استسلام . كانت أمها تجلس على أحد كراسى المطبخ . وكانت « موللى » طفلة غير سعيدة ، تشعر أن أمها على وشك البكاء ، وعليها فى هذه الحالة أن تمر بيدها على شعرها المنكوش ، كانت هى وشقيقاها يحبون أمهم التى تفعل من أجلهم كُلَّ ما تستطيع .

عادت « موللى » إلى عالم الواقع وقالت للسيد « وايتسايد » :

ـ كنا فقراء . . بل فقراء بحق . . وكان شقيقاى أكبر منى سنًّا . . كان

والدى بائعاً متجولاً . . وكان على والدتى أيضاً أن تعمل ، وقد شقيت كثيرًا من أجلنا .

وعادت تسرح من جديد فى عالم الذكريات .

مرة كل ستة أشهر تقريباً يقع حادث عظيم بعودة الأب إلى المنزل ، فكانت الأم تتسلل بهدوء إلى غرفة النوم وقد رتبت شعرها بقدر المستطاع، وبرقت عيناها ، بدت عليها السعادة ، بل كادت تبدو جميلة ، وتهمس: أهْدَءُوا يا أولاد ، فوالدكم هنا . . ويخرج الأولاد من البيت إلى الحديقة ، وينتقل الخبر سريعا إلى الجيران . . وتمتلىء الحديقة بالأولاد هامسين :

ـ هل حقًّا عاد والدكم إلى البيت ؟ أين كان غائباً هذه المدة ؟

وعند الظهيرة تكون الحديقة قد امتلأت بالأطفال فى جماعات صغيرة ملتزمة بالهدوء ، وحوالى الظهر يفتح باب المطبخ بقوة حتى يضرب بحائط الشرفة ويطل والدهم صارخاً :

ـ مرحباً . . مرحباً يا أولاد .

وترتمى « مولى » وشقيقاها عليه يحتضنون ركبتيه فى حين يرفع الأبُ كُلاًّ منهم بدوره ويرميه فى الهواء ليعود فيلتقطه كما لو كان قطة صغيرة . . وكانت والدتهم تلف حولهم قائلة :

ـ يا أولاد . . انتبهوا إلى ملابس أبيكم .

ويرفع أولاد الجيران أيديهم بسعادة بالغة . . فقد كان هذا المشهد أجمل من أى عطلة . ويصرخ الوالد :

ـ انتظروا لتروا ما اشتريت لكم . . وبعد قليل من الهدوء يحمل الأب

حقيبته إلى الشرفة ويفتحها ، وتكون الحقيبة مملوءة بهدايا لم يرَ أحد مثلها من لعب ميكانيكية ، وحيوانات معدنية تزحف على الأرض ، وزنوج خشبية ترقص ، لوحات زجاجية بديعة ، وكان لكل شخص هدية أو أكثر . . وكانت عودة الأب تمثل جميع المناسبات والأعياد فى يوم واحد .

وكان « جورج مورجان » ـ والد «موللى » ـ يجلس أحياناً على السلم الشرفة ويتجمع حوله الأطفال مستمعين إلى مغامراته ورحلاته ، فيحكى عن رحلةٍ إلى المكسيك ، وأخرى إلى « هونولولو » ويحكى عما رآه ، فقد رأى البركان ، وركب الأمواج إلى الشاطىء على لوح خشبى عائم . . ويحكى عن أسماء مدن كثيرة وأشخاص كثيرين غريبى الأطوار ، وعن مغامرات ومئات من الأحداث الغريبة ، ولم يكن يستطيع أن يحكى لهم كل ذلك مرة واحدة . . فكانوا يستمعون إليه يوميًّا بعد المدرسة ليسمعوا المزيد والمزيد عن مغامراته حول العالم .

وعادت « مس مورجان » إلى الواقع ، وأكملت حديثها لجون وايتسايد .

ـ أما بالنسبة لحياتنا العائلية فلم أَحْظَ بوجود أبى معنا ، لأن رحلاته نادرًا ما كانت تسمح بوجوده بيننا .

هز « جون وايتسايد » رأسه ، فى حين دَمعَت عينا « مس مورجان» . . وعادت « موللى» للماضى :

ـ وذات مرة أحضر أبى معه كلباً صغيرًا وضعه فى صندوق ، فسأله «توم » :

ـ أى نوع من الكلاب هذا ؟

كان والدهم يبدو شابًا، وكأنه يصغر والدتهم بعشرين عاماً . . ضحك عالياً وقال : : « اشتريته بدولار ونصف . . وهناك أنواع كثيرة تُباع بهذا الثمن ، وكما يدخل أحدكم إلى محل حلوى ويشترى ما يريد . هكذا فعلت ، دخلت المحل وقلت : « أعطنى بدولار ونصف سحلباً مخلوطاً » ، اشتريته وهو لموللى ، وعليها أن تختار له اسماً .

فقال « موللى» : سأسميه « جورج » .

وانحنى والدها بطريقة غريبة وقال : « أشكركِ يا « موللى » ، ومع ذلك شعر الجميع أنه لم يكن يسخر منها ».

استيقظت « موللى » مبكرًا وصحبت معها « جورج » إلى الحديقة ليتعرف عليها ، وفتحت مخبأ كانت قد أخفت فيه درهمين وزرًا عسكريًا مذهباً ، ورفعت الكلب ليضع يديه الأماميتين على سور الحديقة الخلفى ليرى الشارع والمدرسة . . وتسلقت شجرة صفصاف حاملة « جورج » تحت إبطها . . وخرج « توم » من البيت وتلكأ تحت الشجرة صارخاً :

ـ احذرى أن يقع منكِ .

وفعلاً وقع الكلب الصغير من بين يديها وارتطم بالأرض الصلبة ، والتوت إحدى ساقيه بشدة ، فأخذ يصرخ صرخات عالية مفزعة ، فنزلت « موللى » مذهلة من فوق الشجرة ، وكان « توم » منحنياً عليه ، وقد اصفرّ وجهه ، فى حين كان الكلب يعوى ويصرخ .

بكى « توم » وقال : لا يمكن أن نتركه هكذا .

وأحضر من بين كومة الحطب بلطة ، وكان الذهول مسيطراً على «موللى» ، وأغمض « توم » عينيه وهوى بالبلطة ، فتوقف الصراخ فجأة !

رمى « توم » البلطة وقفز من سور الحديقة الخلفى وأخذ يجرى كأنَّ أحدًا يطارده ، وفى هذه اللحظة أطل والدها مع « جو » من الباب الخلفى . . تذكرت « مولى » كم كان وجه والدها شاحباً عندما نظر إلى الكلب .

وحكت لوالدها أن الكلب وقع منها من فوق الشجرة ، وضربه « توم » وهرب . كان صوتها حزيناً ، فحضنها والدها وقال :

ـ مسكين « توم » . . لا تذكرى ما حدث أمامه مرة أخرى يا « مولى » ولا تُذَكِّريه بما حدث ، ثم ألقى بكيس فارغ فوق الكلب الصغير . يجب أن نقيم له جنازة . . لقد حضرت جنازة فى الصين ، كان يُلقون بالأوراق الملونة ، ويفرقون الخنازير المشوية قرب القبر .

ورفعت « مولى » نظرها إلى « وايتسايد » وعادت إلى الواقع مرة أخرى ، وقالت :

ـ عندما كنت فى الثانية عشرة توفى والدى إثْـرَ حادث جرى له .

كانت هذه الزيارات تستغرق أسبوعين فى العادة ، وكان «جورج مورجان » يخرج إلى المدينة فى المساء ولا يعود إلا فى ساعة متأخرة . . وكانت والدتهم تجعلهم ينامون مبكرًا ،غير أنهم كانا يسمعونه عند عودته يتعثر بالأثاث ، وكانوا يسمعون صوته من خلال الحائط ، وكانت المرات الوحيدة التى يبدو فيها صوته حزيناً . . وكان الأولاد يعلمون أنه فى الصباح سيكون قد فارقهم ومعه قلوبهم .

كان والدهم فى نظرهم كالفارس النبيل الشجاع ، اجتمعت فيه جميع المزايا ، وكان الأولاد يقولون :

ـ عندما نكبر سنذهب معه ونرى كل شىء .

وكانت والدتهم تعود إلى تذمرها ، ويعود الاحمرار إلى عينيها بعد رحيله ، ومرة ذهب والدهم ولم يعد بعدها . . ظلوا لمدة عامين فى انتظاره ، ثم أخبرتهم أمهم أنه لابد قد مات . وارتجف الأولاد للفكرة ولم يصدقوها ، فمن غير الممكن أن يموت إنسان مثل والدهم ، فلابد أنه فى مغامرة من مغامراته حول العالم ، لابد أن سبباً قويًّا يمنعه من العودة إليهم ، وبمجرد زوال السبب سيعود إليهم ومعه الهدايا وأجمل الحكايات والمغامرات . . ولكن والدتهم أكدت أن لابد قد وقع له حادث ومات .

وأخذت تقرأ إعلانات تُبين كيف يمكن أن تكسب المال وهى فى بيتها . وصنع الأولاد أزرارًا ورقية حاولوا بيعها على استحياء ، وكادت الأسرة تموت جوعاً .

ولما كان من الصعب احتمال هذه الظروف الشاقة فقد هرب الولدان والتحقا بالبحرية . . وبدأت « موللى » تراهما فى مرات نادرة ، كما كانت ترى والدتها وقد تغيرت كثيرًا . . زالت الرقة وحلت محلها الخشونة ، وشعرت أنها قد أصبحت غريبة عنها .

واصلت « موللى » حديثها مع « جون وايتسايد » :

ـ أكملت الدراسة الثانوية والتحقت بدار المعلمات فى « سان جوزيه » ، وعملتُ ببيت « مسز ألان موريت » لأحصل على مصاريف معيشتى ومدرستى ، وقبل الانتهاء من دراستى الثانوية ماتت والدتى . . فأنا يتيمة كما ترى .

فهمس« جون » برقة : آسف جدًّا .

واحمرت وجنتا « موللى » وقالت : لم أقصد استعطافك يا« مستر

وايتسايد » ، فأنت تود معرفة كل شىء ، كما أن كل إنسان لابد أن يصبح يتيماً .

وافقها « وايتسايد » قائلاً : أجل ، وأظن أنى أنا أيضاً يتيم .

ومرة أخرى عادت للماضى بذاكرتها . .

لقد عَمِلَتْ فى بيت « موريت » مقابل الأكل والمأوى . . وكانت تؤدى كل أعمال الخدمة دون أجر ، وفى الصيف كانت تعمل فى أحد المحال لتوفر ثمن ملابسها ، كانت « مسز موريت » تدرب الفتيات على الخدمة وتقول : يمكننى أن أعد فتاة جاهلة تماماً للعمل فتصبح بعد ستة أشهر ماهرة ، يمكنها الحصول على مرتب شهرى قدره خمسون دولارًا ، فجميع السيدات يتعاطفن مع الفتيات اللاتى عَمِلْنَ عندى . هذه أول تلميذة دربتها ، ولكنها تقرأ كثيرًا ، وعلى الخادمة أن تنام فى الساعة العاشرة ، وإلاَّ فلن يمكنها أداء مهامها فى الصباح كما يجب .

وكانت « مسز موريت» دائمة الانتقاد والتذمر ، وكانت تقول لها :

ـ اسمعى يا « موللى » . . لا أريد أن أحدثك عن أخطائك ، ولكن إذا لم تجففى الفضيات جيدًا فستصدأ . . أو : « يجب أن تضعى سُكين الزبدة هكذا ، ثم ضَعِى الأكواب هنا » . وبعد أن تنتهى « موللى » من غسيل الأطباق فى المساء تجلس فوق فراشها . . وتبدأ فى الاستذكار ، وعندما تطفىء النور وتستلقى على فراشها . . كانت تفكر فى أبيها . . وكانت تتخيله عائداً مرتدياً بدلة جميلة مقلمة ، وقبعة عالية ، وبيده باقة زهور حمراء قائلاً لها :

ـ لم أتمكن من العودة قبل ذلك يا « موللى » . . هيا ارتدى معطفك

بسرعة لنذهب ونشترى لكِ ثوب السهرة المعروض في فاترينة محلات «براشيا» . . أسرعى ، لَدَىّ تذكرتان لقطار « نيويورك » الليلة .

كانت تعلم أن والدها قد مات . . كلاَّ لا تستطيع أن تقتنع بذلك ، لابد أنه فى مكانٍ مَّا من العالم ، يعيش حياة جميلة ، وسيعود إليها يوماً مَّا . . حدثت « مولى » صديقة لها فى المدرسة وقالت لها :

ـ لا أستطيع أن أصدق أو أكذب هذا الخبر . . فلا أستطيع تصور أنه قد مات . وعند وفاة أمها لم تشعر إلا بقليل من الحزن . .

عادت « مولى » تستكمل حديثها مع « وايتسايد » :

ـ أعتقد أن ذلك كل شىء عنى ، وقد حصلت على شهادتى وأرسلونى إليكم .

فقال : « هذه أسهل مقابلة أجريتها مع أحد » .

ـ هل تظن أننى جديرة بالوظيفة ؟

نظر الرجل نظرة سريعة إلى غليونه المعَلَّق وقال : نعم ، ستحصلين على الوظيفة ، بل لقد حصلت عليها فعلاً ، لكن يا « مس مورجان »أين ستقيمين ؟ يجب أن تعثرى على مكان للإقامة .

وقبل أن تفكر « مولى » أجابت :

ـ أود أن أعيش هنا . واندهش « وايتسايد » وهو يقول :

ـ ولكننا لا نستضيف أحدًا أبدًا .

ـ آسفة . . لكننى أحببتُ هذا المكان .

ونادى « جون » : « وِيلاَّ » . . « ويلاَّ » .

ولما جاءت زوجته قال :

ـ هذه الشابة تود الإقامة معنا ، وهى المُدَرِّسَة الجديدة .

قالت : « لا أعتقد أن ذلك ممكناً ، فلم يحدث أن استضفنا نزلاء من قبل ، وهى أجمل من أن ندعها قريبة من « بيل » الأحمق ، سيصبح الأمر صعباً للغاية » والتفتت إلى «مولى » قائلة :

ـ يمكنكِ الصعود إلى الغرفة الثالثة من الدور العلوى ، ولكن الشمس لا تدخلها كثيراً .

تغيرت حياة « مولى مورجان » فقد أصبحت « ملكة » من اليوم الأول ، فتفهمها لنفسية التلاميذ وفهمهم لها جعلهم يحبونها بشدة ، وبمرور الوقت أدركت أنها أصبحت شخصية مهمة ، فإذا تجَادَلَ رجلان فى المتجر حول أى موضوع فى التاريخ أو الأدب أو الحساب أنهيا الجدل بقولهما : « سنسأل المدرسة » ، فإذا لم تكن تعرف الإجابة فسنجدها بكل تأكيد .

وكانت « مولى » تشعر لذلك بفخر شديد . . وكانت تساعد فى ترتيب الزينة ، وإحضار المرطبات فى الحفلات . . وكانت تقول :

ـ سنضع أغصان الصنوبر فى كل مكان ، فرائحتها الجميلة تستكمل جو الحفلات . كان المفروض فيها أن تعرف كل شىء ، وتساعد فى كل شىء ، وكانت تحب ذلك .

وفى بيت « آل وايتسايد » كانت تعمل بجد فى المطبخ . وفى الليل كانت تكتب الرسائل لصديقاتها القليلات فى دار المعلمات ، وكانت رسائلها مملوءة بالفرح وبأخبار الجيران الصغيرة . . كان عليها حضور جميع الحفلات لمركزها الاجتماعى . وكانت صباح السبت تقوم بنزهات حول

التلال لتحضر نبات النرجس وشتلات الزهور وتزرعها حول المنزل . أما «بيل » فقد ألقى نظرة واحدة على « موللى » وعاد للعناية بالبقرات التى يربيها، واحتاج إلى وقت طويل ليتشجع وتكلم معها . . كان شابًّا بسيطاً ، ضخم الحجم ، ينقصه اتزان والده . مرح والدته . . وتدريجيًّا بدأ فى الاهتمام بموللى ومتابعتها .

وذات مساء جلس « بيل » و« موللى » فى الشرفة فوق المقاعد الوثيرة ، وفى هذا الجو غمر « موللى » شعور بالسعادة ، وفى ترقب لإشراقة القمر حكت « موللى » لبيل عن والدها وزياراته المتفرقة واختفائه النهائى ، وسألته وهى تبكى :

ـ هل تدرك معاناتى يا « بيل » ؟ هل تظن أن والدى مازال حيًّا فى مكان مّا ؟

فأجابها : إذا كان الأمر كذلك فآسفٌ أن أقّول لكِ إن ذلك يعنى أنه نذل تخلَّى عن مسئوليته . . فإذا كان حيًّا ، فإن عدم مراسلته أو اتصاله بك يُعد أمرًا غريباً .

سَـرَتْ رعشةٌ باردة ، فقد حاولت « موللى » تحاشى التفكير بهذا المنطق الذى كانت ترى أنه الصواب ، وقالت بجفاء :

ـ أعـرف ذلك بالتأكيـد . . أمـا الآن فأنـا ذاهبـة للقيام ببعض الأعمال يا «بيل» .

وفى أطراف « مراعى الفردوس » وفوق التلال ، بُنِىَ كوخ قديم يطل على المنطقة كلها ، وعلى الطرق المجاورة ، وتردد أن «فاسكينر » ـ وهو من قطاع الطرق ـ قد عاش فى هذا الكوخ الذى بناه لمدة عام ، وكانت

الدوريات تجوب المنطقة بحثاً عنه . . كان هذا الكوخ مكانًا شهيرًا يزوره سكان الوادى فى المناسبات ، ولهذا سأل جميع السكان « موللى » إذا كانت قد زارت هذا الكوخ ، فقالت :

ـ كَلاَّ . . ولكننى لمأصعد إليه فى يوم سبت وأنا أعرف الطريق .

وذات صباح ارتدت حِذاءً يصلح لهذه الرحلة فى الطرق الوعرة ، وعرض عليها « بيل » أن يصحبها ، ولكنها قالت :

ـ لا يمكن أن أعطلك ، فلديك ما يشغلك من عمل .

ـ اللعنة على العمل .

ـ أُفضل أن أذهب وحدى . . آسِفة لإحراجك يا « بيل » .

شعرت بالأسف لأنها لم تتركه يصحبها، ولكن رأيه فى والدها قد أخافها وقالت لنفسها : أريد القيام بمغامرة ، . ولو اصطحبنى « بيل » لتحولت إلى رحلة عادية . وظلت تتسلق الطريق شديد الانحدار المظلل بأشجار السنديان لمدة ساعة ونصف الساعة ، وكانت الشمس حامية ، وأوراق الشجر الجافة تبدو كألواح من الزجاج ، وفاح فى الجو أريج الأعشاب المنعشة .

وصلت « موللى » إلى أعلى التل لاهثة الأنفاس تتصبب عرقاً . كان الكوخ يتكون من غرفة خشبية بلا نوافذ ، والمدخل دون باب ، والكوخ يتوسط أرضًا مجدبة وسط الأعشاب . . وساد المكان السكون الذى يغلف دائماً الأماكن النائية ، إلاَّ من صوت الحشرات والنحل والذباب ، فبدا السطح كما لو كان يتغنى برقَّة فى لهيب الشمس .

سارت «موللى» على أطراف أصابعها تقترب من الكوخ وتمنى نفسها بمغامرة فى كوخ «فاسكينر» قاطع الطريق . ونظرت من الباب فرأت سحلية هربت منها، وعلق فى جبينها نسيج عنكبوت كأنه يمنعها من الدخول . . امتلأ الكوخ الخاوى بالأقذار المتراكمة ، والتراب الذى يغطى الأرض والجدران، ورائحة الأرض التى لم تصل إليها الشمس لفترة طويلة .

كانت «موللى» منفعلة وسط خواطرها :

« كان يجلس هنا بالليل . . يخرج كالشبح ويتوارى فى الظلام عندما يستمع إلى أصوات تشبه زحف الرجال إليه » .

نظرت جهة وادى «مراعى الفردوس» حيث الحدائق فى مربعات غامقة خضراء ، والتلال وراءها فى لون بنى فاتح تتخلله لمحات من اللون البنفسجى الفاتح ، والحبوب فى مربعات صفراء ، والطرق متشعبة ومُلتفة حول شجرة عملاقة ، فى حين كانت فوق الوادى غلالة من النور المتألق ، فهمست «موللى» :

-« إنه جو أسطورى . . وأنا أعيش حقًّا مغامرة شائقة »

وهب نسيم خفيف من الوادى مرتدياً صديريًّا مطرزًا بالخيوط الذهبية ، وينطلوناً يتسع كلما نزل على ساقيه النحيفتين حتى يصبح كالبوق المقلوب عند القدمين ، ويلف شريطاً حريريًّا حوله . . وأحياناً كان يرى الدوريات أسفل الطريق ، ومن حسن حظه أن الجنود لم ينظروا إلى قمة التل ، وعلى الرغم من سخريته منهم فإنه بالتأكيد كان يتملكه الخوف . . وكان يترنم بأغنيات حزينة ، لأنه كان يدرك أنه لن يعيش طويلاً ، جلست « موللى » وأسندت رأسها إلى كفيها وتصورت « فاسكينر » بجانبها ، له ملامح تشبه

ملامح أبيها المرح وعينيه البراقتين عندما يخرج للشرفة قائلاً : مرحباً يا أولاد . هيا لأحكى لكم مغامرة من مغامراتى .

وفى وقت متأخر من بعد الظهر أرسلت « مسز وايتسايد » ابنها ليبحث عن « موللى » قائلة : ربما تكون قدمها قد تعثرت وهى تصعد التل ، لما وصل « بيل » إلى بداية الطريق ، رأى « مولى » قادمة فقال لها :

ـ خشينا أن تكونى قد ضَلَلْتِ الطريق ، هل صعدت إلى الكوخ ؟

ـ نعم .

ـ إنه يشبه علبة قديمة ، أليس كذلك ؟ إنه كوخ خشبى فقط ، ويوجد مثله كثيرًا ، ومن الغريب أن يصعد الكثيرون لرؤيته ، على الرغم من أنه ليس من المؤكد أن « فاسكينر » قد سكن فعلاً هذا الكوخ .

ـ أعتقد أنه أقام فيه .

ـ لماذا تظنين ذلك ؟

ـ لا أعرف .

قال « بيل » : لم يكن « فاسكينر » هذا بطلاً ، بل مجرد لص . . بدأ بسرقة الخراف والخيل ، وانتهى بقطع الطرق على العربات المسافرة ، وكان يلجأ إلى قتل الناس إذا اضطرته الظروف . . يجب أن نعلم الناس أن يكرهوا اللصوص لا أن يقدسوهم .

فردت وهى مجهدة :

ـ أنتَ على حق يا « بيل» . . لقد أدركنى التعب وأصبحتُ عصبية المزاج أيضاً .

مرت الأيام ، وكست الزهور البرية التلال ، وشعرت « موللى » بأهميتها للوادى ، وبدأت تحضر اجتماعات مجلس إدارة المدرسة ، وكانت هذه الاجتماعات تُحاط أحياناً بأهمية وسرية وغموض . . ولكن عندما عادت «موللى » من غرفة « جون وايتسايد » عرفت أن مجلس الإدارة يناقش المحاصيل وما يتردد من حكايات و إشاعات .

وكان « بيرت مونرو » قد انتخب لعضوية المجلس فى الخريف ، وما إنْ حل الربيع حتى أصبح واحدًا من أكثر الأعضاء نشاطاً . . يرتب لحفلات المدرسة الراقصة ويعد للرحلات والتمثيليات ، ويقدم الجوائز للمتفوقين من الطلاب ، وزاد اعتماد المجلس عليه أكثر وأكثر .

نزلت « موللى » متأخرة من حجرتها ذات مساء فى حين كانت « مسز وايتسايد » تجلس فى حجرة الطعام كعادتها عندما يجتمع المجلس فى بيتها ، قالت « موللى » لها :

ـ لن أشارك فى هذا الاجتماع ، فربما يريدون أن يتناقشوا فى أمور أو يحكوا قصصاً ، ولا يستطيعون القيام بذلك فى حضورى .

ـ هيا يا « موللى » . . أُدخلى . . لا يمكن أن ينعقد الاجتماع دونك . .

ـ لقد تعودوا على ذلك . . ثم إننى لا أريد أن يناقشوا هذا النوع من القصص .

توقف « بيرت مونرو» من باب اللياقة عن القصة التى كان يحكيها ، وقال :

ـ كنت أتحدث عن مساعدى الجديد يا « مس مورجان » . . سأحكى هذه القصة مرة أخرى لطرافتها . . كنت فى حاجة إلى مساعد ،

والتقطت هذا الرجل من « ساليناس» ، كان يجلس تحت أحد الجسور مخمورًا يطلب عملاً ، فاصطحبته معى ، ولكننى سرعان ما أدركت عدم فائدته ، وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن التخلص منه ، لتعلق الأولاد الشديد به ، فهو قد زار كل العالم . . يحكى قصصاً رائعة عن أتفه الأشياء التى شاهدها . . ويلتف حوله الأولاد منبهرين ، وهو يذهب مرتين شهريًا إلى « ساليناس » فيسكر ويعربد فيجده رجال الشرطة مخمورًا فى البارات فيتصلون بى ، فأضطر لإحضاره . . وفى كل مرة يحضر معه هدية لا بنى « مانى » ، ولا أستطيع أن أفعل معه شيئاً ، فهو من النوع الذى يجذبك فورًا على الرغم من أنه لا يؤدى أى عمل ، ولا فائدة من ورائه .

شعرت « مولى » بالخوف . . وضحك الرجال قائلين :

ـ إنك طيب أكثر مما يجب يا « بيرت » . . لا يمكنك الاحتفاظ بمهرج فى مزرعتك ، عليك بالتخلص منه فورًا .

وقفت « مولى » مرتاعة خوفًا من أن يسأل أحد عن اسم الرجل ، وقالت بسرعة :

ـ أشعر أننى مُتْعَبة . . أرجو المعذرة . . فسأذهب لأستريح .

وقف الرجال احتراماً لها وهى تغادر الحجرة . . وألقت بنفسها على فراشها وخبأت رأسها فى وسادتها وهى تحدث نفسها :

غير معقول . . إنه جنون . . لا يمكن أن يكون هو . . سأنسى الأمر فورًا . . ولكنها اكتشفت أنها كانت تبكى !

جاءت الأسابيع القليلة التالية و « مولى » تتعذب عذاباً شديدًا ،

تخشى الخروج من المنزل . . وتتحاشى أن تنظر أمامها فى طريقها للمدرسة ، وتقول لنفسها :

ـ « لو رأيت رجلاً غريباً فسأهرب . . ولكن ما هذا ؟ إننى أتصرف كالمجانين ! »

تملك الخوف من « موللى » ، فلم تكن تشعر بالأمان إلا فى غرفتها . خبا بريق عينيها ، وشحب لونها ، وفى اجتماع مجلس الإدارة التالى لم يحضر «بيرت مونرو » فاطمأنت « موللى » وبدت شبه سعيدة لغيابه . . فقال بعض الأعضاء :

ـ إنكِ تبدين أحسن يا « مس مورجان » . . أليس كذلك ؟

ـ نعم . . كانت بعض أعراض البرد الخفيفة .

مرت ساعة ودخل « بيرت مونرو » معتذرًا :

ـ أسف للتأخير . . ولكن مساعدى وُجِدَ نائماً فى أحد شوارع «ساليناس » وأنا فى ورطة . فَعَلَىَّ أن أغسل السيارة التى أكْمَلَ نومه فيها حتى أزيل آثار سُكره .

شعرت « موللى » بالفزع الشديد ، وكاد أن يغمى عليها ، فصاحت :

ـ معذرةً ، يجب أن أذهب !

وجرت هاربة من الغرفة ، واستندت إلى أحد الجدران تستجمع نفسها . . مشت ببطء ، وبحركة لا إرادية عبرت الباب الزجاجى ونزلت درجات سلم البيت . كان الليل قدحَلَّ واستطاعت أن ترى فى الظلام سيارة « بيرت مونرو » وتعجبت ، فقد شعرت بقدميها تسيران نحو السيارة

دون إرادة . . مدت يدها إلى الباب وفتحته . . هبت ريح خفيفة فشمت رائحة سيئة من القَيْءِ وسمعت شَخِيرَ سكيرٍ . . وشعرت بدوار ، وجرت بسرعة جنونية إلى البيت ، وما إنْ وصلت إلى حجرتها حتى أغلقت الباب ، وشعرت أن اللحظات ساعات طويلة ، حتى غادر الرجال المنزل . وسمعت محرك السيارة يدور والصوت يبتعد ، ولما همت « مولى » بالحركة شعرت كأنها مشلولة .

دخلت « مولى » مكتب « جون وايتسايد » الذى كان جالساً ، فقال :

ـ لَسْتِ على ما يرام يا « مس مورجان » سأستدعى لكِ الطبيب .

بدت « مولى » متخشبة فى وقفتها قرب المكتب ، وسألت :

ـ هل يمكن أن تستعين بمدرّسة غيرى ؟

ـ بالتأكيد . . هيا استريحى فى فراشك ، وسأدعو الطبيب .

ـ لا أقصد الراحة . . فأنا أريد الرحيل الليلة . . أخبرتك أن والدى مات . . ولكننى لست متأكدة من ذلك ، إننى أخشى أن ... أريد الرحيل الليلة

ـ نظر إليها متعمدًا وقال بلطف :

ـ أخبرينى ماذا تقصدين ؟

ـ لو رأيت الرجل السكير الذى يعمل عند « بيرت مونرو » ... وتوقفت ؛ فقد ضاقت من نتيجة كلامها .

هز « جون وايتسايد » رأسه ، فصرخت « مولى » :

ـ لا . . لا أظن ذلك ، إنى واثقة .

ـ هل أستطيع أن أساعدك يا « موللى » ؟

ـ لا . . أريد الرحيل . . المسألة بالغة الأهمية بالنسبة لى .

ـ لستُ أفهم تماماً . . ولا أريد أن أفهم . . ليس ذلك مهماً . .

هيا اصعدى إلى غرفتك وأعِدّى حقائبَكِ . . سأوصلك بسيارتى إلى «ساليناس » .

9

9

كانت مزرعة « ريموند بانكس » أجود مزارع مراعى الفردوس . كان «ريموند » يربى فيها خمسة آلاف دجاجة بيضاء ، وألف بطة ، وكانت المزرعة تقع على أفضل موقع فى الريف كله . . قسّم « ريموند » أرضه إلى مربعات من الخضرة . . كانت مزارع الدجاج نظيفة لا يوجد حولها أكوام القذارة المعتادة حول هذه المزارع .

أعد « ريموند » للبط بِركَة واسعة مستديرة ينساب الماء إليها باستمرار. . أمّا الفائض من الماء فيصب فى السواقى المتفرعة عبر مساحات العشب والكرنب . . فكان رائعاً أن يرى الإنسان هذا المنظر البديع فى الصباح الباكر ، أسراب الدجاج البيضاء تأكل وتنقر وتنبش المرج الأخضر . والأروع أن يرى ألف بطة بيضاء تسبح فى البحيرة بخيلاء . كما يمكنك من أعلى التل أن ترى ألوف الديوك البيضاء تموج وتهتز على بركة زاهية الخضرة . . وإذا ظهر فى الفضاء صقر أحمر الذيل يراقب باهتمام بيت « ريموند » ، تتوقف الدجاجات عن حركاتها فورًا وتهرعُ لتحتمى بالديوك ، وتسمع صوتها مذعورة من الصقر ، وتسمع الباب الخلفى يُغلق ويظهر « ريموند » حاملاً بندقيته ، فيطير الصقر إلى أعلى مائة قدم . . فينتشر الدجاج من جديد وهو يصفق بأجنحته .

ومن التل يمكنك أن ترى منزل « ريموند » المطلى باللون الأبيض القائم على خميلة من الزهور ووراء المنزل حديقة جديرة بأن نسميها حديقة « مراعى الفردوس » . . كان السُّكان يعتبرون هذه المزرعة ، المزرعة النموذجية .

أمّا « ريموند باكس » فكان مظهره بالغ القوة ، قادرًا على الرفع والجر والحَمْل . . وقد لوحت الشمس باللون الأسمر كل مكان مكشوف فى جسده . . له كتفان عريضتان ، وساقان قويتان . . وما كان شعره الأشقر الخفيف يستطيع حماية صلعته من الاحمرار والاحتراق تحت الشمس ، . وكانت عينا « ريموند » سوداوين كالفأر ، وفمه له شفتان مليئتان ، وقسمات مريحة تظهر عليه بعض ملامح الخبث .

كان « ريموند بانكس » فى الخامسة الأربعين . . رجلاً بالغ الطيبة . . يتكلم دائماً بصوت مرتفع واندفاع ساخر . . وأحياناً يتحدث بكلام شديد الابتذال كأنه يطلق دعابة عادية ، لأن الناس كانوا يضحكون عندما يتكلم . . وكانوا يختارونه ليؤدى دور « بابا نويل » فى أعياد الميلاد التى تُقام فى المدرسة ، وذلك بصوته ووجهه الأحمر وحبه للأطفال ، سواء ارتدى ملابس « بابا نويل » أم لا ، فقد كان الأطفال يعتبرونه نوعاً من « بابا نويل» . . وكانت له طريقة فى أرْجَحَتِهم وشَقْلَبتِهم تثير فيهم البهجة والفرح ، وأحيانًا ينقلب جادًّا ، يحكى لهم الدورس الهامة .

وفى نهار أيام السبت كان الأولاد يزورونه فى المزرعة لمشاهدته وهو يعمل ، فيريهم الحضَّانات الكهربية . . ويشاهدون فيها الكتاكيت وهى تشق البيض لتخرج ، وقد أخذت ترفرف بأجنحتها وتتأرجح على أرجلها الضعيفة . . وكان يسمح للأطفال بفتح الحضانات والإمساك بالأفراخ الصغيرة ذات الزغب الأشقر . . ثم كانوا يتوجهون إلى البركة فيرمون فُتات

الخبز إلى البط الذى يسبح بعَظَمة . . وكان الأطفال يحبون وقت الذبح ، على الرغم من أن « ريموند » يتخلى فيه عن مرحه ويتسم بالجد والرزانة .

كان « ريموند » يأخذ ديكاً صغيرًا من الحظيرة ويُعلقه من رجليه فى دعامة خشبية ويربط بعنف جناحية المصفقتين بمشبك معدنى . وكان الديك يأخذ فى الصياح ، ويأخذ « ريموند » سكين الذبح من صندوق بجانبه ، وكان الأطفال يصيحون إعجاباً بالنصل الذى يشبه الرمح ، وشكله المخيف ، ورأسه الحاد كالإبرة .

ويقول « ريموند » : الآن أيها الديك اللعين سأقضى عليك . عندئذ يتجمع الأطفال فى حلقة حوله ، فيمسك « ريموند » بيديه المدربتين بسرعة رأس الديك ويومض النصل وينحدر بسرعة البرق إلى رأس الديك ، فكان الديك يهز جناحيه وتتطاول رقبته حنيناً للحياة ، فى حين ينحدر خيط رفيع من الدم من أعلى المنقار .

ويهتف « ريموند » : والآن انظروا . ويقبض على صدر الديك ويجذب مابه ، فتمتلىء يده بكل ما كان على صدره من ريش ، ومرة أخرى يعرِّى ظَهْر الديك . . وهكذا فى الجناحين . . ويجرد الديك من الريش فى شَدَّة واحدة . . ويشرح للأطفال :

ـ أرأيتم ؟ لابد أن يتم ذلك بسرعة فى خلال دقيقتين ، وإلّا فإن الريش سيزداد التصاقاً .

ويأخذ الديك من الدعامة الخشبية ويأخذ سكيناً أُخرى ويشق بطن الديك ويُـخْـرِجُ أحشاءه ، ثم يمسح يديه من آثار الدم بقماشة ، ويصيح الأطفال :

ـ ماهذا ؟

ـ القلب . . لا يزال يتحرك . . لا زال حيًّا !

ويطمئنهم « ريموند » قائلا :

ـ لا . . لقد مات الديك منذ لمست السكين رقبته ، لكنْ القلب يظل يخفق قليلاً .

ويسأله بعضهم :

ـ ولماذا لا تذبح الديكة وتقطع رءوسها كما يفعل أبى ؟

ـ لأن هذه الطريقة أسرع وأنظف، والجزار يريدها برأسها حتى يزيد الوزن . كان يقول ذلك ويلتقط ديكًا أخر ، ويكرر الذبح ، ولكنه كان يرفض إلحاح الأطفال فى مشاركته ويعتذر قائلاً :

ـ إذا لم تذبحه السكين من المكان المناسب فذلك يؤذى الديك .

أما زوجته « مسز بانكس » فكانت ضاحكة ، تطلق ضحكاتها العذبة التى تعبر عن مرح معتدل . . فكان منهجها هو الضحك تقديراً لما يقوله الناس ، فكان الناس يلجئُون إلى رواية الكلام المضحك كلما صادفها .

وبعد انتهاء عملها فى البيت تسرع للحديقة لتغنى بها وبنباتاتها ولأنها من بنات المدينة ـ كما يقول الجيران ـ فقد كانت تهوى الزهور ، وكانت ضحكات السيدة « كليو بانكس » الصافية العذبة ترحب بالقادمين إلى البيت فكانوا يقهقهون فرحين عندما يسمعونها . كانت « كليو بانكس » مريحة ، تجعل الناس يستريحون إليها وربما لا يتذكر أحدهم ماذا قالت ، ولكن كل زائر يستطيع أن يتذكر ـ حتى بعد مُضِيِّ شهور ـ رنين ضحكاتها .

أما « ريموند بانكس » فنادرًا ما يضحك . . وكان الزوجان أكثر المضيفين شعبية وشهرة فى الوادى . . وكانا يدعوان بين الحين والآخر كل ساكن فى الوادى إلى الشرائح المشوية فى خميلة سنديان قرب منزلهما ، ويشويان الدجاج الصغير على الفحم ويفتحان مئات الزجاجات من البيرة المصنوعة فى منزلهما .

كان سكان الوادى يشتاقون بشدة إلى هذه الحفلات .

وكان لريموند بانكس زميل فى المدرسةالثانية أصبح يعمل كسجَّان فى سجن « سان كوينتين» . . استمرت الصداقة بينهما ، فهما لا يزالان يتبادلان الهدايا الصغيرة فى أعياد الميلاد ويتراسلان عند الأحداث المهمة .

كان « ريموند » فخورًا بصداقته للسجَّان الذى كان يدعوه سنويًّا لمشاهدة عملية الإعدام مرتين أو ثلاثاً . . وكانت رحلاته إلى السجن هى الإجازات الوحيدة التى يحصل عليها .

تعود « ريموند » أن يصل إلى بيت صديقه السجَّان فى ليلة الإعدام ، فيجلسان ويسترجعان ذكريات الدراسة وأحداثها ونوادرها ، وكان «ريموند» يعجبه ما يراه من انفعال الشهود فى الصباح ، والهستريا التى تغمرهم فى مكتب السجَّان ، وكان سير المحكوم عليه بالإعدام وهو يمشى متقهقرًا يثير مشاعر « ريموند » ، فلم تكن عملية الإعدام ذاتها هى ما تهمه ، ولكن ما يصاحبها من جو مشحون متوتر عنيف .

لم يكن « ريموند » يهتم بالمحكوم عليه أكثر من اهتمامه بالديك الذى يذبحه ، فلم يكن يتسم بالقسوة أو يسعى للتلذذ بعذاب الآخرين ، ولكنه كان يسعى للانفعال العميق ، ولم يكن خياله يحقق له هذه الرغبة . .

ولكن فى السجن كان يستطيع أن يشعر بمشاعر الآخرين المشحونة النابضة .

كان « ريموند » يهوى حضور اجتماع النطق بالحكم ، فى حين كان غيره من الرجال يحاولون استجماع شجاعتهم ، وعادة ما يخرج مشاهد منهم مغشيًّا عليه أو باكياً ، غير أنه كان يستمتع بالمشاهدة التى تُشعره أنه حىٌّ منفعل بالحياة ، وبعد الانتهاء كان يُشارك صديقه السجّان عشاءً دسماً قبل أن يعود إلى بيته . . كان الشعور نفسه يخالجه عندما يتجمع الأطفال لمشاهدته وهو يذبح الدجاج .

لم يمر وقت طويل على عائلة « مونرو » فى « مراعى الفردوس » حتى سمعت عن مزرعة « ريموند بانكس » الرائعة وزياراته للسجن . . فكانت أخبار هذه الزيارات تبهرهم دون أن ترهبهم .

كان « بيرت مونرو » يتصور « ريموند » جَلاَّدًا بالشكل المعروف للجلاَّدين ، جسم هزيل ، وبشرة داكنة ، وعينين بليدتين ، وأعصاب باردة ، وكان مجرد تفكير « بيرت و فى « ريموند » يملؤه بلهفة فضولية ، ولكن توقعاته خابت عندما رأى « ريموند بانكس » بعينيه السوداوين المرحتين ووجه الصبوح ، فشعر بشىء من الاستياء لإحساسه أن هذه الملامح المرحة ظواهر خادعة لا تنسجم مع الفكرة التى كَوَّنَهَا عنه .

أقام « آل باكس» وليمة من ولائمهم فى أول يوم من شهر مايو تحت ظلال أشجار السنديان فى أجمل الفصول ، إذ تفتحت الأزهار والورود ، وطرزت بساطَ العشب الأخضر الذى بسطته الطبيعة على التلال . وكانت أشجار السنديان قد ارتدت ثوباً جديدًا من الأوراق الخضراء النظيفة

اللامعة، وكانت الشمس تبعث في الجو دفئاً مُـحَبَّباً شَجع الطيورَ على أن تغرد أغاريدَ جميلة عذبة مصحوبة بأصوات الدجاج وحفيف أجنحتها، وصياح البط .

وقف ما لا يقل عن خمسين مَدْعُوًّا تحت الشجر حول موائد الطعام الممتدة، ووُضعتِ المئات من زجاجات البيرة فى أحواض الثلج الملح ، وكانت « مسز بانكس » تتجول بين ضيوفها وهى تضحك . إما تَحِيَّةً أو ردًّا على تحية ، ونادرًا ما تنطق بكلمة .

وعند مواقد النار كان « ريموند » يشوى الدجاج الصغير ، فى حين التف حوله عدد من المعجبين يتبادلون الدعابات .

كان « ريموند » يناديهم قائلاً :

ـ ليتقدَّم مَنْ يستطيعُ شَيَّ الدجاج أفضل منى . . سأضع الآن على الشواية شرائح اللحم لمن لا يريد الدجاج .

وقف « بيرت مونرو » ينظر إلى يدى « ريموند » الحمراوين ، وكان يشرب زجاجة من البيرة وقد انبهر بالقبضتين الحمراوين القويتين أثناء التقليب المستمر للدجاج .

ولما نُقلت أطباق الدجاج المشوى إلى المائدة عاد « ريموند » لِشَىّ المزيد لضيوفه ، فقد يطلبون فراخاً ثانيةً أو ثالثةً . . وفى أثناء ذلك ظل «ريموند» وحده ، بعد إسراع ضيوفه إلى المائدة .

نظر « بيرت مونرو » فرأى « ريموند » وحيدًا ، فتوجه نحوه . . وسأله « ريموند » بقلقٍ صادق :

ـ ماذا يا « مستر مونرو » ؟ ألم تكن دجاجتك شهية ؟

قال « بيرت » :

ـ أكلتُ شريحةً لذيذة ، ويمكن أن أكون أكلتها بسرعة ، فأنت تعرف أنى لا آكل الدجاج .

ـ صحيح . . لا أتصور إعراض أيِّ شخص عن أكل الدجاج ولكنى أعرف كثيرًا من الناس لا يفضلونها . . هل أضع لك شريحة صغيرة أخرى ؟

ـ لا لقد اكتفيت . . وأعتقد أن الناس تأكل أكثر مما ينبغى ، ورأيى أن الإنسان يجب أن يترك الطعام قَدْرَ ما يستطيع ، فإنه طالما لا يملأ معدته بالطعام فسيظل قويًّا .

أجاب ريموند : أوافقك فى ذلك .

قال ذلك وهو يقلب الدجاج الصغير على النار :

ـ نعم . . إننى أشعر بالتحسن عندما لا آكل كثيرًا .

ـ طبعاً . . وأنا أيضاً ، وأى إنسان ، ولكن كل الناس يسرفون فى الأكل .

تبادل الرجلان ابتسامة حارة لأنهما اتفقا فى هذه الجزئية ، برغم أن كُلَّ واحدٍ منهما لم يكن يؤمن بها قال إيماناً قويًّا .

قال « ريموند » راغباً فى تدعيم صداقتهما الجديدة بالاتفاق فى جزئية ثانية :

ـ عندك أرضٌ خصبة ؟ كانوا يقولون إن المكان كان مسكونًا بالأشباح قبل أن تقيم فيه وتجعله على أحسن حال . . ألم تر أى شبحٍ ؟

ـ لا . . أبدًا . . فأنا أخاف من الأعشاب الطفيلية أكثر من الأشباح ... إن النباتات الطفيلية لا تضايقنى فى تربيتى للدجاج ، ولكنها تضايق مَنْ يربى الماشية .

التقط « بيرت » غُصناً من الأرض ورماه بهدوء على الفحم الملتهب وقال لضيفه :

ـ سمعت أنك صديقٌ لسَجَّان فى « سان كوينتن »

ـ كان « آد» زميلى فى الدراسة من طفولتى . . هل تعرفه يا « مستر مونرو» ؟

ـ لا . . لكن اسمه تردد كثيرًا فى الصحف . . فرجل فى مركزه لابد أن تذكره الصحف كثيرًا

أجاب « ريموند » بصوت مملوء بالافتخار :

ـ نعم إنه مشهور جدًّا ، ولكنه طيب جدًّا ، لدرجة تجعلك تحب مُقابلته ، فعلى الرغم من مسئولياته فإنك تراه فَرِحاً وَدُودًا نعم . . لقد كان زميل دراستى ، ولم ينسنى ، فهو يدعونى من فترة لأخرى لأشهد تنفيذ حُكْم إعدامٍ بالشنق .

ارتعد « بيرت » على الرغم من أنه كان يسعى للتأكد من ذلك .

ـ إننى أعتقد أن دعواته تشرفنى ، فعمليات الإعدام لا يحضرها إلاَّ رجال الصحافة ، والشريف ، ورجال البوليس . وقد كنت أستمتع بهذه الزيارة .

ومن الغريب أن « بيرت » و جد نفسه يسأل لا شعورياً :

ـ لا أظن أن السجان سيعجبه أن تصحب معكَ صَديقاً .

شعر « ريموند » بالحَرج وهو يُقَلِّبُ النار بشدة ثم أجاب :

ـ حقيقةً لاأدرى يا « مستر-مونرو » ، فلم أفكر فى الأمر . . هل تريد أن تذهب معى إلى هناك ؟

ومرة أخرى يقول « بيرت» لا شعورياً :

ـ نعم .

ـ حسناً . . سأسأل « لاد » وسأعرض طلبك ، فربما أرسلَ دعوتين فى المرة القادمة ، ولكننى لا أعهدُ بذلك . . هل ترغب فى قطعة شواء أخرى ؟

كان « بيرت » فى حالة غثيان عندما قال :

ـ شكرًا . . اكتفبت . . سأذهب وأستلقى قليلاً تحت الشجرة .

ـ ربما تكون قد هززت بشدة عناصر التخمر فى البيرة التى شربتها . كان يجب أن تكون حَذِرًا وأنت تصبها .

جلس « بيرت » على بساط من الأوراق الجافة تحت شجرة سنديان ، وقد اصطف الضيوف على المائدة على يمينه . . وكان ضحك الرجال المصحوب بصيحات النساء يصل إلى سمعه خفيفاً عبر سياج من أفكاره. استطاع « بيرت » أن يرى « ريموند بانكس » من خلف جذوع الأشجار وهو لا يزال يشوى الدجاج فى نشاط لسدِّ شهية غير طبيعية لم تشبع بعد. . وبدأ الغثيان الذى دفعه إلى الابتعاد يتلاشى بسرعة . . وتحول هذا

الشعور بالمرض إلى نوعٍ غريب من الرغبة التى تملكته . . لم يكن يرغب أن يذهب فعلاً إلى « سان كوينتن » . . إن منظر رجل يُشْنَق كفيل بأن يسبب له التعاسة . . ومع ذلك كان سعيدًا أنه طلب الذهاب . . وبينما كان «ريموند » يشمر أكمامه قبل أن ينظف المواقد ، نهض توجه نحوه ، وفجأة شعر بالغثيان من جد يد ، فرجع للمائدة حيث كانت زوجته توزع النكات حول هياكل الدجاج الفارغة ، فقال لها « بيرت » :

ـ أنا عائد إلى المنزل . . فلستُ على ما يرام .

وهنا ألقت بهيكل الدجاجة عن يدها ومسحت فمها ويديها بمنديل من الورق ،

وقالت : ماذا بكَ يا « بيرت » ؟

ـ لا أدرى . . لست على مايرام .

ـ هل تريد أن أصحبك إلى المنزل فى السيارة ؟

ـ كلا . . ابْقَىْ أنتِ وسيوصلك « جيمى » .

ـ حسناً . . يجب أن تُوَدِّعَ مستر ومسز « بانكس » .

ـ ودعيها نيابة عنى ، فأنا أشعر بتعب شديد .

ومشى بخطوات مسرعة .

بعد أسبوع اتجه « بيرت» بسيارته الفورد إلى مزرعة « آل بانكس » وأوقفها أمام البوابة ، ظهر « ريموند » مصوباً بندقيته إلى صقر جارح ، فاندفع من المزرعة وصافح زائره الذى قال :

سمعت الكثير عن مزرعتك فقدمت لمشاهدتها .

قال « ريموند » مسرورًا :

ـ دعنى أضع هذه البندقية وسأصحبك فى جولة داخل المزرعة .

وبعد ساعة أبدى بيرت إعجابه بنظافتها . ولما انتهيا ، قال « ريموند » لبيرت :

ـ تفضل إلى المنزل لنتناول كوباً من البيرة ، فليس أفضل منها باردة فى يوم شديد الحرارة كهذا .

ولما جلسا سأل « بيرت » بصعوبة :

ـ هل كتبت الرسالة إلى صديقك السجّان يا « مستر بانكس » ؟

ـ نعم . . ولابد أن يرد علىَّ بسرعة .

ـ ربما تتعجب لرغبتى . . ولكن على الإنسان أن يرى كل ما يمكن على سبيل التجربة ، وكلما شاهد تجاربَ جديدة عليه كان ذلك أفضل .

قال « ريموند » : نعم . . هذا صحيح تماماً .

شرب « بيرت » كوب البيرة عن آخره ، ومسح فمه قائلاً :

ـ لقد قرأت طبعاً فى الصحف عن وصف لتنفيذ أحكام الشنق ، ولكن ليس من قرأ كمن رأى . . يقال : إن المحكوم عليه بالإعدام يصعد ثلاث عشرة درجة إلى المشنقة تأكيدًا لسوء حظه .

ـ الواقع . . لم أعد الدرجات قط يا « مستر مونرو » .

ـ احْكِ لى . . ماذا يحدث بعد أن يتأرجحوا على المشنقة ؟

ـ الواقع أنهم يُرْبَطُون وتُـخَبَّأُ رءوسهم فى ملاءة سوداء . . فلا تستطيع

أن ترى شيئاً . . وهى حركات تشبه التململ والترنح أكثر من الصراع والنضال .

احمرَّ وجه « بيرت » ولمعت عيناه وقال :

ـ تقول الصحف إنهم يتعذبون من ١٥ إلى ٣٠ دقيقة قبل الموت .

ـ ذلك صحيح . . ولكن تستطيع أن تعتبرهم ماتوا من لحظة سحب السلم من تحت أقدامهم . . تماما كقطع رأسِ الديك عندما تذبحه ، يرفرف فترة ولكنه يكون ميتاً فى الواقع .

ـ بالتأكيد . . ولعل بعض الناس يعانى من رؤية تنفيذ الإعدام للمرة الأولى .

ـ طبعاً . . كل مرة يُغْمَى على واحد . . إن مندوبى الصحف الشباب يبكون كالأطفال . . ويُصاب بعضهم بالدوار . . ولا يستطيعون أكل الطعام يومها . إن معظم مشاهدى الإعدام تظهر عليهم هذه الأعراض . .

ما رأيك فى زجاجة بيرة أخرى فهى لذيذة ومثلجة أليس كذلك ؟

ـ نعم . . إنها لذيذة . . وأظن سأتعلم منك طريقة صنعها . أما الآن فسأنصرف . . أشكرك يا « مستر بانكس » على هذه الجولة . . ويمكنك أن تنصح وترشد سكان مرزعة « بيتالوما » حول تربية الدجاج .

ظل « بيرت مونرو » لمدة أسبوعين عصبيًّا سَريع الانفعال ، على غير عادته ، مما جعل زوجته تقول :

ـ لست كما ينبغى يا « بيرت » . . لماذا لا تفحص نفسك عند الطبيب؟

أجابها بإصرار :

إننى بخير .

كان يمضى معظم وقته فى العمل بالمزرعة ، ولكنَّ عينيه كانتا ترقبان الطريق فى كل مرة تظهر فيها أى سيارة .

جاء « ريموند بانكس » راكباً سيارته فى يوم سبت وأوقفها أمام باب «آل مونرو » فتوجه « بيرت » لمقابلته .

وعندما يلتقى مزارعان فمن النادر أن يتوجها إلى المنزل ، بل يسيران ببطء ، يقتلعان الحشائش من الحقول ، أو بعض أوراق الأشجار وهما يتبادلان الحديث . كان قد حل فصل الصيف وقد نمت الثمار مكان البراعم التى تساقطت ، أما أوراق الشجر فلم تكتسب بعد لونها الأخضر الزاهى ، وبدأت ثمرات الكريز فى الاحمرار . مشى « ريموند» و « بيرت» بهدوء تحت ظل الأشجار ، وعلى الرغم من علم « بيرت » بالسبب الذى جاء من أجله «ريموند » . . فإنه تجاهله وخاطبه قائلاً :

ـ يبدو أن العصافير ستأكل معظم الكريز هذا العام ، فهى كثيرة .

ـ لقد تلقيت رد «آد » يقول : لا مانع من استقبالك معى ، سنذهب يوم الخميس المقبل ، فستجرى عملية إعدام يوم الجمعة . إن « آد » دَمِثُ الخُلُق ، حسن المعشر ، وستحبه ، وسيستضيفنا حتى مساء الخميس .

ـ هل يكون من غير اللائق أن أعتذر عن الذهاب فى آخر لحظة ؟ فى الواقع أنا خائف فربما لاأستطيع إبعاد المنظر من مخيلتى .

ـ ليس الأمر بهذا القدر من السوء .

ـ سأشرح لك الأمر يا مستر « بانكس » ، فأنت تعلم أننى لا أتناول الدجاج ولا أشرح السبب ، بل أكتفى بقول إننى لا أحبه .

وكسر بين يديه غصناً كان قد التقطه من الأرض وألقاه .

ـ عندما كنتُ طفلاً فى الثانية عشرة من عمرى كنت أعمل فى توزيع الطلبات لحساب أحد المتاجر ، وكان يعيش هناك عجوز كسيح يسير مستندًا على عكاز من الطراز القديم ، يستند على العكاز على شكل هلال تحت الإبط ، تعوّد وتمرّس على السير به ، غير أن السير كان بطيئاً . . وذات صباح كنت أسير حاملاً سلة خضروات ، وخرج العجوز ليذبح ديكاً ، وكان أكبر ديك شاهدته . . ورأيت العجوز واضعاً عكازه مستندًا عليه مُمْسِكاً الديكَ من ساقيه . . توقف « بيرت » عن السير و التقط غصناً آخر من الأرض فى حين كان وجهه يزداد شحوباً . . وأضاف :

ـ كان الرجل يمسك بالساطور فى يده الأخرى ، وبينما كان يهوى بالساطور على عنق الديك ، انزلق عكازه قليلاً وقطع جناحاً من جناحيه ، فجن جنونه ، وانهال على الديك مرة فى صدره وأخرى فى معدته . . ثم مالبث أن انزلق العكاز فاختل توازن العجوز ووجَّه ضربة أخرى بالساطور، قطع إحدى ساقى الديك ، وكانت الضربة عنيفة بحيث فتحت جرحاً فى أصبع العجوز .

وعندما حدث ذلك ألقى العجوز الديك على الأرض وسحب نفسه إلى البيت ممسكاً بأصبعه الجريح فى حين قضى الديك وهو يتخبط على الأرض بكل قوة مُطْلِقًا صياحاً مصحوباً بالخرير .

كسر الغصن مرة أخرى بين يدى « بيرت » فألقاه بعنف وقال :

ـ من وقتها لم أَرَ ديكاً يُذْبَح ، ولم أذق لحم الدجاج . . وفى كل مرة أحاول التغلب على هذا الشعور تظهر لى صورة هذا الديك متخبطاً فى دمائه .

مضى « بيرت » فى كلامه قائلاً :

ـ إننى فكرت فى أمر الشنق ، وتخيلتُ التشابه بينه وبين ذبح الديك الذى ظللت أراه فى أحلامى منذ كنت طفلاً ، فماذا يحدث لو ذهبتُ معك لمشاهدة الشنق ؟ لقد قرأت عن سيدة بتر الحبل رأسها فى «أريزونا » أعتقد أن مشاهدتى لمثل هذه الواقعة يجعلها لا تفارقنى طوال حياتى .

صرخ « ريموند » بغضب :

ـ أنصحك بألاَّ تفكر فى مثل هذه الأشياء . . فليس الأمر كما تتصور ، لقد طلبت أن تذهب معى ، فإذا كنت لا تريد الذهاب فلا داعى لكل هذا التفسير.

حاول « بيرت » أن يكمل تفسيره ، ولكن ريموند قال : إنك جبان ليس إلاَّ .

وسار بخطوات واسعة إلى سيارته وقادها منفعلاً إلى مزرعته . . غطى السيارة ، وتحدَّث مع زوجته التى كانت تقطف الزهور :

ـ هل تعرفين « بيرت مونرو » الذى أراد الذهاب معى فى الأسبوع القادم لرؤية عملية الإعدام ؟

ـ نعم .

ـ إنه لا يريد الذهاب . . لقد فقد أعصابه . . إنه يخاف أن يرى الشنق .

ضحكت الزوجة وقالت :

ـ أنا شخصيًّا لستُ متأكدة من أعصابى ـ إننى أود أن أرى ذلك .

ـ أنتِ سيدة . . والمفروض أن يكون هو قويًّا كرجلٍ .

وفى الصباح التالى جلس « ريموند » فاقدَ الشهية على مائدة الإفطار ، فقال لزوجته :

ـ يجب أن أكتب إلى « آد » ، ولكننى لا أعرف ما أقول له ، فأنا أخشى أن أكون فى بداية الإصابة بنزلة برد لا تمكننى من الذهاب يوم الخميس .

فكرت الزوجة ثم قالت :

ـ لماذا لا تدعوه ليأتى هو إلينا ؟ إنه لم يزرنا إطلاقاً .

أشرق وجه « ريموند » :

ـ إنها فكرة جيدة . . سأبعث إليه ببطاقة أدعوه لزيارتنا .

ردت « مسز بانكس » :

ـ نستطيع أن تقيم له وليمة شواء .

أخرج « ريموند » قلماً وورقة وزجاجة حبر وبدأ يكتب ، ثم ألقى رأسه إلى الوراء وردد بلوم :

ـ لعنة الله على « مونرو » لقد تحملتُ الكثير من الصعاب من أجله . . ولكن أنَّى لى أن أعرف أنه جبان ؟

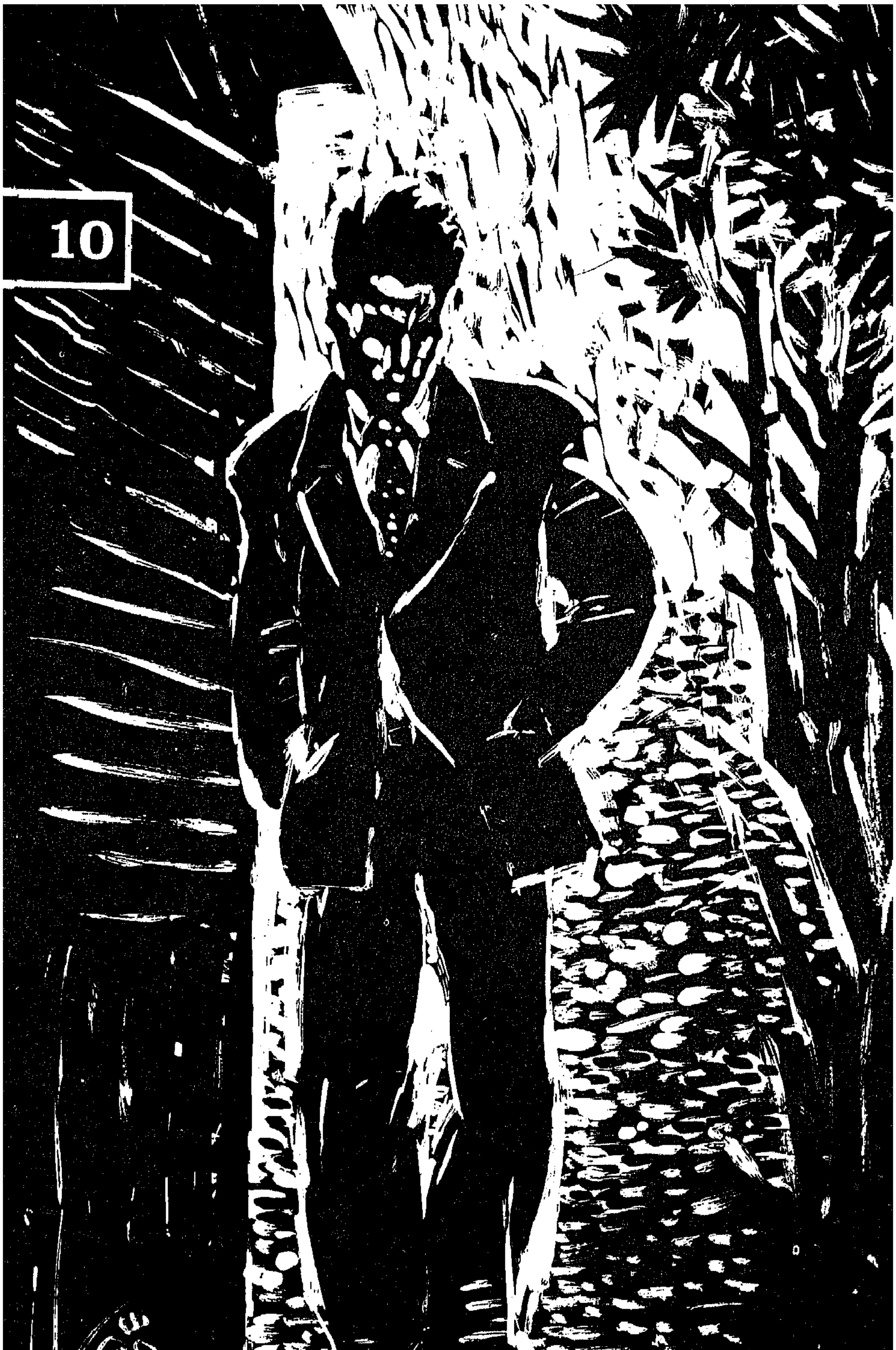
10

10

عَانَى « بات همبرت » كثيرًا من والِدَيه المُسِنَّيْن ، فعندما جاء للحياة كان أبواه فى منتصف العمر . . لما بلغ العشرين كانا قد أصبحا طاعِنَيْنِ فى السن ، حادَين فى الطباع صَعْبَى المراس .

وهكذا عاش « بات » حياته فى جو الشيخوخة المصحوب بالألم والمرض والانطواء ، وكان والداه يستخفّان بآرائه دائماً ويقولان له :

ـ إذا قُدِّرَ لكَ أن تعمّر طويلاً مثلنا ، فإن نظرتك للأشياء ستختلف كثيرًا عمَّا هى الآن .

كان الشيخان يجدان كل الفضائل فى الشيخوخة . . التقرب إلى الله . . العصمة . . الكرامة . . أما الشباب فلا خير فيه ، بل يجب أن يَحْمِلا للشيوخ كل الإجلال والإكبار . ولما بلغ « بات» السادسة عشرة تحمَّل كل أعباء المزرعة ، واكتفَى والده بالجلوس على كرسى هزاز بجوار المدفأة ، كان يصدر من فوقه أوامره وملاحظاته .

كان بيت « آل همبرت » قديماً يتكون من خمس حجرات : صالون بارد مغلق مرعب كالقبر ، وحجرة معيشة حارة مكتومة الهواء تمتلىء برائحة

المراهم والأدوية ، وغرفتان للنوم ، ومطبخ كبير . . كان الشيخان يجلسان تحيط بهما المساند على كرسيهما الهزازين . . ويشعران بالمرارة والتذمر إذا لم يأتِ «بات» من المزرعة عدة مرات ليملأ المدفأة بالحطب . . وظَلاَّ حتى وفاتهما يحقدان على « بات » لشبابه .

وعند وفاتهما كان « بات » قد بلغ الثلاثين ، وبرغم معاناتهما من الشيخوخة فإنهما قد تشبَّثَا بكل قوة بهذا الوميض الأخير وصارَعَا الموت طويلاً، وتوفيا والفارق بين رحيل الأم والأب شهر واحد

ظل « بات » يخدم والدته المتَسَلِّطَة فى سريرها لمدة شهرين وثلاثة أسابيع ، تتحشرج أنفاسها كلما حاولت التنفس ، ترمقه بنظرة اتهام من عينيها المتحجرتين ، وعندما ماتت كانت عيناها لا تزالان تتهمه بالتقصير.

ويوم وفاتها فُتِحَ باب الاستقبال للجيران الواجمين ، فى حين كان صوت بكاء وتشنج الأب « همبرت » العجوز يأتى عالياً من حجرته .

وبدأت فترة التمريض الثانية . فور الجنازة الأولى ، ثم توفى الأب بعدها بشهر . كان باب الاستقبال مغلقاً قبل ذلك لا يفتح إلاَّ للتنظيف الشهرى ، وكانت النوافذ أيضاً مغلقة لتحمى السجادة الخضراء من تأثير الشمس ، وكانت نسخة من الكتاب المقدس موضوعة فى وسط القاعة فوق مائدة رخامية أنيقة مذهبة الأرجل ، كانت هذه النسخة مجلدة بجلد وغطاء مطرز عليه صورة الفنان الشهير ميلليه « جرس الغروب » ، وكان على جانبى الكتاب المقدس إناءان من الزهور الصناعية . . وعلى الحائط ثلاث صور كبيرة ملونة فى أُطُر ذهبية .

وقف « بات » صامتًا أمام القبر والجيران يهيلون التراب ويجمعونه فوق القبر . .

وعادت النساء إلى العربات ينتظرن عودة أزواجهن . وسار الرجال إلى « بات » يُصافحوّنه مرددين كلمات العزاء . . ظلت العربات تختفى فى حين كان « بات » واقفاً وسط القبرين ناظراً إليهما . . فلم يبق مَنْ يطلب منه شيئاً .

كان الخريف قد أطل برائحته النفاذة ورياحه التى ما إنْ تهب حتى تخمد ، وعلى سور المقبرة كان يقف سرب من الحمام البرى ، فى حين تلاعبت الريح بورقة من جريدة قديمة ، ثم سمع باب صليل عجلات عربة هبط منها « آلن » وربط الجواد إلى السور وتقدم من « بات » قائلاً :

ـ لقد رأينا بأنه يجب أن تمضى الليل فى مكانٍ مّا ، وأننا نَوَدُّ أن نتناول العشاء معًا وتقضى الليل فى بيتنا إذا شئت .

ـ أفاق « بات» من ذهوله وقال :

ـ نعم يجب أن أغادر المكان فلا فائدة من بقائى . . إننى لم أتناول العشاء قط خارجت البيت ، وهما لم يكونا يحبان الخروج من البيت بعد حلول الظلام . . ولم يحبا نسيم الليل .

ـ إذًا من الأفضل أن نتعشى معًا فى منزلنا ، وهما لم يكونا حتى لا تعود إلى بيتك الخالى على الأقل هذه الليلة .

وسحب « آلن » « بات » من ذراعه وقاده إلى البوابة وقال :

ـ اتبعنى بعربتك .

كان العشاء يتكون من شرائح من اللحم البقرى البارد والبطاطس المقلية مع البصل ، وشطائر الخبز بالزبيب . راعت السيدة « آلن » أن تُكثر من الحديث عن الراحِلَيْنِ وطيبتهما ولطفهما ، ونزاهة الأب ، ومهارة الأم فى الطهى ، محاولة التخفيف عن « بات » الذى كان يعرف أنها تحاول مجاملته . . والحقيقة أنه لم يكن حزيناً لموتهما .

حاول « آلن » أن يقنعه بالمبيت عندهم ، فرفض ، وتمنى لهما ليلة سعيدة ، ومشى متفائلاً ليسرج حصانه . . كانت السماء مظلمة باردة ، وعلى الرغم من شروده فإنه كان يسمع وقع حوافر الحصان وصياح طيور الليل ، وخشخشة الأوراق اليابسة ، ولكن صوت والديه كان بالنسبة له واضحًا فها هو ذا صوت والده :

« غدًا سينتشر الصقيع ، إننى أكرهه بشدة » وهاهو ذا صوت والدته ترد :

« أشعر أن هنا ك فئرانًا فى القبو ، هل نصب لها بات المصائد؟ » .

كان البيت ساكناً موحشاً عندما وصل « بات » ، فأشعل المصباحَ ، وأوقد نارًا ليدفىء المطبخ ، وتهالك على كرسى ، وفكر فى أن ينقل فراشه إلى المطبخ ، وتهالك على كرسى ، وفكر فى أن ينقل فراشه إلى المطبخ لينام قرب المدفأة . . حمل فراشه إلى المطبخ الدافىء المضىء ، وبعد فترة أطفأ المصباح وأوى إلى فراشه . . كان يسمع فرقعة النار برقة فى المدفأة ، وكان البيت ساكناً ، ثم أخذ يسرح فى الأرواح الشريرة .

تحسس « بات » جسده فوجده باردًا متوترًا ، وتخيل أنه يسمع أصواتًا صادرة من حجرة المعيشة ، إلى صوت الكرسى الهزاز . . وشخير

العجوزين . . وراح البيت يُطقطق ، وبينما كان يُخَيَّل إليه أنه يستمع إلى تلك الأصوات ذُعر ذعرًا شديدًا ، وابتل رأسه وسَاقَاهُ بالعرق ، فتسلل من فراشه وأغلق الباب شاعرًا بوحشة مريرة .

نهض فى الصباح متذكرًا أن عليه ترتيب كل شىء ، وتنظيف المنزل . . لقد استثقل فتح باب غرفة المعيشة وما سيراه داخلها من آثار والديه على الكرسيين ، وروائح الشيخوخة ، والزهور الذابلة ، وبقايا الأدوية . . ولكنه كان واجباً يجب أن يؤديه .

أشعل النار وأعدَّ إفطاره ، وأخذ يشرب قهوته الساخنة ، وتعجب من أفكاره ، فقد سأل نفسه .

ـ لماذا يجب أن أفتح الحجرة . . ليس فيها ما يحتاج إلى رعايته . . وأحس بنفسه كولد صغير يهرب من المدرسة ليسير فى غابة كثيفة مُبْهِجَة ، ولكنه سمع صوت أمه الشاكى يتردد بداخله :

« بات ، يجب أن تنظف الحجرة . . أنت مهمل » . . غير أن صوت تمرده وثورته قد علا :

ـ لا ينتظر منى أحد أن أعمل شيئاً بعد الآن . . لن أذهب إلى غرفة المعيشة أبدًا .

وانتزع مفتاحها وألقاه وسط نبات الأشواك وراء المنزل ، وأغلق كل النوافذ .

لم تدم فرحته بالحرية طويلاً . . فكان عمله بالمزرعة يشغل وقته نهارًا ، ولكن قبل نهاية النهار كان يفتقد واجباته القديمة التى تستهلك وقته ، وكان يعرف أنه يخاف من البيت ومن الآثار المنطبعة على الوسائد .

وفى ليلة أعد « بات » عشاءه وجلس أمام المدفأة ، وغمرته موجة شجن، وأصغى إلى الأصوات الصادرة من البيت القديم ، والهمسات والفزع الخفيف ، فلم يستطع التحمل ، فخرج إلى الإسطبل ، وأخذ جواده وسار إلى المتجر العام لمراعى الفردوس ، وهناك وجد ثلاثة رجال حول المدفأة المستديرة يتأملون تجاعيدها وثناياها بغير تفكير ، وحينما اقترب أفسحوا له المكان للجلوس ، ولكن أحدًا لم ينظر إليه ، فقد منعتهم حالة الحداد من ذلك وجَلس « بات » على مقعده وهو يحملق فى المدفأة وقال :

ـ ذَكِّرُونِى أن آخُذَ طحيناً قبل الذهاب .

فَهِمَ الرجالُ ما يقصده ، فهو لا يحتاج إلى طحين ، ولكنه يتذرع بحجة . فتح « آلن » الغطاء وبصق على الجمر وهو يقول :

ـ البيت يبدو موحشًا جدًّا .

شعر « بات » بسعادة على الرغم من أن الملاحظه كانت هفوة ، وقال كمن يرد الجميل :

ـ أحتاجُ بعض التبغ ياسيد « آلن » .

بعد هذا غير « بات » طريقة حياته وأخذ ينشد الاختلاط بالناس عن عَمْدٍ ، فيعمل فى مزرعته نهارًا ، وفى الليل يصحب بعض الرجال ، وعندما كانت تُقام حفلات بالمدرسة كان أَوَّلَ مَنْ يأتى وآخِرَ مَنْ يرْحَل . وفى الانتخابات كان يبقى حتى تغلق الصناديق ، وفى أى اجتماع كان يحرص على التواجد ، وكان قد تدرب على اكتشاف كل ماهو مبشر فى التجمعات .

كان « بات » إنساناً عاديًّا ، كبير الأنف ، عريض الفكين ، كثير الشبه

بلنكولن فى شبابه ، وكان ذا أذُنين مكتظتين بالشعر ، وكان مُقِلاًّ فى حديثه، يعرف أن وضعه فى الاجتماعات لا أهمية له ، وكان يحاول تعويض هذا النقص بالعمل وترتيب الأشياء . . فيشترك فى اللجان التى تعد حفلات المدرسة الراقصة ، وزيارة أعضاء هذه اللجان لبحث الخطط وتزيين المدرسة وإعداد المقاعد والأطباق .

وإذا لم يجد فى إحدى الأمسيات اجتماعاً يذهب إليه كان يقود السيارة الفورد إلى « ساليناس » لحضور فيلمين سينمائيين فى ليلتين متتاليتين ، وفى الليلة الثالثة يظل وحيدًا فى البيت وهو يشعر بالملل ، بل والفزع من ذكريات كثيرة .

ظل « بات » عشرة أعوام يطوف بالوادى ناشِدًا الصحبة ، وانتُخب عضوًا فى مجلس إدارة المدرسة ، وانضم إلى الماسونيين والأتباع الفرديين فى «ساليناس » ، ولم يتغيب عن أى اجتماع ، وعلى الرغم من حبه للمخالطة فإنه لم يصبح جزءًا من أية جماعة ، فهو دائماً على الهامش ، لا يتكلم إلا إذا وُجِّه إليه الحديث ، وكان أهل الوادى يعتبرون وجوده ضروريًّا ، وكانوا يستغلونه دون رحمة ، ودون أن يعلموا أنه راغب فى ذلك . وعندما تنفض الاجتماعات يعود « بات » إلى بيته وهو يقود سيارته ، ثم يندفع إلى فراشه .

حاول « بات » أن ينسى الغُرف المريعة وراء الباب ، فكانت صورها تلتصق بذهنه ، بالغبار ، وأعشاش العناكب فى زوايا البيت ، وقطع الأثاث، كانت هذه الصورة تروعه فى فراشه ، كان هذا هو السبب فى إهماله لبيته .

وكانت إلى جوار البيت شُجيرة ورد « البانكسيا » الأبيض ،وقد ظلت

لسنوات خميلة صغيرة وفجأة تسلقت أغصانها واجهة البيت وغطت البوابة وتعلقت بالنوافذ المغلقة ، وفى عشر سنوات بدا البيت مملوءًا بالورود ، وكان المارة يتعجبون من جمالها وضخامتها .

كان « بات » يرفض التفكير فى البيت . . أما مزرعته فكانت جيدة ، وكان يعتنى بها كثيرًا ، وقد ادخر بضعة آلاف من الدولارات فى البنك لقلة مصروفاته . فالمزرعة تطرد الخوف من نفسه نهارًا ، فينسى العزلة والوحدة . كان يزرع الأشجار ذات الثمار الشهية ، وخاصة التوت والكرمة المظلة لجانبى طُرق المزرعة . وكان « بات » يبيع محصول « التوت » قبل أى مزرعة أخرى فى الوادى .

لما جاء « مونرو » إلى الوادى كان فى الأربعين من عمره ، وقد رَحَّبَ بهم كثيرًا كجيران ، فهو بيت جديد يمكنه أن يقضى فيه أمسياته ، وخاصة أن « بيرت مونرو » كان رجلاً بشوشاً ، فأخذ « بات » يتردد عليه ، وكان «بيرت » يستشير « بات » فى أمور الزراعة ، ولم يتنبه « بات » لماى مونرو ، تلك الفتاة الجميلة ، لأنه لا يتطلع إلى الناس سوى من منظور فك وحدته ، وطاردٍ للأشباح فى داخله .

وفى مطلع الصيف ـ وذات أصيل ـ بينما كان « بات » يعمل فى كرم التوت والعليق ، انحنى يحفر بين جذور شجيرات العليق التى كانت تنمو بسرعة ، غير عابىء بهبوط الليل ، فقد كان مدعوًّا على العشاء فى بيت «مونرو » ، ومع هذا سمع أصواتاً تتناهى إليه من الطريق ، عرف أنهما السيدة « مونرو » وابنتها « ماى » ، وفجأة سمع « ماى » تصيح بإعجاب :

ـ أُمّى . . تطلَّعِى إلى هذه . . أرأيت فى حياتك مثل هذه الخميلة الجميلة ؟ !

فأجابتها الأم :

ـ حقًّا . . أنها رائعة !

وواصلت « ماى » :

ـ تذكرتُ الآن بماذا تذكرنى . . إنها مثل البطاقة البريدية التى تحمل صورة بيت بديع من بيوت ولاية « فيرمونت » . البطاقة التى أرسلها العم «كيلر » ، وهذا البيت بالخميلة يشبه بيت الصورة ، وكم أهوى أن أرى ما بداخله .

ـ لا أملَ فى ذلك . . فالسيدة « آلن » تقول : إن أحدًا من أهل الوادى لم يدخل البيت منذ وفاة والد « بات » ووالدته منذ عشر سنوات . ولم تقل السيدة « آلن » إنَّ داخلَ البيت بديعٌ .

ـ لابد أن يكون بديعاً كخارجه خاصةً بيت تُزينه مثل هذه الخميلة ، وأتمنى أن يدعونى السيد « بات » لأراه يوماً .

ابتعدت «ماى » وأمها عن مدى السمع ، وتوارتا عن الأنظار ، فنهض « بات » وتطلع إلى الخميلة الجميلة ، فلم يكن يراها كذلك ، وقال لنفسه :

ـ بيت بديع . . ويشبه بيتاً جميلاً من بيوت « فيرمونت » . . وخميلة جميلة .

وتراءت له صورة الردهة الكريهة ، فعاد بسرعة إلى عمله بين شجيرات التوت والعليق مُحاوِلاً إبعاد صورة البيت عن ذهنه .

لكن كلمات « ماى » كانت تتردد فى ذهنه من جديد : « لابد أن يكون بديعاً » . .

وتساءل « بات » عن بيوت « فيرمونت » من الداخل ، فهو يعرف بيت « جون هوايتسايد » الفخم القوى ، كما يعرف بقية بيوت سكان الوادى ، وكم أُعجب بخمائل الزهور فى حديقة بيت « بيرت مونرو » ، ولكنَّ عينيه لم تقعا على بيت بديع ، أو يمكن القول بأنه بديع .

وراجع فى ذهنه صور بيوت عرفها فلم يَرَ بينها البيت الذى لابد أن تكون « ماى » قد قصدته . . وتذكر صورة رآها فى مجلة لغرفة ذات أرض مصقولة ، وأثاث خشبى أبيض ، وهى لابد لبيت فى « فيرمونت » . . أعجب بتلك الصورة ، ولعلها تلك التى قصدتها « ماى » .

تمنى لو تمكن من رؤية البطاقة البريدية التى تحمل صورة بيت «فيرمونت» ، ولكنه خشى أن يعلم « آل مونرو » أنه كان يسترق السمع إلى حديث السيدة « مونرو » وابنتها إذا طلب رؤية البطاقة .

كان يفكر وهو يمتلىء بالحماس لرؤية بيت بديع يشبه بيته ، فأخذ يمشى أمام منزله .

الخميلة رائعة حقًّا ، فهى تسدل خيمة خضراء تظلل المصطبة كما تظلل النوافذ المغلقة بوشاح من النجوم البيضاء . . عجب « بات » كيف أنه لم يلحظ ذلك من قبل .

فى تلك الليلة فعل شيئاً لم يكن بإمكانه أن يفكر فى عمله ، فقد توجه إلى بيت « آل مونرو » و اعتذر عن عدم تمكنه قضاء السهرة عندهم ، مبررًا ذلك بقوله :

ـ لَدَىَّ بعض العمل الذى يقتضى منى الذهاب إلى « سالنياس » وإلاَّ تعرضت لخسارة مالية .

وعندما وصل إلى « ساليناس » اتجه فورًا إلى المكتبة العامة وسأل :

ـ هل لديكم صورة عن بيوت « فيرمونت » . . البيوت البديعة ؟

ربما تجد بعضها فى المجلات . . تَعَالَ فسأريك أين تبحث عنها .

اضطر موظفو المكتبة إلى تنبيهه عندما كانوا على وشك إغلاقها ، فقد استغرق فى البحث ، ولكنه وجد صورًا تمثل مداخل البيوت . . كانت الغرف مبنية بشكل جمالى ، فكل قطعة زينة وكل قطعة أثاث والأرضيات والجدران تؤلف وحدة منسجمة فيما بينهما تجَاوَبَ فى أعماقه مع الصور بترتيبها ألوانها وخطوطها .

لم يكن يعلم أن الغرف هكذا ، تؤلف وحدة متكاملة ، ووراءها فكرة .

وقبل أن تغلق المكتبة أبوابها وقع على صورتين متجاورتين ، إحداهما تمثل غرفة يعرفها ، والثانية تمثل غرفة مختلفة .

واشتاق « بات » إلى الذهاب إلى البيت لأول مرة ، ليتمدد فى فراشه هو يفكر .

لم يتمكن « بات » من النوم ، فنهض وأشعل المصباح ليتفحص رصيده المصرفى . وقبل أن يطلع الصباح ارتدى ثيابه وأعد إفطاره ، ونظر إلى الغرفة وإلى بابها الموصود ، فبرقت عيناه لحظة وهو يقول لنفسه :

ـ سيكون داخل البيت مظلمًا ، والأفضل أن أفتح النوافذ على مصاريعها .

وعندما بزغ ضوء النهار أخذ عتلة فتح بها النوافذ على اتجه إلى المطبخ قائلاً :

ـ لن تستمر أكثر من لحظة ، فسأفتحه أيضاً .

وهوى بالعتلة على القفل فحطمه فسقط الباب ، وظهرت الغرفة كئيبة ، كان جوها معكرًا بأعشاش العناكب ، ورائحة كريهة تهب من الكرسيين اللذين على جانبى الموقد الصدىء .

اندفع بسرعة عبر الغرفة ليزيح أعشاش العنكبوت .

كانت الردهة مظلمة ، لأن مصاريع نوافذها كانت مغلقة ، ولكن «بات» يعرف مكان المائدة منذ عشرة أعوام ، رفع المائدة والكتاب المقدس معاً ، ولكنه اضطر لاستخدام العارضة الحديدية فى فتح نوافذ الردهة ، وألقى بالأثاث والسجاد ، ورش الماء على الجدران والزوايا ، وجمع الأثاث كله وأضرم فيه النار ليحترق دون دخان ، ولم يتصاعد اللهيب إلا بعد أن صَبَّ كمية من الجاز ، ففرقعت الكراسى ، وأخذ « بات » يرقب الموقف بغبطة ، وصاح يُخاطب قطعَ الأثاث المحترقة :

بودّكِ لو بقيتِ سنوات وسنوات ! تصورتِ أننى لن أحرقكِ ، سترين ما سأفعله بالمتاع الكريه .

احترقت السجاجيد الخضراء وخلفت جمرًا متوهجًا ، وتهشمت الأوانى والزّهريات وتناثرت ، و « بات » يرقب ويميز أزيز سوائل الأدوية وهى تغلى وتفور . شعر بأنه يشرف على عدو يلفظ أنفاسه ، فلم يترك الكومة إلاّ بعد أن اكتمل احتراقها ، وتحولت إلى جمر مبعثر . وكانت جدران الردهة قد تشبعت بالماء بحيث وقع الورق .

بعد ظهر ذلك اليوم قاد « بات » سيارته إلى « ساليناس » واشترى جميع ما وجده من المجلات الخاصة بزخرفة البيوت . وفى المساء ـ بعد العشاء ـ

بدأ يقلب صفحاتها إلى أن وجد فى إحداها صورة غرفة بالغة الكمال . ورأى أنه يستطيع أن يعد مثلها بسهولة بعد فتح غرفتى الصالون والاستقبال، فيحصل على غرفة طولها ثلاثون قدماً ، وتدهن الأرضية ، فقال فى نفسه :

ـ سأبدأ غدًا .

واستوقفه خاطر آخر . . إنها تظن أن الغرفة جميلة ، ولا أستطيع أن أعدها الآن وإلاَّ ستعرف أننى سمعتها ، وعَلىَّ أن أفعل هذا فى الخفاء .

ضحك « بات » وقال :-

ـ سأقوم بالعمل ليلاً .

سعد بفكرة تغيير البيت سرًّا ، فهو يستطيع العمل وحده دون أن يشعر به أحد ، وعندما ينتهى يمكنه أن يدعو البعض حتى يتصوروا أن البيت كان دائماً هكذا . وهكذا نظم حياته .

إنه يعمل فى المزرعة نهارًا ، وفى الليل يهرع إلى البيت يملوءه شعور بالغبطة . كانت صورة الغرفة الكاملة معلقة فى المطبخ ، وكان ينظر إليها عشرين مرة فى اليوم ، وكان وهو يبنى قاعدة النوافذ ويضع الورق الرمادى ويطلى قطع الأثاث الخشبية يرى صورة الغرفة وقد اكتملت .

وكان يقود سيارته إلى « ساليناس » إذا احتاج إلى أدوات ومواد فى أثناء الليل ، ويستمر فى عمله حتى منتصف الليل ، ويذهب إلى فراشه مبهورًا سعيدًا .

افتقده سكان الوادى فى اجتماعاتهم . وسألوه فى المخزن عن سبب تغيبه ، فكان العذر جاهزًا :

ـ إننى أتلقى بعض الدروس بالمراسلة ، وأمضى الليل فى الدراسة .

كانوا يقابلون هذا القول بابتسامة ، فهم يعلمون أنه لا يطيق الوحدة .

ـ ماذا تدرس يا « بات » ؟

ـ ماذا ؟ . . إننى أتلقى دروسًا فى البناء .

ـ يجب أن تتزوج يا « بات » . . إنك تتقدم فى العمر .

فيغضب وهو يقول :

ـ كَفىَ سخفاً .

وكان فى أثناء عمله يتخيل أن الغرفة اكتملت بوضع الأثاث ، والمدفأة تشتعل ، ويقول فى نفسه

ـ سأذهب إلى بيتها وأفاجئها بالقول : سمعت أنكِ تُحبين بيوت «فيرمونت » . . لا . . لا . . لا أستطيع أ أقول ذلك ، بل سأقل : هل تحبين بيوت « فيرمونت » ؟ حسناً ، لدى غرفة من نوع غرف « فيرمونت » .

ولكنه لم يرضَ بهذا القول ، فلم يكن قد اهتدى بعد إلى الطريقة المثلى لإغرائها بالمجىء إلى بيته . فانتهى إلى شطب هذا الجزء على أن يعود إلى التفكير مرة أخرى :

« إنها الآن تدخل المطبخ الذى لم يتغير ، حتى تكون مفاجأة الغرفة أعظم ، وستقف أمام الباب الذى سيُفتح على مصراعيه . . الغرفة مظلمة ، ولكن بها بعض الأضواء الخافتة ، فى حين تتوهج النيران كجدول عريض ، وتنعكس المصابيح على الأرض ، وكذلك تتوهج الأوانى القصديرية مع قطع الزينة ، فينبعث الشعور بالدفء والراحة » .

امتلأ صدر « بات » بالسعادة وهو يتصور ما سيحدث ، وأخذ يستكمل تصوره : « إنها تقف الآن على الباب ، ولن تقول شيئاً ، وقد تشعر بميل إلى الصياح ، وقد تقف دقيقة أو دقيقتين مكتفية بالتطلع ، ثم أقول لها : ألا تودين أن تدخلى وتستريحى قليلاً ، فتبدأ فى الكلام عن الغرفة بعبارات متقطعة مضحكة ، ولكننى سأتغاضى عن ذلك ، فأقول لها : إننى أحببت دوماً هذه الردهة ، لقد خطر ببالى أنكِ ستحبين أن تريها يوماً . ثم أختتمُ ما يمكن أن يحدث بهذا الوصف ، وتجلس « ماى» على المقعد المائل الظهر أمام المدفأة ، وتضع يديها الجميليتين الريَّانتين فى حضنها ، وقد حلت فى عينها نظرة شاردة » .

لم يصل « بات » إلى أكثر من ذلك ، فقد عاد إلى وعيه .

بعد ثلاثة أشهر انتهت الغرفة ، ووضع « بات » صورة المجلة فى محفظته ، وذهب إلى « سان فرانسيسكو » ، وفى مكتب الأثاث نثر الصورة على المنضدة هو يقول :

ـ أريد أثاثاً كهذا .

ـ لا تعنى بالطبع الأصل .

ـ ماذا تعنى بالأصل ؟

ـ القطع الأثرية القديمة ، فلا يمكن الحصول عليها بأقل من ثلاثين ألف دولار . أسقط فى يد « بات » ، وبدا له أن غرفته قد انقرضت ، فقال :

ـ لم أكن أعلم .

ولكن المدير طمأنه قائلاً :

ـ نستطيع أن نزودك بنسخ جيدة .

ـ هذا جميل . . كم ستكلف النسخ المنقولة ؟

ـ زهاء ثلاثة آلاف دولار .

أطرق بات مفكرًا فى مسألة اقتصاد النقود .

ـ ومتى يمكن إرسالها ؟

كان ينتظر إشعار وصول الأثاث إلى « ساليناس » ، فمسح الغرفة حتى لمعت كبحيرة ساكنة . وأخيرًا وصلت قطع الأثاث إلى مخزن الشحن ، فقام بأربع رحلات سرية أثناء الليل إلى « ساليناس » .

فك « بات » صناديق الأثاث فى المزرعة ، حمل الكراسى والطاولات ورتبها فى أماكنها مقلدًا الصورة . وفى تلك الليلة كانت النار تشتعل ، والمصابيح تعكس ضَوْءَها على الأرض ، وبدا النمر المنسوج على البساط المعلق فوق المدفأة كمن يرتعد فى ضوء اللهب المتراقص .

ذهب « بات » إلى المطبخ وأغلق الباب ، ثم فتحه ببطء وأخذ يتطلع إلى الغرفة التى كانت تشع بالدفء . . وبدت الأوانى القصديرية المتلألئة أفخم مما كان يظن ، فى حين كانت أطراف الأطباق المصفوفة فى الخزانة المكشوفة تعكس نجمات من النور ، وللحظة وقف بات عند مدخل الباب يحاول أن يكسب صوته الرنة الملائمة .

ـ كم أحببتها دائماً !

قالها « بات » ثم استطرد متخيلاً :

ـ لقد خطر على بالى بأنكِ قد تحبين أن تريها .

ثم أطرق وتوقف ، فقد ألمَّ به خاطر مفزع (إنها لا تستطيع أن تأتى

وحدها إلى بيت رجل أعزب فى الليل ، فألسنة الناس طويلة ، ثم إنها لن تفعل ذلك) .

أُصِيبَ بخيبة أمل مريرة . . يجب أن تأتى أمها معها ، ولكنها قد تعرقل الخطة بوقفها فى الخلف .

أصبح « بات » مستعدًّا للأمر فيما عدا هذا الشعور الذى أوقفه . . وتوالت عدة أيام فكان المساء يطوى النهار وهو يُرجىء دعوتها للحضور ، ومع هذا أخذ يستمر فى رسم التمثيلية متخيلاً أين ستقف ؟ وماذا ستقول ؟

انقضى أسبوع وهو لا يزال يرجىء الزيارة التى ستؤدى إلى مجيئها لرؤية الغرفة ، وذات أصيل ، استجمع شجاعته وقال لنفسه :

ـ لا أستطيع أن أرجىء الأمر إلى الأبد ، والأفضل أن أذهب الليلة .

بعد العشاء ارتدى أفخر ما عنده واتجه نحو بيت « مونرو » الذى لم يكن بعيدًا ، لن يدعوها الليلة ، فالنار يجب أن تكون مشتعلة والمصابيح منيرة عند قدومها ، فى حين أن الليلة باردة ، والظلام حالك . شق « بات » طريقه وسط الغبار ، وتصور باستياءٍ كيف سيبدو حذاؤه المصقول .

كان بيت « مونرو » يشع بأضواء كثيرة ، وأمام البوابة وقفت سيارات عديدة ، فتساءل « بات » :

ـ أهو حفل راقص ؟ إذًا أدعوها فى ليلة أخرى ، فلن أستطيع ذلك فى حضرة الناس .

وللحظة تردَّد فى العودة ، وقال فى نفسه :

« قد يبدو الأمر سخيفًا إذا دعوتها فى أول مرة آراها فيها ، بعد عدة شهور ، فقد يساورها الشك » .

وعندما وصل إلى البيت أمسكه « بيرت مونرو » من يده هاتفاً :

ـ « بات همبرت » ! أين كنت مختفياً يا « بات » ؟

ـ كنت أدرس ليلاً .

ـ من حسن الحظ أنك أتيت ، فإننى كنت أنوى أن أمُـرَ بِكَ غَدًا . . لا شك أنك سمعت الأنباء .

ـ أى أنباء ؟

ـ ماذا ، « ماى » و « بل هوايتساید » سيتزوجان يوم السبت المقبل ، وكنت أنوى أن أطلب منك المساعدة فى حفل الزفاف إنه سيقتصر على الأهل وتقديم المرطبات ، فأنت تساعد فى الحفلات المدرسية .

وأمسك بذراع « بات » وحاول أن يقوده إلى حيث تنطلق أصوات كثيرة من الغرفة الكائنة فى نهاية القاعة .

قاومه « بات » بحزمٍ وقال :

ـ رائع يا « مستر مونرو » ، هل قلت يوم السبت المقبل ؟ بالطبع تسعدنى مساعدتكم ، ولكننى لن أستطيع البقاء الآن ، يجب أن أعود إلى المخزن حالاً.

صافحه ثانية وسار متجهًا نحو الباب .

وفى غمرة شقائه وتعاسته ود لو يختفى لبرهة ، أو يلجأ إلى جحر مظلم لا يراه أحد . وكان طريقه باتجاه بيته ، ذلك البيت المظلم الذى تركه مقفراً كئيباً ، فاتجه إلى مستودع الغلال وصعد بخطوات وئيدة السلم القصير ، واضطجع على اليمين ، وقد تقلص ذهنه وأجدب بفعل خيبة الأمل ،

وشعر بأنه قبل كل شيء لا يرغب فى الدخول إلى البيت ، فلقد خشى أن يقفل الباب مرة أخرى ، وأن تدخل روحا والديه فى الغرفة الجميلة أو فى المطبخ لتسكنا فيهما ، أدرك أنه لن يحتمل نظرتهما وهما يحدقان بالنار !

11

11

عندما وصل « ريتشارد هوايتسايد » إلى الغرب الأقصى من أجل أعمال التنقيب عن الذهب ، تخلى عن هذا الهدف قائلاً :

ـ الأرض لا تُعطى إلاَّ محصولاً واحدًا من الذهب ، فإذا اقتسمه ألف فإنه لن يكفى أحدًا منهم زمناً طويلاً ، إذًا هى تجارة خاسرة .

طاف « ريتشارد » هضاب « كاليفورنيا » وسهولها وفى مخيلته عزم أكيد على تأسيس بيت لأولاد لم يأتوا بعد ، ولأحفاد لا يزالون فى عالم الغيب ، ولم يكن وقتئذ إلاَّ قليل من الناس فى « كاليفورنيا يشعرون بمسئولية تجاه ذريتهم .

وفى مساء يوم صحو قاد عربته بجواديها إلى أعالى الهضاب المحيطة بمراعى الفردوس ، فأوقف عربته وأخذ ينظر إلى الوادى الأخضر ، وهنا عرف « ريتشارد » أنه وجد بيته المنشود ، فكان قد مر أثناء تجواله فى شتى أنحاء البلاد بالكثير من البقاع الجميلة دون أن تبعث أى منها فى نفسه هذا الشعور بكمالها . تذَكَّرَ المستعمرين فى أثينا ومكدونيا وهم يبحثون عن أرض جديدة وَصَفَتْهَا لهم النبؤات الغامضة ، وتخيل أفراد شعب الأزتيك يتهادون وراء نسرهم الهادى ، فحدَّث نفسه قائلاً :

ـ ثمة بشير بأن الأمر سيبلغ حد الكمال ، وهذا هو المكان المنشود الذى يمكننى أن أُحَدِّثَ أولادى عنه .

رفع بصره إلى السماء فرآها خالية من الغيوم والطيور . وهبت نسمات المساء على الهضاب فارتجفت أغصان السنديان وكأنها تشير بحذر إلى الوادى ، فى حين حمل إعصارٌ صغير على سفح الهضبة بضعةً من أوراق الشجر وتقاذفها إلى الأمام ، فضحك « ريتشارد » قائلاً :

ـ ما هو الجواب ؟ إن مدناً عظيمة تأسست من الآلِهَة ليست أكثر وضوحاً من هذه .

ترجَّل « ريتشارد » من العربة بعد برهة ، وحَلَّ جَوادَيْه اللَّذَيْنِ توجها لتوهما بخُطًى وئيدة إلى العشب الكثيف النابت على حافتى الطريق ، فتناول « ريتشارد » عشاءً من اللحم المقَدَّد والخبز ، ثم فرد ملاءته فوق العشب على سفح التل . وما إن تكاثف ظلام الغسق الأغبر فى الوادى حتى استلقى على فراشه يحدق بمراعى الفردوس التى ستصبح موطنه . لقد وقع اختياره فى الجهة القصوى قرب حرش من السنديان على بقعة جميلة ، تقوم خلفها هضبة صغيرة ، ينحدر على سفحها أخدود صغير لم يشك فى أنه ساقية . .

كانت جيوش الليل تهزم ما تبقى من فلول الغَسَق الخافتة الضوء عندما حانت من « ريتشارد » التفاتة نحو الوادى ، فرأى بيتاً جميلاً أبيض اللون تمتد أمامه حديقة أنيقة مزهرة ، ولمح البرج الأبيض لخزان المياه . . وفى البيت كانت النوافذ تشع بأضواء صفراء خافتة . . أضواء النواسات التى تهدى الضيوف ، وتدل على أن البيت مضياف . وانفتح باب المنزل فخرج منه

جَمْعٌ من الأولاد إلى الشرفة يحدقون فى الظلام المتكاثف ، ووجّهُوا أبصارهم بنوع خاص إلى التل حيث كان « ريتشارد » مستلقيًا على مُلاءته ، وبعد برهة عادوا فدخلوا المنزل وأغلقوا الباب خلفهم . . ومع انغلاق الباب غاب البيت والحديقة وخزان القصدير الأبيض من أمام « ريتشارد» ، فتنهد بغبطة واستلقى على ظهره محدقاً بالنجوم المتراقصة فى السماء .

ظل « ريتشارد » أسبوعاً يطوف بشراسة فى أنحاء الوادى ، ثم ابتاع مائتين وخمسين فداناً فى « مراعى الفردوس » ، وذهب إلى « مونتيرى » لتسجيل صَكِّ ملكيتها ، وعندما تأكد من أنها أصبحت ملكًا له قام بزيارة مهندس معمارى واستغرقت أعمال البناء وتأثيث البيت وحفر البئر وبناء برج الخزان ستة أشهر كاملة ، وظل العمال يعملون فى مزرعة «هوايتسايد » طيلة السنة الأولى من امتلاكه للأرض . غير أن هذا الإجراء أقلق أحد الجيران ، فقصد إلى المالك الجديد قائلاً :

ـ هل تنوى يا سيد « هوايتسايد » أن تأتى بأسرتك ؟

فأجاب « ريتشارد » :

ـ ليس لى أسرة ، فوالداى قد توفيا وليس عندى زوجة!

ـ لماذا إذًا تبنى بيتاً كبيرًا كهذا ؟

تجهم وجه « ريتشارد » بالعبوس وهو يقول :

ـ سأعيش هنا ، لقد جئت لأبقى ، وسيسكن أولادى وأحفادى وأولادهم فى هذا البيت . كثيرون من « آل هوايتسايد » سيولدون هنا ، وسيموت الكثير منهم هنا . وسيبقى هذا البيت صالحاً قائماً مدة لا تقل عن الخمسمائة عامٍ إذا ما لقى العناية اللازمة .

فقال الجار :

ـ لقد فهمت ما تعنى ، ويبدو الأمر عظيماً ، غير أننا لا نعيش هنا حسب هذه الطريقة ، فنحن نبنى كوخاً صغيرًا نضيف إليه البناء إذا غَلَّتِ الأرض ربحاً ، فليس من المستحسن إنفاق الكثير من النقود فى مكان واحد ، إذ قد نودُّ الانتقال منه يوماً .

فصرخ « ريتشارد » :

ـ لا أريد الانتقال ، ولهذا ترانى أقوى البناء ليحول دون ذلك ، سأبنى كياناً من القوة بحيث لا أستطيع أنا ولا ذريتى الانتقال منه . وزيادة فى الحيطة فَأُدْفَنُ هنا عندما أموت ، لأنه يصعب على الناس أن يهجروا مدافن الآباء .

وانفرجت أسارير وجهه وهو يستطرد :

ـ ألا ترى أيها الرجل ما أصنع ؟ إننى أؤسس سلالة جديدة ، إننى أبنى عائلة ومقرًّا لعائلة لن يبقيا إلى الأزل ، ولكن سيبقيان عدة قرون على الأقل، يسرنى أن أعرف ـ وأنا أبنى هذا البيت ـ أن ذريتى ستسير على أرضه، وأن أطفالاً لم يُولدوا بعد أجدادُ أجدادهم سيولدون فيه ، سأزرع بذرة التقاليد مع البيت .

كانت عينا « ريتشارد » تلمعان وهو يتكلم ، وأصوات مطارق النجارين ترافق كلماته وكأنها تبرز قوتها .

اعتقد الجار أنه يُحَدِّثُ مجنوناً ، ولكنه أحس بنوع من الإجلال نحو هذا النوع من الجنون ، وود لو حيَّاه بطريقة مّا ، فلو لم يكن أمريكيًّا لرفع أصابعه

إلى طرف قبعته ، فقد كان لهذا الجار ابنان يحتطبان على بُعد ثلاثمائة ميل من منزله ، ابنة متزوجة فى ولاية « نيفادا » فَشَمْل العائلة قد تفرق قبل أن يبدأ .

بنَى « ريتشارد » بيته من الخشب الأحمر الذى لا يهترىء مقتبساً طراز البيوت من « نيو إنجلند » الجميلة ، وكتحية لمناخ « مراعى الفردوس » احاط البناء كله بشرفة واسعة ، وصنع السقف من الخشب مؤقتاً حتى تصل الباخرة من « بوسطن » وهى تقل شحنة البلاط اللازم لبناء السقف المتين . خلع « ريتشارد » ألواح الخشب واستبدل بها البلاط الشرقى ، فقد كان للسقف أهمية رمزية كبرى عند « ريتشارد » ، فى حين كان قِبْلَة أنظار سكان الوادى وموضع فخرهم ، ولهذا فإن السقف جعل من « ريتشارد » المواطن الأول فى الوادى ، فالرجل قوى ثابت كبيته ، لا ينوى أن يهرع إلى أى منجم ذهب جديد ، ولماذا يفعل وسقف بيته من البلاط ؟ أضف إلى ذلك أن الرجل مثقف وخريج جامعة « هارفارد» ، وهو ثرى أيضاً ، وله من الإيمان ما جعله يبنى بيتاً كبيرًا فخماً فى الوادى . إنه خليق بأن يحكم الأرض ، فهو رب عائلة ومؤسسها ، وسقف بيته من البلاط . وبسبب سقف البلاط هذا زاد اعتبار « مراعى الفردوس » فى أعين الناس . ولو كان « ريتشارد » تساوره الرغبة فى الوجاهة لكان بناء سقف بيته من البلاط أعظمَ توفيقٍ يحقق مراده ، فقد كان يلمع تحت المطر المنهمر، ويسطع كالمرآة تحت الشمس .

أخيرًا تم بناء البيت ، ويدأ عاملان فى تهيئة الأرض للبذور ، فى حين كان قطيع صغير من الماشية يرعى العشب الأخضر على حافة التل وراء البيت .

علم « ريتشارد » أن استعداداته قد اكتملت ولم يبق عليه سوى الزوجة ،

وعندما وصلته رسالة من صديق تربطه به قرابة بعيدة يقول فيها إنه وصل مع زوجته وابنته إلى « سان فرانسيسكو » وأنه يسعده أن يراه ، أدرك أنه ليس بحاجة لأن يبحث بعد ذلك عن الزوجة المنشودة ، فقد عرف قبل سفره إلى « سان فرانسيسكو » أنه سيتزوج تلك الابنة فهى ملائمة له تماماً ، فالدم الذى يربط بينهما بعيد ولن يسىء إلى ذريتهما .

وعلى الرغم من أنهما قضيا المعاشرة الطبيعية قبل الخطبة ، فقد سويت المسألة بمجرد لقائهما ، كانت « أليسيا » سعيدة بأن تتخلص من سيطرة والدتها وبأن تبدأ إمبراطورية منزلية خاصة بها . لقد شيد البيت من أجلها ، فلم يمضِ أربع وعشرون ساعة على وجودها فيه حتى كانت قد فرشت رفوف المئونة بالأوراق ، تماماً بطريقة والدة « ريتشارد » .

أدارت « أليسيا» البيت بالطريقة القديمة المريحة التى لا تتغير بدورانها وتوقيتها ، الغسيلُ يوم الاثنين ، والكَىُّ الثلاثاء ، وتنظيف السجاد مرتين فى العام ، وإعداد المربات والمخللات كل خريف .

وسرعان ما ازدهرت المزرعة ، فازداد عدد الغنم والبقر ، ونمت الزهور والورود فى الحديقة ، وأشرقت « أليسيا » على أن تضع مولودها الأول .

كان « ريتشارد » يعلم أن كل هذا سيحدث ، فقد توطدت السلالة التى حلم بها ، واصطبغت مداخن البيت ببعض البقع السوداء ، وكانت المدفأة فى غرفة الصالون تملأ البيت من الدخان المتضوع برائحة خشب البخور ، فيحين تحول لون غليونه الذى أهداه إليه حماه من لون أبيض ناصع إلى أصفر قاتم . عامل « ريتشارد » زوجته أثناء انتظار الطفل برفق كما يعامل المريض تقريباً ، فعندما كانا يجلسان مساءً أمام المدفأة كان يلف

قدمها ، وكان أشد ما يخيفه هو أن يحدث لها مكروه أثناء الحمل ، وكانا يتكلمان عن الصورة التى يجب أن تتأملها أثناء الحَمْل - «الوحم » - لتؤثر فى مظهر الجنين ، وهيأ لها مفاجأة ، إذ أرسل إلى « سان فرانسيسكو » طلب نسخة برونزية صغيرة عن تحفة « ميكايل أنجلو » .

وعلا الاحمرار وجه « أليسيا » وهى ترى التمثال ، ولكنها سرعان ما أولعت به ، فكانت تضعه على المائدة الصغيرة قرب فراشها عند النوم ليلاً ، أما أثناء النهار فكانت تنقله معها من غرفة إلى غرفة وهى تقوم بترتيبها ، وتضعه مساء على رف المدفأة فى غرفة الصالون . وكثيرًا ما ابتسمت ابتسامة اللهفة وهى تتأمل أعضاءه المتناسقة القوة ، فقد كانت واثقة من أن طفلها سيكون مثله تماماً .

جلس « ريتشارد » قُربها وهو يربت يَدَهَا . كانت تحب أن تشعر بيده تمر فوق راحتها بثبات دون أن تدغدغها ، وحدثها بهدوء :

- قد زالت اللعنة عنا . . أتعرفين يا « أليسيا » أن أهلى وأهلك عاشوا فى زمان مَضَى فى منزل واحد لمدة ١٣٠ عاماً ؟ لقد أخبرنى والدى ذات مرة أن ٧٣ طفلاً وُلدوا فى ذلك البيت ، وأن العائلة بقيت تنمو وتزداد حتى زمن جدى ، فقد كان والدى طفلاً وحيدًا . وكنت أنا الطفل الوحيد فى العائلة، مما سبب تعاسة لوالدى ، فتوفى وهو فى الستين من عمره . . ولما بلغت الخامسة والعشرين لم أكن قد بدأت أحيا، احترق بيتنا الريفى دون أن أدرى سبباً لنشوب النار فيه .

وضع يدها برفق كما لو كانت حيواناً ضعيفاً ضئيلاً على ساعد المقعد ، ثم قام إلى المدفأة وأعاد جمرة كبيرة سقطت إلى أرضها ، وأمسك من جديد

بيد زوجته . فتوجهت « أليسيا » بابتسامة إلى التمثال فوق المدفأة وأكمل «ريتشارد » حديثه بصوت رقيق أجَشّ ، كما لو كان يأتى عبر تلك الأزمنة السحيقة .

وعلى مر السنين أصبح بإمكان « أليسيا » أن تعرف من حركة رأسه وتعبير وجهه ورنة صوته أنه سيتكلم عن الأزمنة القديمة . فزمن « هيرودوت » و«كزينوفن » و « توسيدايدس » كانت من خصوصياته ، فى حين كانت بالنسبة لأهل الغرب الجهلاء جديدة ، وكأنه ابتدعها بنفسه .

كان يعيد قراءة حروب الفرس ، حرب طروادة وغيرها مرة كل عام . . ومر بيده على راحة « أليسيا » بشىء من الحزم هذه المرة وهو يقول :

ـ عندما كانت المصائب تتوالى على مدينة مّا فى الأزمنة القديمة كان أهل المدينة يعتقدون أن اللعنة حلت بهم ، أو أن آلهة قد صَبَّتْ جامَ غضبها فوقهم ، لذلك كانوا يضعون كل ممتلكاتهم المنقولة فى السفن ويبحرون بحثاً عن مكان جديد ليشيدوا فيه مدينة جديدة ، تاركين مدينتهم القديمة خاوية خالية مفتوحة لمن يريد أن يأخذها .

وقالت « أليسيا » مقاطعة :

ـ هَلاَّ أعطيتنى التمثال يا « ريتشارد » فإنى أشعر أحياناً بميل لحمله بيدى .

قفز « ريتشارد » فوضع التمثال فى حضنها ثم استطرد :

ـ اسمعى يا « أليسيا » . . لم يُولد فى العائلة قبل أن يحترق البيت غير طفلين خلال جيلين . . لذلك وضعتُ كل ممتلكاتى فى سفينة وابحرت غربًا لأؤسس بيتاً جديدًا . إنكِ تعرفين أنى أضعتُ بيتاً استغرق بناؤه ١٣٠

سنة ، وما كان بوسعى أن أعوضه ، فقد كان بناءُ بيتٍ جديد فوق تلك الأرض القديمة مؤلمًا جدًّا بالنسبة لى . وعندما رأيت هذا الوادى عرفت أنه سيكون مقر العائلة الجديد ، وهاهى ذى الأجيال تتكون لتطل علينا ، إننى سعيد حقًّا يا « أليسيا » .

ضغطت بيدها على يده ، وكانت سعيدة لأنها تمكنت من إسعاده .

وفجأة قال لها :

ـ لا بل كان ثمة فأل عندما وصلتُ الوادى أول مرة ، لقد سألت إذا كان هذا هو المكان المنشود . هل أحدثك الآن بقصة الفأل بقصة أول ليلة لى فوق التل ؟

أجابت :

ـ أخبرنى بها مساء الغد ، فمن الأفضل أن آوى إلى فراشى الآن . انتصب واقفاً وساعدها على الوقوف ، فأرخت بثقلها على ذراعه بشدة وهو يعينها على صعود السلم وهو يقول :

ـ هنالك شىء روحانى خفى فى هذا المنزل ، شىء عجيب حقًّا يا «ألسيا » ، فهو الروح الجديدة ، روح هذا المولود الأول فى الجيل الجديد .

قالت « أليسيا » :

ـ سيكون الولد صورة من التمثال الصغير .

ولما رتب « ريتشارد » الأغطية حولها خوفًا من أن تُصاب بالبرد عاد إلى غرفة الصالون . كان بإمكانه أن يسمع أصوات الأطفال تملأ البيت وهم

يهبطون الدرج ويصعدون متعثرين بأقدامهم المتلصصة يعبثون برماد المدفأة وينادى بعضُهم بعضًا فوق الشرفة . . وقبل أن يذهب إلى فراشه حمل الكتب الثلاثة العظيمة ووضعها فى أعلى رف من المكتبة .

كانت الولادة عسيرة . استلقت « أليسيا » بعدها فوق فراشها منهكة وقد اصفر وجهها عندما حمل لها « ريتشارد » طفلها ووضعه بالقرب منه ، فقالت بغبطة :

ـ نعم ، إنه يشبه التمثال ، كنت أعرف ذلك حقًّا .

جلس الطبيب القادم من « مونتيرى » قرب « ريتشارد » أمام المدفأة وقد قطب جبينه بكآبة وهو يحرك خاتمه حول بنصره ، فى حين فتح «ريتشارد» زجاجة كونياك وملأ كأسين قائلاً :

ـ سنشرب نخب ابنى .

رفع الطبيب الكأس إلى أنفه يشم المشروب ثم قال :

ـ مشروب عظيم . . ولكن الأفضل لك أن تشرب نخب زوجتك

ـ طبعاً .

وشربا معاً ، فاستطرد « ريتشارد » :

ـ النخب الثانى لا بنى .

ـ اجعله لزوجتك أيضاً .

ـ فسأله « ريتشارد» متعجباً :

ـ لماذا ؟

فأجاب الطبيب وهو لا يزال يشم رائحة المشروب :

ـ افعلْ كنوعٍ من الشكر والوفاء فقد كدت تترمل .

وبلع « ريتشارد» الكونياك بجرعة واحدة ثم قال :

ـ لم أكن أعلم بذلك ، لم أعلم بحالتها . . كنت أعتقد بأن الولادات الأولى هى دوماً صعبة .

قال الطبيب :

ـ اعطنى قدحاً آخر .

واستدار الطبيب قائلا :

ـ لن يكون لك مزيد من الأولاد .

توقف « ريتشارد » عن صب المشروب وقال :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟ طبعًا سيكون لى المزيد من الأولاد .

ـ ليس من زوجتك هذه، فإنها قد انتهت . فإذا ما كان لك منها ولد آخر فستترمَّل .

تسمر « ريتشارد » فى مكانه ، وتوقفت مناغاة الأطفال الرقيقة التى كان يسمعها تملأ أرجاء البيت خلال الشهر السابق ، وبدأ كمن كان يسمع أقداماً تسترق الخُطَى بعيدًا وهى تنزل الدرج .

ضحك الطبيب بمرارة قائلاً :

ـ لم لا تسكر إذا كانت الصدمة شديدة عليك هكذا ؟

ـ لا . . لا أظن بأن فى وسعى أن أسكر .

ـ إذًا أعطنى قدحًا آخر قبل أن أذهب ، فالطريق بارد .

مضت ستة شهور قبل أن يخبر « ريتشارد » زوجته أنها لن تتمكن من إنجاب الأطفال . فقد أراد أن تستعيد قواها قبل أن تُصدم بالحقيقة ، وعندما صارحها كان يشعر بالإثم من كتمان السر . كنت تحمل الطفل وهىَ تنحنى من وقت لآخر لتلتقط بفمها إحدى أصابعه المرتفعة إليها ، كان الطفل ينظر إليها مبتسماً بعينين شاردتين ، ويبتسم وهو يمد أصابعه إليها لتمصها ، والشمس تملأ الغرفة ، وقد وصلت إليها من بعيد من أصوات العمال وهم يلعنون البقر بصوت رتيب . رفعت « أليسيا » رأسها وقد عبست قليلاً قائلة :

ـ ألا تظن أن وقت معموديته قد حان ؟

فوافق قائلاً :

ـ نعم وسأقوم بجميع الترتيبات فى « مونتيرى » .

قالت مفكرة :

ـ أتظن بأن الوقت قد فات كثيراً لتغيير اسمه ؟

ـ لا لم يفت الوقت ، ولكن لماذا تريدين تغيير الاسم ؟ وما هو الاسم الذى تريدينه ؟

ـ بودى لو دعوته « جون » . ونظرت إليه راجية موافقته وهى تستطرد :

ـ وهو كذلك اسم والدى الذى سيسر حتماً لهذا الأمر . كما أنى لم أكن مرتاحة لتسميته باسم التمثال ، وإن كان تمثال داود الشاب . . أجل لم أرتح لذلك ، و خاصة أن التمثال عارٍ من الثياب و ...

لم يحاول « ريتشارد » فهم منطقها هذا .

كانت « أليسيا » تبتسم ابتسامة فريدة مبهمة تَحَيَّرَ فى تفسيرها ، فشعر أنه مهما كان فقد تمكن من معرفة زوجته وأعماقها ، فستبقى هذه الابتسامة الحائرة نوعاً مبهماً يستعصى فهمه ، فقد كانت تخالطها مسحة من الحزن ، كما كانت مفعمة بحكمة خفية ، لقد شعر بأن هذه الابتسامة حجبته عن النفاذ إلى أفكارها .

لقد احتمت « أليسيا » بهذه الابتسامة التى كادت أن تقول :

أيها الغبى إن معرفتى مقارنة بمعرفتك تجعلها مدعاة للسخرية . . ولمس الطفل بأصابعها وجهها فى حنان ، فأمسكت بأصبعها وقالت :

ـ انظر قليلاً ، فليس كل ما يقوله الأطباء مُسَلَّماً به . . انتظر قليلاً سننجب أطفالاً آخرين يا « ريتشارد » .

خرج « ريتشارد » من الشرفة وجلس على درجات البوابة ، وشعر بأن الهدوء والسكون اللَّذَيْنِ كانا يسيطران عليه منذ دقائق قد اختفيا ، وأن الحياة تعود مرة أخرى إلى المنزل . كان عليه أشياء كثيرة يجب أن يؤديها . . فعليه أن يزرع ساحة الأعشاب ، وأن يعد مكاناً لنشر الملابس ، ومسح بيده على الإبريز كما لو كان يمسح على رقبة حصان .

صارت عائلة « هوايتسايد » هى العائلة الأولى فى «مراعى الفردوس » ، فقد كان لديها مزرعة خصبة ، وعلى الرغم من أن هذه العائلة لم تكن ثرية . . فإنها لم تكن فقيرة أيضاً . . وهى مع ذلك تعيش فى منزل فخم كان رمزاً للعائلة ، فهو واسع ، فخم بمقياس تلك الأيام ، دافىء ، أبيض ، ولقد أمده حجمه واتساعه بقيمة كبيرة ، بالإضافة إلى طلائه باللون الأبيض.

اللامع الذى يُجَدَّد فى فترات متقاربة ، ممَّا جعله أفخر بيوت الوادى ، وبدا كقلعة من قلاع القرون الوسطى على نهر الراين .

أعجب أهل الوادى بالبيت ، وكان بالنسبة لهم رمزًا للقوة والسيرة الطيبة، وكان مجرد النظر إلى هذا البيت يجعلهم يحسنون الظن بصاحبه «ريتشارد » ويطمئنون إليه ، وعلى الرغم من أن بعض جيران « ريتشارد » كانوا أغنى منه فإن أحدهم لم يفكر فى بناء منزلٍ مثلهَ ، لمعرفتهم أنهم لن يستطيعوا مجاراته فى رعاية المنزل .

وبفضل هذا البيت أصبح « ريتشارد » حكماً فى المنازعات بين أهل الوادى ، مما أضفى بداخله شعورًا بالأبوة تجاه الوادى . . وأصبح يعتبر مشاكل الوادى مشاكله . . وبعد خمس سنوات عبرت « أليسيا » عن شعورها الداخلى بأنها قادرة على إنجاب طفل جديد ، فلما حدثت «ريتشارد » ، أبدى استعداده باستدعاء الطبيب ، فأجابته « أليسيا » بأن أى سيدة تعرف عن نفسها أكثر من أى طبيب .

وقال « ريتشارد » فى نفسه : « إن فى النساء ذَرَّةً من الشفافية وضعها الله فيهنَّ حتى يزداد النسل . »

مرت ستة أشهر من شهور الحمل قبل أن تمرض « أليسيا » مرضاً شديدًا واستدعوا الطبيب . . كانت ساعة الوضع ساعة مخيفة بالنسبة لريتشارد الذى جلس قابضاً على ذراعى الكرسى يسمع صرخات الألم القادمة من حجرة النوم ، وقد تلوّن وجهه باللون الرمادى الداكن .

توقف الصراخ بعد ساعات طويلة ، فظل « ريتشارد » قابعاً فى مكانه، خائفاً من أن ينظر للطبيب وهو يقول متعباً : « هيا نشرب

نخبك . . لم تمت زوجتك والحمد لله برغم ما كانت تعانيه . . ولكن الطفل مات . »

أراد الطبيب معاقبة « ريتشارد » لإهماله أوامره الأولى ، وتركه وخرج ، فقد شعر الطبيب بأسف شديد تجاهه . . أصبحت « أليسيا » مقعدة !

لم يتمكن « جون » الصغير من تذكر أمه وهى مقعدة ، فقد ظل طوال حياته يتذكر والده وهو يحملها صاعدًا وهابطاً بها السلالم . . ولم تكن «أليسيا » تتكلم كثيراً . . ولكن ابتسامتها الغامضة كانت تنطق فى عينيها . . وعلى الرغم مما بها فقد أحسنت إدارة منزلها ، فكانت تحسن قيادة الفتيات الريفيات الخشنات العاملات فى المنزل . . وكانت « أليسيا » تقوم بترتيب سريرها بنفسها ، وكذلك كانت من مقعدها أو سريرها تدير كل شىء .

وكان « ريتشارد » يحملها كل ليلة إلى فراشها ، وما إنْ تستلقى على وسادتها البيضاء حتى يجلس بجوارها يربت راحتيها برفق حتى تستسلم للنوم ، وكانت تسأله كل ليلة : هل أنت راضٍ يا « ريتشارد » عن حياتك؟ فيرد بالإيجاب ، ويقص عليها أخبار المزرعة والوادى ، وتظل الابتسامة تكسو وجهها حتى تغمض جفنيها ، فيُطفىء النور . وأصبح ذلك طقساً يوميًّا . وبمناسبة بلوغ « جون » العاشرة أُقيم حَفْلٌ كبير حضره جميع أطفال الوادى ، وقالت لهم « أليسيا » وهى تجلس فى الشرفة :

ـ لماذا الهدوء يا أطفال ؟ هيا اجروا وامرحوا والعبوا .

ولكنهم لم يستطيعوا الركض والصراخ فى منزل « هوايتسايد » ، كما لا يمكنهم الضجيج والصخب فى الكنائس ، وبعد أن طافوا بجميع غرف المنزل نزلوا إلى الحظيرة ، حيث بدءوا فى الصراخ ، وعلت أصواتهم ،

ووصلت إلى الشرفة ، فعلت الابتسامة وجه « أليسيا » التى سألت زوجها هذا الليلة : هل أنت راضٍ يا « ريتشارد » ؟ فأجابها : نعم . . فقالت له : « كل شىءمع الزمن سيكون على ما يرام . . فلا تقلق بشأن الأطفال » . . جون فى العاشرة ، وبعد عشر سنوات أخرى سيتزوج ، عَلِّمْهُ كُلَّ ما تعرف ، فالعائلة فى أمان يا « ريتشارد » .

طبعا أعرف أن البيت فى أمان . سأقرأ عليه كتب « هيرودوت » ، فقد كبر بما فيه الكافية .

ـ على « ميرتل » أن تنظف جميع غرف الضيوف غدًا ، فقد مرت ثلاثة أشهر .

ظل « جون هوايتسايد » يذكر كيف قرأ عليه والده كتب المؤلفين العظام الثلاثة « هيرودوت » ، و « توسيدايدس » و « كزينوفون » . لقد أصبح غليونه الأبيض أحمر اللون وداكناً من كثرة الاستعمال ، وكان « ريتشارد » يمسكه بيده وهو يقول :

ـ التاريخ بكامله يكمن هنا ، فكل ما يتمكن الإنسان من عمله مسجل فى صفحات هذه الكتب : الحب ، والتحايل ، والغش ، وقصر النظر ، والشجاعة ، والنبل ، وحزن الإنسان ، كلها هنا . يمكنك يا « جون » أن تحكم على مستقبل البشرية من هذه الكتب ، فكل ما حدث فى الزمن الماضى مُدَوَّن فى هذه الكتب ، وإذا ما قارنا التوراة بهذه الأسفار نجدها سجلاً ناقصاً لشعب غامض .

كان « جون » يذكر أيضاً شعور والده نحو البيت ، وكيف أنه رمز الأسرة ، بل معبد مُعَدٌّ من أجلها .

كان « جون » فى سنته الدراسية الأخيرة فى جامعة « هارفاد » عندما توفى والده فجأة بذات الرئة ، فكتبت إليه أمه تطلب منه إتمام دراسته قبل أن يعود قائلة :

ـ لن تتمكن الآن من فعل أى شيء لم يتم عمله ، ولقد أوصى والدك بأن تتم دراستك .

وعندما عاد أخيرًا إلى البيت وجد أمه قد بلغ من الكبر عتيًّا ، فهى لا تقوى على ترك فراشها .

جلس « جون » بالقرب منها ليستمع إلى وصف أيام والده الأخيرة فقالت :

ـ طلب منى أن أقول لكَ شيئاً واحدًا . . اجعلى « جون » يفهم أن عليه أن يستمر بنا . أود أن أحيا فى أجيال أحفادى . وأصيب والدك بالهذيان بعد ذلك لمدة يومين لم يتكلم خلالهما إلا عن الأولاد فقط ، فقد كان يسمعهم يصعدون ويهبطون الدرج ، ويشعر بهم يسحبون الغطاء من فوق فراشه ، فكان يريد أن يحتضنهم بذراعيه ، وقبل النهاية بقليل فارقته أحلامه ، كان سعيدًا وهو يقول : « لقد رأيت المستقبل . . سيكون هناك عدد كبير من الأطفال فى هذا البيت . . إننى راضٍ تماماً يا « أليسيا » .

كان «جون » يستمع إليها وقد وضع رأسه بين راحيته ، وقالت له بلهجة جافة صارخة وهى ترفع جسدها ـ وهى التى لم تقاوم شيئاً فى حياتها ، بل سلمت جميع مشاكلها للزمن :

ـ هيا تزوج ، أريد أن أشهد زواجك . أريدها امرأة قوية تقدر على إنجاب الأطفال . إننى لم أتمكن من الإنجاب بعدك ، كنت أود لو أنجبت

طفلاً آخر ولو كان فى ذلك موتى . أسْرِعْ بالبحث عن زوجتك ، أريد أن أراها .

استلقت مسترخية فوق وسائدها والتعاسة تملأ عينيها وقد فارقت وجهها ابتسامة العلم بالأشياء .

ومرت ست سنوات ولم يتزوج « جون » ، وكبرت والدته ، وجفت أعضاؤها حتى أصبحت هيكلاً مُغَطًى بجلد أزرق يكاد يكشف عمَّا تحته ، ولكنها بقيت متعلقة بالحياة ، ونظراتها المؤنبة تلاحق ابنها الذى كان يشعر بالخجل كلما نظر إليها .

أخيرًا زاره زميل له من أيام الدراسة مع شقيقته « ويللا » ، وبقيا فى ضيافة « آل هوايتسايد » شهرًا ، تقدم « جون » فى آخره بطلب يد « ويللا » التى قبلت به زوجاً ، ولما أخبر والدته بذلك طلبت الاختلاء بالفتاة ، وبعد نصف ساعة خرجت « ويللا » من الغرفة وقد تضرج وجهها بشدة . فبادرها « جون » قائلاً :

ـ ما الذى حدث يا عزيزتى ؟

ـ لا شىء . كل شىء على مايرام ، لقد سألتنى أسئلة عديدة ثم حدقت فىّ وقتاً طويلا .

فقال مبررًا :

ـ إنها مُسِنَّة وقد ضعف وعيها .

وعندما دخل غرفة والدته كانت ابتسامتها الغامضة قد حلت مكان نظرتها المحمومة المقطبة فقالت :

ـ كل شيء على مايرام . بودى لو رأيتُ أطفالَك ، ولكنى لن أتمكن من ذلك ، فقد تعلقت بالحياة بقدر ما استطعت حتى خارت قواى وتعبت .

وكاد « جون » أن يرى إرادتها القوية المسيطرة على جسدها النحيل تخور.

وفى تلك الليلة فقدت وعيها ، وبعد ثلاثة أيام فارقت الحياة بهدوء وسلام ، كما لو كانت تغط فى نوم عميق .

لم تكن نظرة « جون » إلى بيته كنظرة والده ، فقد كان يفوقه حبًّا ، إذ اعتبره الغلاف الخارجى لجسده ، وكما كان بوسع ذهنه أن يغادر جسده ليطوف بعيدًا ، فقد كان بوسعه أن يغادر البيت ليعود إليه كما يفعل الذهن عندما ينتهى شروده ، فكان يعيد طلاء البيت باللون الأبيض مرة كل عامين ، ويشرف بنفسه على زرع الحديقة وتقليم أعشابها ، ولكنه لم يحتل المكانة الكبرى التي كانت لوالده فى الوادى ، فقد كان أقل عبوساً منه وأقل حزماً ، أما الغليون الأبيض فقد أصبح فى عهده داكناً بل أسود تقريباً .

وبينما كانت « أليسيا » هادئة منطوية على نفسها ومهيبة ، فإنها جعلت سكان الوادى يشعرون ـ على الرغم من لطفها وكرمها وطيب معاملتها ، ومراعاتها لشعورهم ـ بأنهم كالفلاحين المأجورين الذين يزورون قصر السيدة، أما «ويللا» فقد أحبت الوادى منذ رأته ، وكانت تهوى القيام بزيارة نساء أهل الوادى والجلوس معهن فى مطابخهن ، وهن يشربن الشاى الثقيل ويثرثرن فى أمور بيوتهن ، ولقد برهنت على درايتها بالوصفات والأكلات ، وأصبحت جاراتها ينادينها باسمها الأول .

وربما يعود الفضل إليها فى تحول « جون » إلى رجل اجتماعى أليف،

فقد زالت عنه السلطة التى كانت يتمتع بها والده لترفعه عن الناس وانزوائه ، فجون يحب جيرانه ، ويجلس على مقعده فى الشرفة أيام الصيف القائظة يستضيف كل من يوم به ، وكان الجميع يتحدثون فى السياسة ، وهم يتناولون شراب الليمون . كانت نظرة «جون » إلى الحياة نظرة ساخرة ، بعيدةً عن التعصب السياسى والدينى الذى يسمم أجواء المقاطعات الريفية . . كان يقرأ من كتبه الثلاثة مقاطع عن حالة العالم قديماً ، والمشابهة للحالة الآن، فيفض النقاش المحتدم بين الجميع . كان مثل والده يحترم ويحب تراث الأقدمين . وكان يدعو يوم الأحد بعض الجيران والقسم المتجول إلى الغداء ، ويجلسون فى جو ودىٍّ متسامح .

كان « جون » يتمتع بكل هذه الأمور ، وكانت غرفة الصالون هى محور حياته ، فقد كانت مقاعدها المريحة ولوحاتها المعلقة على الجدران جزءًا منه، ومع كل مساء كان يبلغ سروره مداه والنار مشتعلة فى المدفأة وهو يجلس فى مقعده المريح يداعب غليونه ويقرأ كتبه الزراعية ، فى حين تجلس «ويللا » بالقرب من النور تطرز . ويغلق « جون» كتابه ويتجه إلى مكتبه .

ـ ما الذى تحاول عمله الآن ؟

ـ أود مراجعة بعض الأمور .

ويختفى خلف مكتبه ساعة ثم يقول :

ـ استمعى إلى هذا يا « ويللا» .

تبتسم « ويللا » وهى تقول :

ـ عرفت . . بعض الشعر .

ويقرأ لها الشعر وينتظر ، وتصمت مراعاة لشعوره ، ويطول صمتها :

ـ لا أظنه شعرًا ممتازًا .

يضحك بحسرة :

ـ لا . . ليس ممتازًا .

ويكور الأوراق ويقذف بها إلى النار :

ـ أعتقدت أنه سيكون شعرًا ممتازًا .

ـ ما الذى كنت تقرؤه ؟

ـ كنت أطالع شعر « فرجيل » وحاولت أن أقوم بمحاولة شعرية .

ويغلق مكتبه وينتقى كتاباً يعود به إلى مقعده .

تمتد حياة الناس عادة فى خط بيانى منحنٍ ، فهناك الطموح وخيبة الأمل وانتظار الموت ، ولكن حياة « جون » امتدت فى خط مستقيم ، لم يكن طموحاً ، ومع هذا أعطته مزرعته ما جعله يستأجر مَنْ يقومون برعايتها بدلاً منه ، ولم يكن يرغب فى شىء لا يملكه أو تمنعه إمكانياته من امتلاكه ، ولهذا فهو يتمتع باللحظة التى يعيش فيها ، فقد عرف كيف يعيش حياة رغدة فريدة فى طابعها .

شىء واحد كان ينقصه ، هو أنه لم ينجب ، على الرغم من أن حنينه إلى الأطفال يُماثِل حنين والده . وكذلك « ويللا » كان حنينُها مماثلاً له ، على الرغم من أن هذا الموضوع كان يربكهما ، فلم يبحثاه قط .

مرت ثمانية أعوام على زواجهما ، وحملت « ويللا » بالمصادفة ، ومرت فترة الحمل طبيعية ، كما وضعت وليدًا سلبياً .

لم تتكرر المعجزة ، ومع هذا كانا يشعران بامتنان ، واستيقظت في «جون » الرغبة القديمة في تخليد الذات بعد أن هجعت ، وحَوَّله شعوره بالمسئولية تجاه الأجيال القادمة إلى سيد للمزرعة .

لم تتغير « ويللا » كزوجها ، فقد اعتبرت ولادة « ويليام » حدثاً طبيعيًا .

ـ سأل جون زوجته :

ـ أتظنينه على شيء من الذكاء ؟

ـ إنه ولد عادى .

ـ ولكنه ينمو ببطء .

فى عيد ميلاده العاشر فتح « جون » كتاب « هيرودوت » وقرأ على ابنه المحدق فيه ، وبعد أسبوع وهو يقرأ له لاحظ « ويللا » وهى تضحك منه فسألها :

ـ ماذا بكِ ؟

ـ انظرْ تحت مقعدك .

تنحنى « جون » فرأى ابنه وقد بنى بيتاً من أعواد الكبريت ولم يشعر بالقراءة ، فسألها جون :

ـ لم يكن يصغى ؟

ـ لم يستمع إلى كلمة منذ الليلة الأولى .

أغلق « جون » الكتاب وأعاده إلى مكانه ثم قال :

ـ ربما لا يزال صغيرًا ، سأنتظر عاماً آخر .

ـ لن يعجبه الأمر فهو ليس مثلك أو مثل والدك .

وسأل يائساً :

ـ مالذى يستهويه إذًا ؟

ـ الأشياء التى تستهوى باقى أطفال الوادى ، مثل البنادق ، والخيل ، والبقر ، والكلاب .

ـ أخبرينى بالحقيقة : هل هو معتوه ؟

ـ لا . . إنه أكثر ذكاءً وواقعية منك .

شعر « جون » أن اهتمامه بالأرض يتسرب منه ، فالمزرعة فى أمان ، البيت فى أمان ، والولد ليس معتوهاً ، فقدأظهر ميلاً إلى الأعمال الميكانيكية . ولاحظ « جون » ميزة أخرى فى الطفل ، وهى حسه التجارى ، فكان يبيع لُعَبَهُ إلى الأولاد ثم يشتريها بثمن أقل ، ثم يبيعها إلى آخرين بثمن أكبر .

وعندما أهداه والده عجلاً صغيرًا قايض عليه بعدد من الخنازير ، ويذكر الأب أنه عندما تلقى هدية والده عجلاً مماثلاً احتفظ به حتى مات .

عاد « جون » إلى مقعده المريح وغليونه الداكن وكتبه الممتعة ، كما عاد إلى أهالى الوادى الذين انتخبوه أمين سر مجلس إدارة المدرسة ، وبدأ المشيب يقتحم رأسه .

قليلة هى البيوت القديمة فى غربى أمريكا ، ونادرة البيوت التى عاش فيها جيل بعد جيل ، لذا كانوا ينظرون إلى هذا البيت بنوع من الاحترام ، فالأمريكى عادة لا يستقر فى مكان .

لم يمضِ وقت طويل على انتقال « بيرت مونرو » إلى الوادى ، حتى عرف

أهمية « جون هوايتسايد » ، وسرعان ما انضم إلى حلقة البيت وانتُخب عضوًا فى مجلس الإدارة . وفى أحد الاجتماعات استشهد « جون » بأقوال «هوايتسايد » ، فاقترب « بيرت » من « جون » بعد الاجتماع قائلاً :

ـ هل لى يا سيد «هوايتسايد » أن أسألك عن الكتاب الذى ذكرته الليلة؟

أمسك « جون » بالكتاب قائلاً :

ـ أتعنى حروب البلوبونيز ؟

ـ أود لو أعرتنى إياه لأقرأه .

ـ تردد « جون » ثم قال :

ـ طبعاً . . إنه من كتب والدى .

قامت رابطة قوية بينهما ، بعد عام ونصف دخل ابن « جون » ذات مساء وهو يقرر فى عصبيته :

ـ قررت الزواج .

وصرخ « جون » :

ـ ماهذا ؟ . . لِمَ لَمْ تُخبرنا ؟ . . ومن هى الفتاة ؟

ـ « ماى مونرو » .

وفجأة أدرك « جون » أن الخبر سار فقال :

ـ آه . . أنا مسرور ، إنها فتاة رائعة أليس كذلك يا « ويللا » ؟

تجنبت « ويللا » نظراته ، وقالت لابنها :

ـ متى يكون الزواج؟

ـ قريباً بعد إعداد البيت فى « مونتيرى » .

وقف « جون » وأشعل غليونه ، ثم عاد إلى مقعده قائلاً :

ـ لماذا كتمت الأمر عنا ولم تخبرنا به ؟

صمت الفتى . فقال « جون » :

ـ تقول إنكَ ستعيش فى « مونتيرى » ، ومعنى هذا أنك لن تأتى بزوجتك لتعيشا هنا . . ألن تعنى بالمزرعة ؟ !

هَـزَّ الفتى رأسه . . فقال « جون » :

ـ هل تخجل من شىء هنا ؟

ـ كلا . . ولكن لا أحب التحدث فى أمورى الخاصة .

وتساءل أبوه بمرارة :

ـ ألا تظن أن الأمر يعنينا نحن أيضاً ؟

قاطعه الفتى قائلاً :

ـ تربت « ماى » فى المدينة ولا تحب الوادى وحياته الرتيبة الخالية .

ـ آه . . فهمت ما تعنى .

ـ وعندما عرفت أنها تفضل المدينة شاركت فى وكالة لبيع سيارات فورد .

هز « جون » رأسه وقال :

ـ يمكننا تغيير غرف هذا البيت .

ـ لكنها لا تحب سكنى الريف .

قالت « ويللا » بحزم :

ـ انظر إلى والدك .

رفع « جون » رأسه وابتسم قائلاً :

ـ سيسوى الأمر حسب رغبتك ، فهل لديك المال الكافى ؟

ـ طبعاً ، نحن نبنى بيتاً كبيرًا بالنسبة لاثنين ، وربما عشتما أنت وأمى معنا .

استمرت الابتسامة على وجه « جون » وهو يقول :

ـ وأمر هذا البيت وهذه المزرعة ؟

ـ تحدثنا فى هذا أيضاً ، ويمكن بيع المزرعة والحياة فى المدينة ، ويمكننى بيعها خلال أسبوع .

تنهد « جون » وهو يسترخى على مقعده ، فقالت « ويللا » :

ـ لو كنت أعلم أنك ستصرخ يا « بيل » لكنت ضربتك بالعصا .

أشعل « جون » غليونه ثم قال :

ـ لن تستطيع البقاء بعيدًا عن البيت طويلاً ، ستُصاب بالحنين ، فهذا المكان فى دمك ، وعندما تُرزق بأولاد ستعرف أنهم لابد أن يعيشوا فيه . بوسعك الاغتراب فترة ، ولكنك لن تستطع البقاء بعيدًا عنه . سننتظر ، ونعتنى بالبيت ، ونشذب حديقته ، وسيلعب أولادك فى مبنى خزان المياه . كدت أنسى أن والدى مات وهو يحلم بالأطفال .

تمتمت « ويللا » :

ـ بإمكانى أن أضربه بالعصا .

غادر « بيل الغرفة مرتبكاً ، وردَّدَ « جون » بعد ذهابه :

ـ سيعود .

قالت زوجته بتجهم :

ـ طبعاً سيعود .

انتفض « جون » وهو يرفع راسه ناظراً إليها بريبة قائلاً :

ـ أحقًّا تظنين ذلك ؟

أم إنكِ تقولينه مُجاملةً ؟ إن المجاملة تشعرنى بالهزيمة .

ـ طبعاً أعنى ذلك .

* * *

فى أواخر هذا الصيف تزوج « بيل» وانتقل إلى بيته فى « مونتيرى » . وشعر «جون » أثناء فصل الخريف بالقلق نفسه الذى شعر به قبل مولد «بيل»، فطلا المنزل ، ونسق الحديقة ،و قال لبيرت مونرو :

ـ الأرض لا تنتج كفاية ، فقد أُهملت كثيرًا .

ـ نعم فلا نستغل كل الإمكانيات ، ولذا أتساءل : لماذا تقتنى قطيعَ غنمٍ وهضابك تستطيع أن تكفى قدرًا من الماشية .

ـ كان لدينا قطيع أيام والدى ولكنى أهملتُ الأرض فتكاثف العشب .

ـ أَحْرِقْ هذه الأعشاب ، فيبقى لديك أخصب مرعى فى الربيع القادم .

ـ فكرة رائعة ، مع أن العشب يمتد إلى المنزل ، ويلزمنى معونة عدد كبير من الرجال .

ـ سأساعدك وأجلب معى « جيمى » بالإضافة إلى الخمسة العاملين . ننتظر المطر ونعمل صباحاً قبل هبوب الريح .

حل فصل الخريف مبكرًا فى ذلك العام ، وجاء أكتوبر ، فاصفرت كاللهب أوراق الصفصاف المجاورة لجداول « مراعى الفردوس » ، وأخذت أسراب البط تطير فى السماء على علو شاهق متجهة جنوباً . . وبينما كان البط الأليف فى المزرعة يرفرف بأجنحته ويمد أعناقه ويطلق نقيق الحنين ، كانت أسراب الزرازير تحوم فوق المراعى ، أما الجو فقد تلبد بصقيع مبكر .

كان « جون » يتبرم من الشتاء ، وكان يقضى يومه فى الحديقة يشارك العمال فى تشذيب الأشجار .

صحا ذات ليلة على صوت المطر الخفيف المنهمر خارج البيت ، فقال بهدوء :

ـ هل أنتِ مستيقظة يا « ويللا » ؟

ـ طبعاً .

ـ هذه باكورة أمطار الموسم فاستمعى إليها .

فقالت بلطف :

ـ كنت مستيقظة عندما بدأ المطر ينهمر ، وقد أضعت على نفسك

القسم الأفضل ، أعنى القسم العاصف ، فقد كنت تشخر فى نومك .

ـ لن يطول انهاره ، فهذه البواكير تهطل لإزالة التراب فقط .

أشرقت الشمس فى صباح اليوم التالى ، وقد بدا كل شىء يلمع فى أشعتها بعد أن غسلته مياه الأمطار ، وعندما ذهب « بيرت مونرو » بصحبة « جيمى » إلى مطبخ « آل هوايتسايد » كان هؤلاء قد انتهوا من طعام الإفطار ، فقال « بيرت » :

ـ صباح الخير ياسيدتى ، صباح الخير يا « جون » ، أظن الوقت ملائماً لحرق الأعشاب ، فأمطار البارحة كانت طيبة .

ـ فكرة طيبة ولكن اجلس قليلاً وتناول القهوة .

ـ انتهيتُ من الفطور وليس بإمكانى تناول أى شىء .

ـ وأنت يا « جيمى » ؟ هل لك من قهوة ؟

ـ لن أقوى على ذلك .

ـ هَلُـمَّ إذًا قبل أن يَيْبَسَ العُشب .

نزل « جون » إلى القبو فأخرج منه « تنكَ الجاز » ، فلما عاد الأجيران من الحديقة وزع « جون » على الجميع أكياساً مبتلة .

قال « بيرت » :

ـ إنه الوقت الملائم ، فليس هنالك من ريح . لنبدأ هنا يا « جون » فنقف بين النار والبيت حتى نحرق القطعة المحيطة بالمنزل ، فلا يصح أن نعرضه للخطر .

دفع « جون » بالمشعل إلى الأعشاب السميكة التى بدأت بالاشتعال وهى تطقطق وتتكسّر بضراوة ، وقد علا لهيب النيران والرجال خلفها يطفئون رمادها ببطء بأكياسهم المبللة ، وهى تتجه نحو التل ، حتى صرخ «بيرت» قائلاً :

ـ ابتعدنا بها فيه الكفاية عن المنزل ، ويجدر الصعود إلى رأس التل لإشعال النار هناك .

بدأ الصعود برفقة « جيمى » . . وإذ ذاك هَبَّتْ زوبعة خريفية على منحدر التل ، متجهة نحو النار ، فحملت معها بعض شرر النيران إلى المنزل ، وفجأة تقوص الأعصار فعاد « جيمى » و « بيرت » ركضاً إلى رفاقهما ، وداروا جميعهم حول البيت فأطفَئُوا كل شرارة أو جمرة ، وقال «جون » :

ـ من حُسن حظنا أننا رأينا هذه الزوبعة الصغيرة فمثل هذه الأشياء التافهة يمكن أن تحرق البيت .

عاد « بيرت » و « جيمى » إلى قمة التل وأشعلا فيه النار ، فى حين تبع « جون » مع مساعديه النار المبتعدة عن البيت نحو التل .

كان الجو ملبدًا بالغيوم وقد أزرقّ لونُه بالدخان . وفى ربع ساعة كان المرعى قد احترق تماماً .

وفجأة علت من البيت صرخة حادة ، وكان دخان الأعشاب المحروقة يكاد يحجب المنزل عن الرجال الخمسة الذين سارعوا بالعودة راكضين ، ورَأَوْا من خلال الدخان ـ وقد خفَّتْ كثافته ـ النارَ تتصاعد من إحدى النوافذ العليا ، و « ويللا » تركض با تجاههم على الأرض المحترقة .

وقف « جون » عندما وصل إليها فصرخت .

ـ سمعت صوتاً فى القبو ، ولما فتحتُ بابه هجمت النار إلى أرجاء البيت .

وصل « بيرت » و « جيمى » فصرخ الأول :

ـ هل توجد خراطيم المياه فى غرفة الخزان ؟

أزاح « جون » نظره العالق بالبيت المحترق ، وقال بتردد :

ـ لست أدرى .

سحبه « بيرت » من ذراعه قائلاً :

ـ هيا بنا ، ماذا تنتظر يارجل ؟ هيا بنا ، فبوسعنا إنقاذ بعض الأثاث

خلص « جون » ذراعه من قبضة « بيرت » ومشى نحو البيت وهو يقول :

ـ لا أود إنقاذ أى شىء منه .

فصرخ « بيرت » وهو يركض نحو الخزان بحثاً عن المياه :

ـ أنت مجنون .

كانت ألسنة الدخان والنار تندلع من النوافذ ، وتعالى هدير الاحتراق من داخل المنزل القديم الذى كان يناضل فى سبيل حياته ، ومشى أحد المساعدين وجاور « جون » قائلاً :

ـ لو كانت النافذة مغلقة لكان لنا بعض الأمل ، على أنَّ هذا البيت بالغ الجفاف يراوحه تيار كتيار المدفأة .

وجاءت «و يللا » فنظرت إليه ثم وقفت بالقرب منه هادئة .. بدأ

الدخان يندلع من جدران البيت الخارجية ، فى حين اتجه « جون » نحو كوخه الخشبى وجلس على صندوق النشارة .

كان البيت يزمجر بهدير ريح عاصف ، وحدث شيء غريب رهيب ، فقد تهدم الحائط الجانبى وهبط إلى الخارج ، فبدت على ارتفاع ١٢ قدماً من الأرض غرفة الصالون والنار لم تمسها بعد ، وفيما هم ينظرون إلى ألسنة اللهب الطويلة وهى تندفع إلى الغرفة ارتجفت المقاعد الجلدية من الحرارة ، كما لو كانت مخلوقات حية ، وتحطم زجاج اللوحات ، وظهر الغليون بوضوح فوق المدفأة ، ثم حجب اللهب الغرفة ، وتهدم السقف البلاطى الثقيل ، فهدم الجدران بوطأته ، ثم تحول البيت إلى كتلة عديمة الشكل من النار .

عاد « بيرت » فوقف بالقرب من « جون » مستسلماً ، وهو يقول :

ـ كان هذا من الإعصار ، ولابد أن شرارة قد انحدرت إلى القبو وأشعلت الجاز الموجود فيه .

نظر إليه « جون » بسخرية مذعورة فقال :

ـ نعم يا سيدى ، لابد أن يكون الجاز قد اشتعل .

أخذت النار تشتعل دون عائق بعد أن أحرزت نصرها ، فى حين ارتفعت ألسنة اللهب إلى الفضاء ولم يعد ما تأكله يشبه البيت إطلاقاً . وقف «جون » محدقاً فى النار المتصاعدة ثم انتصب متنهدًا ، وهو يرنو إلى حيث كانت غرفة الصالون ، وقال :

ـ لقد انتهى الأمر . أعتقد أننى أعرف الآن شعور الروح وهى ترى

جسدها يُدفَن فى الأرض ويغيب فى بطن الثرى ، دعنا نذهب إلى بيتك يا «بيرت» فإنى أود مخابرة « بيل » فقد يكون لديه غرفة لنا .

ـ لِمَ لا تبقَى معنا ؟ لدينا الكثير من الغرف .

ـ لا . . سنذهب إلى « بيل » .

التفت إلى الأنقاض المشتعلة ، فاقتربت منه « ويللا » مَادَّةً يدها لتمسك بذراعه ، ولكنها عادت فسحبتها قبل أن تمسه ، ورأى « جون » حركتها هذه فقال :

ـ كان بودى إنقاذ غليونى .

قال « بيرت » بعاطفة فياضة :

ـ نعم ياسيدى فقد كان أحسن غليون رأته عيناى . . هناك فى المتحف ، ولكن لا يماثله .

قال « جون » متأثرًا

ـ نعم . . مضى عليه زمن وهو يُستخدم للتدخين . . وكان ذا مذاقٍ طيب !

فى الثانية مساء غادرت سيارة السياحة محطة « مونتيرى » لجولة فى شبه الجزيرة . كانت السيارة تعبر طرقات الرحلة المنظمة با متداد سبعة عشر ميلاً ، كان المسافرون يطلون على البيوت الضخمة ، وشعر المسافرون وهم يتطلعون عبر النوافذ بأنهم كاللصوص الممتازين .

كانت السيارة تزحف عبر المدينة وفوق التل متجهة إلى دير إرسالية «كارميلو » بقبته المائلة ، فلما وصلت انحرفت إلى جانب الطريق حيث

أوقفها السائق ، فى حين كان الدليل يقود المسافرين إلى الكنيسة القديمة .

وعندما عادوا إلى السيارة كانت الحواجز قد انهارت فقال رجل :

ـ هل سمعتم ما قاله الدليل ؟ إن الكنيسة مبنية كالسفينة بقاعدة صخرية ومرساة غائصة فى أعماق الأرض تحت البناء ، ومفعولها أثناء الزلازل كمفعول السفينة فى العواصف . رَدَّ كاهن شاب ذو وجه متورد ، وهو فخور بثوبه الكهنوتى :

ـ بل حدثت عدة زلازل وبناء الإرسالية لا يزال باقياً فى مكانه، على الرغم من أنه مبنى من الطوب فقط .

اشترك فى الحديث رجل قوى البنية متلهف العينين قال :

ـ كثيرًا ما تحدُث أشياء مضحكة غريبة . . توفيت زوجتى خلال العام الماضى بعد زواج خمسين عاماً .

ونظر حوله مبتسماً فى انتظار تعليق .

وكان يجلس فى السيارة عروسان يقضيان شهر العسل تشابكت أيديهما ، فقال العريس :

ـ أسال : أين نحن ذاهبون الآن ؟

استمرت السيارة فى سيرها البطىء متسلقة وادى « الكرمل » ، فتخطت البساتين والحقول ، وقمة صخرية حمراء تسلقتها الحشائش الخضراء .

كان الأصيل قد بدأ يحتضر ، فقد انحدرت الشمس إلى مدخل الوادى المطل على البحر ، وبدأ الطريق يبتعد عن نهر « الكرمل » متسلقاً سفوح

التلال حتى وصل إلى قمة ضيقة ، حيث أوقف السائق السيارة ودار بها إلى جانب الطريق ، فأطفأ محركها ، ثم التفت إلى المسافرين قائلاً :

ـ هذه آخر نقطة نصل إليها ، فربما كان بينكم من يود النزول والتنزه قليلاً ، وسأستريح أنا بعض الوقت .

ترك المسافرون مقاعدهم ووقفوا فوق القمة الصغيرة يتأملون « مراعى الفردوس » كان الجو مغلفاً بأشعة شمس المغيب كغلالة ذهبية تلف المنظر أمامهم ، فوق أرض الوادى المقسمة إلى مربعات من البساتين الخضراء وحقول الذرة الصفراء ، والأرض المفلوحة البنفسجية ، وكان يتصاعد من البيوت المبنية المحاطة بالحدائق دخان نيران المساء ،، يحمله النسيم بعيدًا عن سماء الوادى . وتعالت أصوات الأجراس المعلقة بأعناق البقر ، وهى ترعى فى الوادى ، ومن بعيد وصل إليهم نباح كلب وكأنه همسات صغيرة متقطعة ، وتجمع تحت القمة التى يقفون عليها قطيعُ غنمٍ قرب شجرة سنديان باسقة ، وقال السائق :

ـ هذا المكان اسمه « باستوراس ديل شيلو » وهو شهير بزراعة الخضروات والفواكه ، لأنها تنضج مبكرًا ، أما معنى الاسم فهو « مراعى الفردوس » .

تأمل المسافرون الوادى أمامهم ، فتنحنح رَجُلٌ وقال بصوت تملؤه رنة التنبؤ :

ـ إذا ماصدق حدسى فسيشاهد فى هذا الوادى بيوت كبيرة مبنية بالحجارة ، لها أبواب حديدية كبيرة مزخرفة ، وتحيط بها الحدائق الغَنَّاء ، وستملأ الملاعب الخاصة بالجولف هذا الوادى ، وسيأتى رجال أغنياء

ليعيشوا فيه ، رجال أتعبهم العمل فى المدينة ، رجال جمعوا الكثير من المال فباتوا ينشدون مكاناً هادئاً ليستقروا فيه ويستريحوا ويتمتعوا بالحياة . لو كان لَدَىَّ المال الكافى لا شتريت هذا المكان واحتفظت به مدة ثم قسمته قطعًا للبيع .

سكت قليلاً ثم لوح بيده واستطرد :

ـ نعم وعشت فيه أيضاً .

نبهته زوجته قائلة :

ـ هس .

التفت حوله وشعور الإثم يملأ نفسه ، فلم يجد أحدًا يستمع إليه .

كان ظل التلال الأرجوانى يزحف وسط الوادى ، ومن الأسفل علت صرخة خنزير غاضب ، فرفع الشاب نظره عن الوادى وتطلع إلى عروسه بنظرة معبرة وابتسم ، فابتسمت ابتسامة تأنيب تقول :

ـ أكاد أترك نفسى أفكر فى احتمال الأمر . . سيكون جميلاً لو تحقق . . ولكنى لا أقدر أن أحققه .

أجابت بابتسامتها :

ـ طبعًا لا يمكنك ذلك ، فطموحك هو ما يجب أن نفكر فيه ، وكل الأصدقاء يرجون الكثير منا . فينبغى أن تكون لكَ شُهرة يجب أن تسعى وراءها وتحققها حتى أكون فخورة بك . ولا يمكنك التهرب من المسئولية للاختفاء فى مكان كهذا ، برغم أنه قد يكون جميلاً لو تحقق ما يراودك .

انحسرت البسمة بحنان واستقرت فى أعينهما .

مشى الكاهن وحيدًا وهو يردد صلاته ، ولكن الخبرة علّمته أن يصلى وهو يفكر فى أشياء أخرى ، فأخذ يحدث نفسه :

ـ قد تكون هناك كنيسة صغيرة هنا حيث لا فَقْرَ ولا روائح كريهة ، ولا اضطرابات ، وقد تعترف رعيتى بخطايا بسيطة يكفى للتحلل منها ترديد صلاة « السلام عليكِ يا مريم » مرات قليلة . . إنه مكان يعمه الهدوء ولن يكون مسرحاً للقاذورات وأعمال العنف التى تؤلمنى وتدفعنى إلى الشك أو الخجل ، سيحبنى سكان هذه البيوت وسينادوننى : يا أبتِ ، وسأكون مُحِقًّا بينهم .

قطب الكاهن جبينه هو يُبعد عنه هذه الأفكار قائلاً :

ـ لست كاهناً صالحاً ، سأُكفر عن هذا بالعمل بين الفقراء وسط رائحتهم وبين نزاعاتهم ، لا يمكننى التهرب من المآسى التى يُقدرها الله .

وابتسم وهو يتابع تفكيره :

ـ ولكننى قد أجىء إلى مكان كهذا بعد موتى !

أمعن الرجل المسن النظر وهو يطل من النافذة ، وجاش الصمت فى أذنيه كنسمة تهب عبر شجرة سَـرْوٍ . . لم يكن يرى التلال البعيدة بوضوح ، ولكنه كان يرى الأشعة الذهبية والظلال الأرجوانية ، فانبهرت أنفاسه ، وتألقت الدموع فى عينيه ، فضرب جبينه براحتيه بحركة استسلام وهو يقول :

ـ لم أجد وقتاً للتفكير . فقد كنت منهمكاً فى المشاكل . . لو هبطت إلى هذا الوادى ولو عشت فيه فترة لفكرت فى كل الأشياء التى وقعت لى ، ربما

أمكنني جمعها فى قطعة تحمل بين طياتها معنًى وهدفاً بدلا من أن تظل هكذا . . فلن يكون هنالك شيءٌ يزعجنى ويبعدنى عن التفكير .

ألقى السائق بسيجارته وهرسها بقدمه قائلاً :

ـ هيَّا ، فعلينا أن نعود .

ساعدهم على الصعود إلى السيارة ، وأغلق أبوابها ، فى حين تجمعوا بالقرب من النوافذ يحدقون فى « مراعى الفردوس » ، والهواء يكتسب زرقة البحيرة الصافية ، والمزارع يغمرها الهدوء .

واستطرد السائق قائلاً :

ـ إننى أفكر فى امتلاك قطعة صغيرة هنا ، يمكننى أن أربى فيها بقرة وخنازير وكلباً ، فمن الممكن أن يكتفى الإنسان بما تدره مزرعة صغيرة هنا .

وأدارَ المحرك فارتفع هدير السيارة ، ثم خفت ، ثم قال و السيارة تنحدر :

ـ قد تتصورون ما أقوله سخيفاً ، ولكنى أحب أن أنظر أسفل الوادى وأفكر كم تكون الحياة هادئة مريحة بالنسبة لمن يقدر على العيش فى مكان صغير كهذا .

رفع قدمه من على الفرامل فانطلقت السيارة مسرعة وهى تنحدر إلى وادى « الكرمل » الطويل ، نحو الشمس وهى تغيب خلف الأوقيانوس على أبواب الوادى .

شتاينبك ومراعى الفردوس

جون شتاينبك . ولد فى السابع والعشرين من فبراير عام ١٩٠٢ فى مدينة ساليناس بولاية « كاليفورنيا » الأمريكية ، درس فيها بداية ولكنه انتقل إلى جامعة « ستانفورد » فى عام ١٩١٩ وبدأت اهتماماته الأدبية تتبلور ، فاختير مساعدًا لرئيس تحرير الصحيفة المدرسية ، وأخذ يقرأ الروايات والكتب الأدبية ، فتأثر كثيرًا برواية « موت آرثر » التى ظهرت آثارها فى رواياته بعد ذلك . . والغريب أنه درس بالجامعة علم البيولوجيا وتفوق فيه ، برغم زياراته المستمرة لمكتبة الجامعة قارئاً للقصص والروايات ـ وخاصة لسنكلير لويس ـ ولم يحتمل نوع الدراسة ، فترك الجامعة وهرب إلى باخرة بضائع فى «سان فرانسيسكو » ، ثم إلى حقول الشعير والبنجر فى إحدى المزارع ، وظهرت أعماله اليدوية هذه فى بعض رواياته .

وعاد إلى الجامعة بعد عامين من العمل ، ولكن بعد تغيير دراسته إلى اللغة والصحافة ، مما أتاح له تجربة قلمه ، واستمرار محاولاته فى كتابة القصص وقرض الشعر ، واستطاع أن ينشر فى مجلة جامعة « ستانفورد » قصتين قصيرتين وثلاث قصائد . . وبرغم أنه وُفق فى دراسته الجديدة فإنه ترك الجامعة قبل أن يحصل على شهادته ، فلم يكن يفكر فى وظيفة .

نشرت أولى رواياته « كأس الذهب » عام ١٩٢٩ باسمه الحقيقى بعد أن نشر بعض قصصه القصيرة باسم جون شتيرن . . فى العالم التالى مباشرة تزوج من فتاته كارول هيننج سكرتيرة الآلة الكاتبة ومراجعة النصوص فى كاليفورنيا ، وكانا يصيدان الأسماك معاً فى خليج الباسيفيك ليكملا طعامهما . . وفى عام ١٩٣٢ صدرت له رواية « مراعى الفردوس » ،

وكانت هذه الرواية بداية النضج الفكرى والفنى فى كتاباته ، ولكن نشرها لم يحقق له الاستقرار المادى ولا الاستقلال فى مهنة التأليف التى كان ينوى أن يتفرغ لها تماماً . . وراجت له قصتان : إحداهما باسم « فى الزجاجة الغامضة » ، فأشترى سيارة مستعملة سافر بها مع زوجته إلى المكسيك ، وكاد أن ينزلق فى هذا الاتجاه التجارى ، إلا أنه عاد إلى جَدِّيته وأصدر روايته الشهيرة « فئران ورجال » عام ١٩٣٧ ، وهى الرواية التى حَوَّلَها الكاتب المسرحى جورج كوفمان إلى مسرحية عرضت فى العام نفسه فى برودواى وفازت بجائزة الدراما . . و بعدها بعام واحد أصدر « الوادى الممتد » ، وهى قصص قصيرة خيالية . . وفى العام التالى ـ عام ١٩٣٨ـ أصدر أشهر رواياته « عناقيد الغضب » ، وتدور حول العمال المهاجرين فى « كاليفورنيا » ، وقد أحدثت الرواية دويًّا هائلاً فى الأوساط الإعلامية والأدبية ، وفازت بجائزة بوليتزر عام ١٩٤٠ ومُنح جون شتاينبك عضوية المعهد القومى للفنون والآداب .

وأوحت إليه الحرب العالمية الثانية الدائرة بعديد من التحقيقات والكتابات والمساهمات ، أبرزها اشتراكه فى كتابة قصص سينمائية لهوليود وخاصة فيلم « زورق النجاة » الذى أخرجه الفريد هيتشكوك ، وقامت ببطولته تالولا بانكهيد . . وبعد مشاجرات مستمرة مع زوجته تم الطلاق ، على الرغم من رحلة الكفاح التى جمعت بينهما وهما بعد فقيران يتحسسان طريق الشهرة والمال .

ولعل السينما تكون قد أثرت على اهتمامات جون شتاينبك وعلى سُلوكه أيضاً ، بدليل زواجه فى العام التالى مباشرة ـ عام ١٩٤٣ـ من الراقصة جوين فردون فى « نيو أورليانز» ، وأنجب منها ولدين . . وبعد انتهاء

الحرب ظل شتاينبك على علاقته باستوديوهات هوليود ، فكتب قصة فيلم « المهر الأحمر » ، ثم فيلم « فيفا زاباتا » الشهير . . ومع هذا اعتبر النقاد أنها مرحلة « تَدَنِّى » فى مستواه الأدبى ، واتجاه مغاير لتطوره وقيمته . . وربما نتيجة للنقد القاسى الذى واجهه ، كتب رواية من أشهر رواياته وأنضجها أيضاً ، وهى رواية « مغيب القمر » عام ١٩٤٢ ، وتدور حول أحداث الحرب وويلاتها ، وقد نال عنها وساماً من ملك النرويج ، حتى قيل : إن البلد المذكور فى الرواية دون اسم هو النرويج . . وفى عام ١٩٤٧ استمر على هذا المستوى فأصدر رواية « الأتوبيس العنيد » . . وفى العام نفسه كتب قصة « اللؤلؤة » . . بعدها عاد إلى المستوى « المتدنى » فى الكتابة ، وربما كان ذلك لطلاقه من زوجته الثانية وأم ولديه فى عام ١٩٤٨ ، ونتيجة أيضاً لوفاة صديقه ريكيتس فى حادث تصادم سيارته بقطار .

وتزوج شتاينبك للمرة الثالثة عام ١٩٥٠ من آلين سكون ، ولعلها هى التى شجعته على العودة إلى مستواه الرفيع فى الكتابة ، فكتب روايته الشهيرة « شرق عدن » عام ١٩٥٢ . . واستقر شتاينبك مع هذه الزوجة فى « نيويورك » التى أحبها كثيرًا . . وبدأت اهتمامات سياسية وحزبية تظهر فى حياته ، فاشترك فى كتابة خطب الحملات الانتخابية لمرشح الحزب الديمقراطى ستيفنسون ، ثم عمل مستشارًا لصديقه الرئيس ليندون جونسون ، وقد نصح شتاينبك الرئيس بسحب قواته من « فيتنام » بعد أن قام بزيارة صحفية لها ، وكان ابنه الأكبر توم مشاركاً فى القتال . وكان شتاينبك قد بلغ الرابعة والستين من عمره .

ونال جون شتاينبك ميدالية الحرية الأمريكية عام ١٩٦٤ عن جهوده

السياسية في ذلك الوقت ، وكان قد فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٢ . . واختير أميناً عامًّا لمكتبة جون كنيدى التذكارية ، كما أنتخب عضوًا في مجلس الفنون القومى .

وقد أصيب شتاينبك بأزمات قلبية عديدة ، أولها في عام ١٩٦١ ، وآخرها في العشرين من ديسمبر عام ١٩٦٨ ، وقد أودت بحياته في هدوء بشقته بنيويورك . ورحل شتاينبك عن ستة وستين عاماً .

ومن الواضح أن أفضل كتابات شتاينبك هى تلك التى استقاها من المنطقة التى عاش فيها ، والأشخاص الذين عرفهم . . والمعروف عن «كاليفورنيا » أنها منطقة ثرية وخصبة وممتدة . . ويتميز أسلوب شتاينبك بالتهكم والسخرية وتصوير الشخصيات في مواقف مضحكة لا نُبْلَ فيها ، بل هى تتباهى بأعمالها الجريئة ، برغم التصرفات التافهة ؛ لأن تلك الأعمال تتسم بالتشوش وعدم الحقيقة . . ومع هذا فإن شتاينبك يتعاطف مع شخصياته المُعْدَمَة وحياتها البسيطة ، وتناقضاتها أيضاً ، لأن كان يرى أن كل شخص له نقاط قوة ونقاط ضعف . .

وقد تنوع إنتاج شتاينبك القصصى والروائى ، فهو يتناول حياة مواطنيه كما يتناول حياة المهاجرين ، ويتعرض للمشاكل الاقتصادية كما يتعرض للمشكلات الاجتماعية ، وينقد الأوضاع السياسية كما ينقد صراع الأحزاب ، ويتحدث عن الريف والأراضى الزراعية كما يتحدث عن العمال والمصانع ، و يستنكر الدخول الضعيفة للمواطنين في الوقت الذى يستمتع فيه القلة بالثراء . . وفي هذا بدا شتاينبك كما لو كان اشتراكيًّا وسط المناخ الأمريكى الرأسمالى ، على الرغم من أنه لم يكن كذلك .

كان شتاينبك يبحث عن « الفردوس المفقود » في حياته الخاصة ، وقد

شدته الشخصيات التى تبحث مثله عن هذا الفردوس المفقود، وتعانى فى سبيل ذلك ولا تصل إليه فى نهاية الأمر . . صحيح أن شتاينبك لم يكن ينادى فى رواياته بأيديولوجية ماركس ، ولم يكن يدعو لها ، ولكنه وقف إلى جانب البروليتاريا والطبقة العاملة بصفة خاصة ، وعبَّرَ عن النزاعات التى تنشب بين الأثرياء والمعدمين متأثرًا بالجو المحيط به .

وكان شتاينبك مُقنعاً فى سرده للأحداث ، وفى تحليله للشخصيات ، وفى وصفه للمواقف ، الأمر الذى كان يؤدى دائماً إلى وحدة الرواية وبلورة جوهرها ، والغرض منها . . فهو يعرض وجهات النظر المختلفة ، ولايتبنى وجهة نظر على حساب وجهة نظر أخرى ، ولا يفرض وجهة نظره الخاصة ، لأنه لا يعتمد على الأفكار ، وإنما يحلل ويشرح شخصيات تحرك وتتكلم وتناقش وتجادل وتختلف وتتفق .

ويعتمد شتاينبك فى أسلوبه على الحوار اليومى المعروف ، واللغة العادية المألوفة ، ومن هنا نجد الكلمات العامية ، والاصطلاحات الشعبية ، والسباب ، والحركات ، والإيماءات ، والتلميحات ، والإرشادات ، وكل ما يستخدمه الناس فى الشارع ، وفى المصانع ، وفى كل مكان ، حسب طبيعة هذا المكان .

ونتوقف عند رواية « عناقيد الغضب » التى وُضعت فى مقدمةَ قائمة أكثر الكتب رواجاً منذ صدورها فى مارس ١٩٣٩ حتى نهاية العام ، فقد وصل معدل البيع إلى ٢٥٠٠نسخة يوميًّا ، وطبع ٤٣٠ ألف نسخة ، وقُدمت فى السينما فى فيلم بطولة هنرى فوندا ، وجون كارادين . وترجمت الرواية إلى الفرنسية والألمانية واليابانية والعربية بعد ذلك ، وتقرر تدريسها فى المدارس . . أما نجاح هذه الرواية وشعبيتها فيرجع إلى تصوير

المهاجرين، وظروف المعيشة بشكل يمس المواطنين كافة ، وإلى حملة العداء فى الصحف والجهات المسئولة للرواية نفيًّا لوقائعها ، وتهرباً من حقائقها ، الأمر الذى شَكَّلَ دعاية للرواية وجاء بنتائج عكسية ، هى رغبة الناس فى الاطلاع عليها ، ووصول أخبارها إلى الدول الأخرى ، وترجمتها إلى لغات عديدة ، حتى أن بعض المكتبات والمدارس منعت تداول الرواية ، فزاد الطلب عليها ، على طريقة كل ممنوع مرغوب . . ولم يحتفل بالرواية سوى القراء ، وأيضاً نقاد الأدب الجادين الذين أشادوا بها كعملٍ أدبى ، بغضِّ النظر عن مضمونها الذى أغضب الكثيرين ، فقد قال « إدوارد ويكس » : إنها عمل أدبى منظم وعظيم ، وقال « جوزيف هنرى جاكسون » : إنها صادقة وعميقة ورائعة المستوى . وشبهها النقاد بروايات العصر : «ذهب مع الريح » ، و « لمن تدق الأجراس » ، و «الحرب والسلام » ، وغيرها . .

واستقبلت رواية أخرى لشتاينبك بحماس شديد، على الرغم من اختلافها شكلاً ومضموناً عن « عناقيد الغضب » ، هى رواية « شرق عدن» التى تتسم بالرومانتيكية ، وتكشف عن روح المؤلف وحياته فى السياق العام ، إذ يتحدث بضمير المخاطب فى الأجزاء الثلاثة الأولى للرواية التى تضم أربعة أجزاء ، وهذه الرومانتيكية أدت بالتالى إلى استخدام أسلوب مختلف عن الأسلوب الواقعى ، فهو أسلوب هادىء مهذب رفيع المستوى ، والأحداث لا تلهث ، وعدد الشخصيات قليل ، والوصف أكثر ، والشاعرية أوضح ، كما أن شيئاً من الميلودراما غلَّف الأحداث بالانتحار والموت .

أمَّا رواية « مراعى الفردوس » فهى أولى روايات شتاينبك الكبرى . .

ولعل اسم هذه الرواية دليلاً على تأثُّر الكاتب بالوادى الذى عاش فيه صباه ، وبتلك الأحداث التى وقعت بشكل غريب ودخيل على المنطقة ، لمجرد وصول أُسرة جديدة تتسبب فى جريمتى قتل ، وحادث انتحار ، ومشاجرات كثيرة ، وقدر كبير من التعاسة . . وهذه الأحداث هى التى أعاد الكاتب صياغتها مضافاً إليها تجاربة الخاصة ، وخياله القوى الخصب .

ويعود الكاتب إلى تاريخ هذا الوادى الذى يتحدد بعام١٧٧٦ عندما اكتشفته أسرة باتل ، وأسرة ماستروفيكى ، وأُسَر أخر ى، وفجأة حلت اللعنة التى جلبت الأسى والفشل ، ليعانى شارك وتهتز سمعته كرجل مال موهوب ، ثم تولا الأبله ، الذى يوضع فى إصلاحية ، وهيلدا المختلة عاطفياً التى يتسبب بيرت فى موتها ، وتضطر إلى الرحيل أُسرة جونيوس بعد متاعب اقتصادية ، وكذلك أسرة مورجان ، وتلتهم النيران منزل جون هوايتسايد . . وفى النهاية يجىء أوتوبيس محمل بالسياح الذين يتطلعون إلى الوادى الجميل ويسبحون فى أحلام وهمية بحياة سعيدة فيه .

إن هذه الرواية مكتوبة بمهارة ، وإن لم تكن الحرفية قد تأصلت بَعْدُ فى كاتبها ، ومن ثَمَّ فلتت منه مواقف وتحليلات وصياغات مهمة ، فالرواية تفتقد الوحدة ، وتبدو كما لو كانت قصصاً متفرقة جُمِعَتْ بلا رابطٍ يضم الحلقات المنفصلة فى سلسلة واحدة ، أو يصهرها فى بوتقة واحدة . . والكاتب يلمس تطلعات الطبقة المتوسطة التى تجلب آثارًا وخيمة ، ولكنه لا يتصاعد بالأحداث حتى ذروتها ، وإنما يفتعل الأحداث أحياناً ، ويلجأ إلى المصادفة أحياناً أخرى ، مما يعطى الانطباع بتفكك الرواية .

وعلى الرغم مما تقدم ، فإن شتاينبك كان يجرب وسائله ومواهبه من

حيث رسم الشخصيات ، وبناء الأنماط ، واستخدام الألفاظ وما وراء الألفاظ ، وطريقة السخرية والتهكم ، وأسلوب الوصف الذى أتاحت له الطبيعة الجميلة والوادى الخصب والأراضى الممتدة كل المواصفات التى تخدم الأسلوب ذاته . . وعلى الرغم من هذه المساحات الشاسعة فإن الكاتب قد تمكّن من الوصف الدقيق للأشياء والتفاصيل الدقيقة ، ولم يكتف بواقعية الأسلوب الروائى وإنما أضاف الرقة والشاعرية ، على الرغم من أنه يكتب بالنثر وليس بالشعر . . وهكذا ينجح فى إظهار شخصيات تتسم بالقوة والضعف معاً ، وهذه هى التركيبة الإنسانية الطبيعية ، ولا يوجد إنسان قوىٌّ دائماً ولا يوجد إنسان ضعيف على طول المدى .

ومكانة شتاينبك ـ وخاصة فى مطلع القرن العشرين ـ تُعد مكانة فريدة بالنسبة لمن ظهروا فى مرحلته ، مثل هيمنجواى ، وفوكنر ، ودوس باسوس ، وفتزجيرالد ، فهو يختلف عنهم بداة فى أنه لم يغادر بلاده إلى أوطان أخرى يكتب فيها وعنها . . وهو يُعَدُّ كاتباً معارضاً ـ على الرغم من أنه لم يكن اشتراكيًّا ـ فقد وقف إلى جانب المعدمين والمطحونين ، دون أن يكون أيديولوجيًّا أو ثوريًّا ، ولكنه كان فقط واقعيًّا وطبيعيًّا أحياناً ، وإنْ تميَّز عن هذه المذاهب والنزعات بلغته الشاعرية ، وروح الدعابة ، ومشاعر الشفقة . . وعلى الرغم من اهتمامه بالأرض فإنه كان يهتم أيضاً بالأسرة ، وهما محورا أعماله جميعاً . . فالطبيعة تؤثر على الإنسان وإنْ كان الإنسان يؤثر فيها . . ويهتم شتاينبك إلى جانب هذا بالرموز والرُّؤى الأخلاقية ، والتعاطف الإنسانى .

يقول شتاينبك فى خطاب فوزه بجائزة نوبل بتواضع وثقة وكبرياء : «الأدب لا يكتبه القِلَّة للقِلَّة ، وصُناع الأدب عليهم مسئوليات وواجبات

كبرى، أهمها تبديد الظلام، وتطهير النفس، والتأكيد على طاقة الإنسان، والإشادة بقدراته من منطلق الإيمان بقوى البشرية الخلاَّقة التى تسوف تبقى وتصمد وتسود . . » .

خديجة خطَّاب

خديجة خطاب

تخرجت فى كلية الإعلام - جامعة القاهرة - قسم الصحافة .

- عملت بالقسم الأدبى بجريدة الأهرام .
- التحقت بالتليفزيون بعد نجاحها فى المسابقة ، مذيعة بالقناة الثانية .
- قدمت أول برامج عن السينما المصرية « سينما نعم ، سينما لا » ، كما قدمت أولى الرسائل عن معرض الكتاب ومهرجان المسرح التجريبى ومهرجان الإسماعيلية للسينما وقدمت عديداً من البرامج الثقافية .
- صدرت لها ترجمة مجموعة قصص قصيرة بعنوان « الشمس والقمر » .
- تحت الطبع مجموعة قصص بعنوان « قبل الرحيل » ورواية بعنوان « شكراً أكتفى بهذا القدر » .
- درست نظم الإدارة فى بعثة تليفزيونية إلى اليابان .
- قامت بالتغطية التليفزيونية لتسليم جائزة نوبل لابنتى نجيب محفوظ فى ستوكهولم .
- تشغل منصب رئيس قسم التعليم بالتليفزيون .

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "بجائزة نوبل" في الآداب. هل فازوا بها عن جدارة؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية؟

هذه السلسلة "روايات جائزة نوبل" ..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فهي لا تكتفي بترجمة أفضل روايات هؤلاء الكتّاب وأشهرها، ترجمة كاملة وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب بارع عصري، ولكنها تضمّن الترجمة مقدّمة تاريخية وافية عن الكاتب، وتحليلية دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته، حتى يجد القارئ والدارس والأديب الناشئ، ما يسعده ويفيده ويلبّي حاجته الثقافية ..

من هذا المنطلق لا بد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف باستجابة ناشرنا المثقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الطموح ثقافياً رغم مغامراته المادية في عالم النشر. والله الموفق دائماً

فتحي العشري

Bibliotheca Alexandrina
0261313